

الأناركية الاصطناعية وإعادة تكوين العالم

إشراف وتقديم:
نوري الجراح

المتوسط

أجراس الوباء - الأناركيَّةُ الاصطناعيَّةُ وإعادةُ تكوينِ العالَم

تأليف مجموعة مؤلفين
إشراف نوري الجراح

تحويل وتنسيق
د / حازم مسعود

استهلال

نوري الجراح

تبلورت فكرة إصدار هذا الكتاب في خضمِّ نقاش مركَّز مع عدد من الصديقات والأصدقاء الذين شارك بعضهم أوَّلاً في كتابة مقالات لمجلَّة "الجديد" في إطار ملفٍّ، استقطب عدداً من الكاتبات والكتاب ممَّنْ جرت دعوتهم لتدوين انطباعات وتأمُّلات وأفكار حول موضوع العَزْل الصِّحِّيِّ، تحت عنوان "ماذا تفعل في البيت؟". كان ذلك مع بدايات انتشار الفايروس، ولم تكن الانتباهة إلى حجم الفاجعة قد وُلِدَتْ بعد.

وبينما كانت تلك الكتابات قَيْدَ النشر في المجلَّة تحت عنوان "الكوكب الأسير- تأمُّلات وأفكار ويوميات المعتزلين في البيت"، كان الوباء يسابق تلك الأقلام منتشراً في كلِّ ناحية من أنحاء الكوكب، حاصداً بِمِنْجَلِهِ الأرواح. وقد بدأت معالم الفاجعة الكونية تتظهَّر، وراح القلق ينمو في الوجوه والنَّظَرات. قبل أن يختفيَ الجميع في البيوت، ولم يعودوا يظهرون لبعضهم البعض إلَّا في صور تتحرَّك على شاشات الكومبيوتر وأجهزة الموبايل.

على هذه الخلفية، كتبتُ مقالتي "أبناء نوح وطوفان الوباء" التي سرعان ما سيتحوَّل النقاش في مضمونها إلى دعوة للمشاركة في كتابٍ، يطوِّر بدوره الأسئلة والأفكار الواردة في تلك المقالة التي أعتبرها، الآن، بمثابة حصاة، رُميت في بركة الفكر.

ولا بدَّ أن أشير هنا إلى أن المقال كُتب على أمل أن يُفتح الباب لمحاولة تفاعل فكرية عربية أوروبية جادَّة، تهدف إلى خَلْق نوع من التواصل بين مفكِّرين ومُبدِعين عربٍ ونظراءَ لهم في أوروبا أوَّلاً، وفي أطراف أخرى من العالَم. انطلاقاً من وعي يرى في وجود "أهمِّيَّة استثنائية لفَتْح مجال فكري آخر بين العرب والأوروبيِّيْن في ظلال اللحظة الحاضرة الكئيبة التي أخذ يُمليها علينا انتشار وباء مهول، ما تزال تداعياته الكارثية وأثره الدَّماريُّ على مستقبل البشر في المطالع، والمواجهة معه مفتوحة على احتمالات كارثية، تقتضي منَّا التَّفكُّر فيها على مستويَيْن فكري وأخلاقي، خصوصاً في مواجهة الحصار المضروب على البشر من قبَل الكلبية الرَّأسماليَّة، والوحشية الإمبريالية، والدولة الشمولية، وأنظمة الطغيان الشَّرقيِّ والآسيوي المقنَّع بالدولة القوية، وبالتالي فإن المقال قصد إثارة نقاش، يدعو إلى نوع من التواصل الفكري والضَّميريِّ، ببُعْدٍ إنساني معترض. بين مثقَّفين عربٍ وآخرين أوروبيِّيْن.

لا بدَّ أن أشير هنا إلى أنني قمتُ باتِّصالات مع عدد من الأقلام العربية وغيرها، مع إيطاليِّيْن ويونانيِّيْن وإسبان وإيرانيِّيْن وأتراكٍ، لاستقطابهم إلى نوع من التفاعل والحوار مع الموضوعات التي يثيرها المقال، والمضي خطوة في نَقْد الفكر الراهن المصدوم، والعاجز بالتالي عن تقديم قراءة وتصوُّرات مستقبلية للجائحة وأسبابها وتداعياتها، من جهة، ونَقْد سياسات النِّيُوليبراليَّة التي تبيِّن بوضوح أنها في سبيلها إلى أن تقود العالَم إلى مأزق وجودي مركَّب.

سبب أساسي يقف وراء مثل هذه الدعوة إلى التواصل والحوار مع المثقَّفين الأوروبيِّيْن هو ذلك الشعور المتجدِّد بالحاجة إلى خَلْق جدار أخلاقي من نوع فكري وأدبي ضميري، يقف في مواجهة هرطقات السِّياسيِّيْن المغامرين عبر قراراتهم المتخبِّطة بمصير البشر. بمعنى آخر الدعوة إلى إتاحة نوع من التفاعل مع البُعْد الفكري والأخلاقي والعملي للفكرة المعبَّر عنها في المقال (خصوصاً الدعوة إلى نوع من أممية فكرية متجدِّدة ومُلهِمة، تُتيحها أرضية مشتركة أو تشاركية، يصنعها مثقَّفون عرب وأوروبيون)، انطلاقاً من اعتقاد يرى في أوروبا الفكر الحُرِّ وأوروبا الحقوق والحُرِّيَّات الفردية صمَّامَ

أمانٍ عالَميَّاً، في مواجهة مغامرات النّيولبراليِّيْن وجَشَـعهم الاقتصــادي، وقد جرى الاتِّفاق مع دار نشــر "المتوسِّط" في ميلانو على إصدار الكتاب باللغَتَيْن العربية والإيطالية بدايةً، ولاحقاً بالإنكليزية.
ظروف الإقفال، والعَزْل، والاضـــطراب في يوميات وبرامج ومواعيد الكاتبات والكُتَّاب، الذي رافق التســارع في انتشــار الوباء. جعل من الصـعوبة بمكان التحضـير لإنجاز الكتاب بالصـورة التي تخيَّلتُهُ عليها منذُ البداية. أي بمشــاركة أوروبية واســعة. كاتبان تركي وإيطالي فقط تمكّنا من تلبية الدعوة في الموعد المحدَّد لها، وهو ما حتَّم عليَّ الدَّفْع بالكتاب في صــيغته الراهنة، ومواصـلة العمل على نســخة ثانية لطبعة ثانية من الكتاب. لا ســيَّما أن عدداً من الكُتَّاب الأوروبيِّيْن بدا متحمِّســاً للفكرة، ولم تُســعِفْهُ ظروفه للمشاركة في هذه الطبعة.
يضــمُّ هذا الكتاب، كما ســيلاحظ القُرَّاء الأعزَّاء، مروحة من الأفكار التي إمَّا أنها تقاطعت بما تطرحُهُ مع الأفكار المطروحة في "أبناء نوح"، أو علَّقت عليها أو حاورتْها أو تصـــادَّت معها أو انطلقت منها لتطوير فكرة خاصَّة من زاوية نَظَر مختلفة.
والخلاصة أن هذه المقالات إنما تطمح إلى أن تُشكِّل أساساً لنقاش فكري حُرٍّ، يتعلَّق بجملة من القضايا والإشكاليات المطروحة على الفكر في منعطف وجودي، هو الأخطر، حتَّى الآن، في عصرنا الحديث.
لا بدَّ أن أشـيد هنا بكلِّ من لبَّى الدعوة إلى النقاش، وســاهم بقِسْـط، في الإجابة عن سـؤال، أو تطوير سؤال، ورفد الحوار بتصوُّراتٍ، تُوسِّع من أُفق النقاش، ومن التفاعل المُرتَجَى مع الفكرة.
ولا بدَّ وجوباً من الإشارة إلى أمرَيْن، أوَّلهما أنني أدرجتُ دراسة الشاعر والأكاديمي الإيطالي إيمانويل بوتَّاتسي غريفوني في آخر الكتاب، لكونها توسَّعت في قراءة الظاهرة والتشاكل معها انطلاقاً من جملة حفريات ومقارنات وقراءات إبسستمولوجية موازية، قصدت أن تُوسِّع من أُفق الدلالة لما طابق أو (نجم عن تصوُّرات مُسبَّقة لتاريخية فكرة الوباء).
الأمر الثاني الذي أختم بالإشـــارة إليه أنني أدرجتُ في خاتمة هذا الكتاب، بالاتِّفاق مع الكاتب، مقالة كاشــفة، كان الناقد عبد الرحمن بسـيســو قد فرغ من كتاباتها عشــية ظهور الوباء، وظهرت في مجلَّة "الجديد"، بوصفها رؤية فكرية جريئة لحاضر الإنسان في العالَم، وذلك من منظور فلسفي وقِيَمِيٍّ. فلقد وجدتُ فيها توصيفاً دقيقاً للحال الإنساني، وجَرَسَ إنذار مُبكِّراً، رَصَدَ دبيبَ الكارثة.

أبناء نوح وطوفان الوباء

نوري الجرَّاح

هل أفلس الفكر، ولم يعد مفكِّرو العصــر وفلاسـفته بقادرين على تجديد أطروحاتهم للإجابة عن أسـئلة العصــر، وتوليد أسـئلة جديدة، تُجيب عن السـؤال الكبير، وتوابعه من الأسـئلة الناجمة عن وباءٍ، دهم الأرض، وبات جائحةَ الجوائح واللغزَ الذي حارت به عقول العلماء، ووَضَـعَ الطِّبَّ في حالة من العَجْز، لا ســابق لها إلَّا في محطَّات مظلمة من تاريخ البشــرية كتلك التي شــهدها العالَم مع الطَّاعُون والجُذَام والجُدَرِيِّ والمَلَارِيَا التي فَتَكَتْ بالأرواح، وجعلت العالَم مقبرةً للجنس البشري، في عصور، لم يكن فيها التَّطوُّر العلمي بَلَغَ ما بَلَغَهُ اليوم؟
حقَّاً، هل أفلس الفكر أم أننا نطلب منه أكثر ممَّا يجدر بنا أن نطالب به أهل الفكر، وأن العالَم بَلَغَ من التَّطوُّر التِّقْنيِّ على كلِّ صـــعيد درجاتٍ، يعجز الفكر (في صِـــيَغِهِ التي عرفناها حتَّى ظهور العصـــر الافتراضـي) عن اللحاق بها، ولن يكون للفكر من دور في حياة البشـر اليوم ما كان له في أزمنة سـابقة من أدوار ريادية، ما لم يتمكَّن من تجديد شَفْرَتِهِ الوراثية في ضوء علاقات المجتمع الرَّقْمِيِّ؟

***

ها نحن مرَّة أخرى، على سـطح هذا الكوكب القلق المعذَّب، في منعطف وجودي كبير، وأمام حادث هائل، يكاد يتهدَّد وجود الإنسان في الأرض، لا مجازاً، كما دأبت مخيِّلات الأدباء والفنَّانين على تصوير مواعيد الفناء الإنساني، جراء ظهور مفاجِئ لعدوٍّ غامض، بل بفعل ظهور هذا العدوِّ حقَّاً!

وها هو جسد الإنسان وقد كان حُرَّاً في الحركة والحضور تحت سماء العالَم يُسلَبُ منه، ويُدفَنُ في جسد جماعي أسير الحركة، ومحجوراً عليه في كهف كبير بآلاف الجدران.

حَيْرَةُ الفكر

لا أريد في هذه المقالة أن أضيف جملة أخرى إلى خطابٍ دِيْستُوبيٍّ، يريد أن يتكهَّنَ بمستقبل البشر، ولا أن أُسهمَ بسطر في تلك المرثية الجماعية التي بدأت تُطيِّرها عبر الأثير أقلامُ المفجوعين، سلفاً، بالمصير الأسود لبني البشر. فليس لديَّ من الأسباب ما يجعلُني أتشكَّك بمدى قدرة البشر على الدفاع عن وجودهم في هذه اللحظة الفارقة والعصيبة، بواسطة علوم الطِّبِّ، وأسلحته التي ابتكرها العلماء عبر تاريخ طويل من الأبحاث والدراسات المختبرية التي مكَّنت الأطبَّاء من مواجهة أعتى الأوبئة ووَقْف انتشارها، بل وتخليص البشرية من شرورها إلى الأبد، كما هو الحال مع الطَّاعُون، والجُدَرِيِّ، والكُولِيرَا، والإيْدز، وغيرها.

ما راعني حقَّاً، مؤخَّراً، بينما أنا أطالع خطابات عدد من المفكِّرين، خصوصاً المشهورين منهم في العالَم، كنعوم تشومسكي، وسلافوي جيجك، وميشيل أونفري، وحتَّى كيسنجر (فهو طراز من المفكِّرين أيضاً) وصولاً إلى يورغن هابرماس، أن هؤلاء، على الأقلِّ من بين مَنْ تفاعلوا في خطابات مباشرة مع الحادث، ووجَّهَ بعضهم نَقْداً لاذعاً لطريقة تعامُل الدول وأنظمتها الصِّحِّيَّة مع الوباء. عبَّرت خطاباتهم عن شيء كثير من الحَيْرَة المضمَرَة بإزاء المشهد الكارثي الذي تسبَّب به الوباء، وتمثَّل في عَجْز شامل للأنظمة الصِّحِّيَّة لدول عظمى عن استيعاب الصدمة، وردّ الضربة الأولى التي سرعان ما تحوَّلت إلى ضربات متلاحقة من قبَل الفايروس، تقهقرت معها تلك القوى العظمى، ودخلت في قلاعها المهدَّدة، وأدخلت الناس في الجحور، وجعلتْهُم أشبه بسُكَّان الكهوف، أو بأبناء نوح الهاربين من الطوفان إلى أعالي الجبال، وقد لاحت لهم مصائرهم، فهي لن تكون بأفضل من تلك التي كتبتْها قصَّة الخَلْق.

العنصرية الاقتصادية

إنسان الكوكب يمرُّ اليوم في منعطف وجودي كبير مفتوح على المجهول. ففي حين بدا بعض هؤلاء المفكِّرين، وكأنهم يستعيدون أنفاس الفكر الاشتراكي، بفعل انبهارهم بالتجربة الصِّينيَّة (الدولة الشُّمُوليَّة المتماسكة) في مواجهة الوباء، إلى درجة التبشير بإمكان استنهاض نوع ما من "الشُّيوعيَّة" (جيجك)، ولا يخفى على حصيف كم من الخفَّة في هذا التفكير، وهذه القراءة الرَّغبويَّة، ذهب بعض آخر (هابرماس)، إلى

التحذير من "خطر يتهدَّد الدِّيمقراطيَّة" يتسبَّب به طول (الإقفال أو الحَجْر)، ومشيراً أوَّلاً إلى ظهور نوع جديد من الأمراض الفكرية المواكِبَة للفايروس، أُطلِق عليه بـ "العنصرية الاقتصادية"، وثانياً ظهور معضلة أخلاقية كبرى، تتسبَّب بها فكرة المفاضلة بين روح إنسانية وروح أخرى، والتي تعود بالوبال على الكبار في السِّنِّ. هنا يطرح هابرماس السؤالَ الأكثر جوهرية: مَنْ هو الشخص الذي يحقُّ له أن يعطيَ الحياة لشخص، ويحجبَها عن شخص آخر، متَّخِذاً موقعَ الإله، ومتمتِّعاً بسلطاته؟

على أننا نجد عُذراً لنكتة جيجك الذي لم يكتفِ بما أشرتُ إليه، ولكنه دعا إلى تطوير الأنظمة الصِّحِّيَّة، ونبَّه من مخاطر العَزْل، وطَرَحَ العديد من الأسئلة الشاغلة المتمخِّضة عن صراع المجتمعات الأوروبية

مع الوباء. لِيَخْلُصَ كتشـومسـكي إلى نَقْد الخطاب الرَّأسـماليِّ في صـورته الموحِشـة محمِّلاً إيَّاه وِزْرَ التَّسبُّب بالوَهنِ البشري في مواجهة هذا الوباء.

***

بدوره يتَّخذ تشومسكي من أزمة كورونا مناسبة ليُواصِلَ طَرْحَ أفكاره المضادَّة للرَّأسماليَّة والسياسات النِّيُوليبراليَّة، ويقرن تهديد فايروس كورونا بعنصـرَيْن آخرَيْن، يُهدِّدان البشـرية "شـبح الحرب النَّوويَّة" و"أزمة الاحتباس الحراري".

ولا يأتي هذا المفكِّر الرَّاديكاليُّ بجديد، على عاديَّاته، سوى براعته في الصياغة، حتَّى عندما يقرِّر بأن العالَم بعد كورونا سيعرف، بطريقة أو أخرى، نوعاً من الانتعاش. وهو كلام عامٌّ، سمعناه بصوت كلِّ مَنْ تكلَّم من المحلِّلين في الإعلام العالَمي.

النقطة الجوهرية التي يطرحها تشـومسـكي من دون أن يذهب بعيداً في معالجتها، جاءت في صـيغة تسـاؤل "عمَّا إذا كان العالَم سـيعيد تنظيم نفسـه لخَلْق عالَم، يعتمد على الاحتياجات البشـرية أكثر من اعتماده الربح"، معتبراً أن حلَّ هذه الإشكالية من شأنه أن يحلَّ الإشكاليات الأخرى الكبرى.

ولا يبدو، عالَم الألسنيات، مضطرّاً لتجاوُز منظوره الأيديولوجي الذي يُملي عليه قراءة من نوع مضادٍّ لسياسات الولايات المتَّحدة بإزاء شتَّى القضايا والموضوعات أكانت تتعلَّق بالاقتصاد وقضايا الصِّحَّة والعمل والبطالة والفقر والتمييز في المجتمع الأميركي أو بإزاء سـياسـاتها الخارجية، وخصـوصـاً حصارها المفروض على إيران.

تشـغل مسـألة الصـراع الأميركي الصِّـينيِّ حيِّزاً مهمَّاً من تفكيره، وهو، في النهاية، يعتبر أن جائحة كورونا إنما جاءت لتكشفَ عيوب النظام العالَمي الذي يصفه بالنِّيوليبراليّ، وما يتسبَّب به من عناصر خَلَل اجتماعية وسياسية واقتصادية في العالَم. ولكنْ، هل يختلف أحد مع هذا الاستنتاج؟

كلام تشومسكي، على براعته في التوصيف، وقدرته على رسم الصورة الكئيبة للوضع البشري، في ظلِّ هيمنة إمبريالية ساحقة ماحقة، بات من البديهيات. كلُّ شيء يقوله بدا معروفاً. قيمتُهُ في كونه شهادة مضـادَّة. ولكنْ، كيف يمكن لها أن تكون مُلهِمَة لأجيال المجتمعات العالَمية الجديدة؟ وما هو دورها في برنامج جديد لطراز جديد وفاعل من معارضي سياسات الهيمنة على العالَم، بإزاء ما يُسمِّيه تشومسكي "الأزمة المدمِّرة للحضارة الغربية"؟

المعادلة الإنسانية

وهل يمكن امتلاك هذه القوَّة من دون خَلْق جبهة فكرية عالَمية، تُعوِّض إخفاقَ الأحزاب في اسـتقطاب الفئات المجتمعية الفاعلة؟

النقطة الجوهرية في رؤية تشـومسـكي ومفكِّرين آخرين للمسـألة الطارئة، أن خروج الفايروس عن السيطرة سببه غياب الاستعداد، وانصراف الانتباه، بصورة أساسية، نحو امتلاك القوَّة الحربية، وتلك الكلبية والجشع في الهيمنة على الأسواق في العالَم، وقد حوَّلا البشر إلى قطيع استهلاكي.

معه ومع غيره من المفكِّرين نتسـاءل عن وزن الفكر في المعادلة الإنسـانية الراهنة، وعن مدى قدرته على خَلْق جبهة مضادَّة للسياسات النِّيُوليبراليَّة المغامرة بالمصير الإنساني على كامل الكوكب؟

فلو نحن شـكَّلْنا اليوم لوحة فسـيفسـائية من أطروحات هؤلاء وآخرين غيرهم من المفكِّرين والمتكلِّمين الفاعلين في الإعلام، ممَّنْ يملكون شـيئاً من الحضـور المؤثِّر، لا بدَّ أن نفوز بمادَّة تعكس الواقع، بل وتطرح من زوايا متعدِّدة أسـئلة أسـاسـية، تحاول أن تجيب عن تلك الأسـئلة، ولكنْ، كيف يمكن لهذه اللوحة أن تكون فاعلة، ما لم تكن ذات رصيد من القوَّة؟

وهل يمكن امتلاك هذه القوَّة، من دون خَلْق جبهة فكرية عالَمية، تُعوِّض إخفاق الأحزاب في استقطاب الفئات المجتمعية الفاعلة، وتتمتَّع بالنفوذ، لتكون بمثابة مرجعية أخلاقية، يمكنها أن تراقبَ صانعي السياسات، وتُلهِم، في الوقت نفسه، النُّخَبَ والقوى المؤثِّرةَ في المجتمعات، لتُشكِّل، بالتالي، نوعاً من القوَّة الأخلاقية الرادعة والموجِّهة للسياسات؟

ما دام ما يجري في العالَم اليوم يمسُّ مصير البشر في الكوكب كلِّه، فإن مثل هذه الجبهة الأخلاقية والضَّميريَّة تبدو لنا ضرورة مُلحَّة، في ظلِّ إفلاس الأحزاب النَّمطيَّة وأيديولوجياتها يميناً ويساراً، في العالَم كلِّه.

صيغ جديدة

ليس المطلوب اليوم من المفكِّر المعارض مماحكة الإمبريالية، لإثبات وحشيَّتها، أو تعداد أخطائها وجرائمها، هناك شيء من مضيعة الوقت في هذا السلوك أو أقلّه التمترس الأخلاقي في القلعة إيَّاها، في وقت هي نفسها (الإمبريالية) تخرج لنا من لدنها يومياً مَنْ ينتقد خطاياها، بوصفها أخطاء، ويدعو إلى تصويبها. المطلوب في نَظَرنا هو خَلْق صيغ جديدة لتَوَاصُل فكري أممي، لربَّما تحوَّل لاحقاً، على نحو أو غيره، إلى مرجعية فكرية وأخلاقية موازية للقوَّة الغاشمة اقتصادياً وعسكرياً. آصرةً تضمُّ نُخُباً من العالَم كلِّه، تتنادى لتقرأ زمنها، وتقرأ معضلاته، وتظهر مواطن الضعف والقوَّة، ومصادر الخَلَل في حاضره، وتجعل من الفكر عجلة لتجديد الأسئلة، والبحث عن أجوبة، لا تغضُّ النَّظَر عن أمراض العصر، ولا عن الآلام التي يتسبَّب بها التفاوت في الأحوال والأوضاع بين جغرافيات الغنى وجغرافيات الاستفقار الرَّأسماليِّ، بينما هي تسعى للعثور على ضالَّتها من الأجوبة عن الأسئلة المشتركة بين أطراف فكرية متعدِّدة المشارب والمرجعيات.

مشروع مارشال إنساني

اليوم، وبينما الوحش الوبائي الغامض يفتك بالبشر، لا بدَّ أن ثمَّة مَنْ يتفكَّر لا يمكن تَرْك العالَم، وتَرْك الإنسان على سطح هذا الكوكب يستفرد به صُنَّاع الحرب وأهل الشَّرَهِ الاقتصادي. بينما أهل الفكر يتماحكون في ما بينهم على شاكلة ما كان يفعل المتبارون في السؤال عن جنس الملائكة.

على أن الأمر لا يتمُّ بخطابات شِعْرِيَّة، ولا باستيهامات فلسفية، وإنما ببَحْث فكري وأخلاقي عميقَيْن وباتِّفاق بين النُّخَب المثقَّفة في العالَم (من خلال أولويات فكرية) على الثوابت الكبرى التي صنعتْها خطابات عصور الأنوار والأفكار المضيئة التي تحدَّرت من صُلبها، وتبلورت في دساتير مضيئة في العصور الحديثة، وتجلَّت في مشاريع، قادت إلى ظهور نوع من التوازن بين القوَّة والأخلاق، وبين مصالح الدول والمصلحة الإنسانية في الدساتير والممارسات.

***

بعد الحرب العالَمية الثانية ظهر مشروع مارشال، ومن دونه ما كان لأوروبا أن تنهضَ من الحطام، ولا كان للعالَم أن يتجاوزَ كوارث الحرب، على رغم استمرار الصراعات والحروب في مناطق أخرى من العالَم بعيداً عن المسرح المركزي للحربَيْن العالَميَّتَيْن.

اليوم، وبينما الوحش الوبائي الغامض يفتك بالبشر، من دون بوادر حتَّى لظهور دواء يكسر ظهر الداء، لا بدَّ أن ثمَّة مَنْ يتفكَّر، هنا وهناك في العالَم، بضرورة أن يتغيَّر شيء في المسار البشري. سمعْنا هذا على لسان

متكلِّمين في أوروبا وآخرين في أميركا، وغيرهم هنا وهناك في ثقافات وجغرافيات، أحالها المركز الغربي إلى هوامش. لا بدَّ من مشروع مارشال إنساني، يعيد العالَم من خلاله بناء أنظمته الصِّحِّيَّة. ولكنْ، هل يبدو واقعياً أن نطالب بشيء من هذا القبيل دولاً قادت سياساتها البشرية إلى لحظة العَجْز

الراهنة أمام كورونا؟ هل يمكن مطالبة دول، سَــنَّتْ ســياســاتها على أســاس من علاقات القوَّة القاهرة بتخفيض ميزانيات الحرب، لصالح ميزانيات السلام للحفاظ بالتالي على صحَّة الإنسان؟

الأزمة الراهنة تطالب الفكر بطرح هذا النوع من الأسئلة المباشرة للوصول إلى التفكير بوضوح، بهذه الطريقة أو تلك. صُنَّاع الحرب والأزمات في العالَم يقفون اليوم في حالة من العَجْز. بل إن بعضهم يرقد في سرير المرض. ولكنْ، هل يمكن لهذه الجائحة أن تُغيِّر عميقاً وجذرياً في سياسات الدول وبرامجها ومشروعاتها الكبرى؟

لم يتعمَّق المفكِّرون في طَرْح هذا السؤال. أشاروا إلى الضرورة، غالباً، وأهملوا الإمكانية. مرَّة أخرى، لم يعد للكلام على الأنظمة في تعداد قائمة خطاياها بحقِّ البشــر قيمة. خطابات كهذه لن تجعلَها تلتفت وتُصغي. القوَّة لا تعبأ بسلامة المنطق عندما يكون المتكلِّمون فيه ضعفاء. الموازين لا تصلح مطفَّفة، ولا يمكن للموازين أن تستوي من دون أن تتعادل. القوَّة بالقوَّة. الجموع نفسها التي يحوِّلها الطُّغاة إلى حَطَب، يمكن أن تتحوَّل إلى ذوات عندما تعي حقوقها ومواطن قوَّتها، وطرائق اســتعمال تلك القوَّة. إذ ذاك تكفُّ عن أن تكون أُضحيَّات. إذ ذاك يكون لها صوت.

مهما كانت نبيلة في أطروحاتها، ومُبصِرة في رؤاها، لم ولن تكون فاعلة أصوات الفكر، وهي منفردة وعزلاء في قوقعاتها الجغرافية، ولا الأصــوات المفردة للنشــطاء المنتشــرين في العالَم، والمطالبين بالعدالة والســلام لسائر أهل الكوكب، وبالتالي، وفي ظلِّ ممكنات العالَم الرَّقْمِيِّ، والشبكة العنكبوتية، وآلاف التطبيقات والبرامج الإلكترونية هناك فرصــة، بل فرص ذهبية لابتكار طرائق جديدة للتعبير والتواصل بين دعاة التغيير الإنسانيِّيْن في العالَم.

أممية فكرية

ليس المقصــود بما نتصــوَّره على صــيغة "جبهة فكرية عالَمية" مجموعة من الحكماء والشــيوخ، بل شــخصــيات من شــتَّى الأعمار والمرجعيات والاختصــاصــات والتَّطلُّعات والجغرافيات واللغات، على قوسٍ، يضــمُّ المفكِّر والعالَم والطبيب والرِّوائيَّ والصِّــناعيَّ والمهندس، والحقوقي، نســاء ورجالاً، ومن مختلف الأعراق والثقافات، ممَّنْ يرفضــون السَّــيْر اليوم تحت أعلام العنصــرية أو وراء أقنعتها الاقتصــادية والأيديولوجية، شــريطة أن تقوم مثل هذه الحركة على أســاس من قدرات ذاتية، وبعيداً عن الاستقطابات بين القوى الدولية الكبرى المتصارعة.

ولا شــكَّ عندي في أن الفاعلين المؤمنين بأفكار كهذه هم اليوم كُثُرٌ، وقد اختبر جُلُّهُم قدراتِهِ في حركات سابقة أميركية وأوروبية ولاتينية وأفريقية وآسيوية، (لسنا بصدد التحديد في التسمية هنا) على قوس، يبدأ بالحركات المعادية للتمييز العنصــري، ولا ينتهي بحركات الدفاع عن البيئة المنتشــرة في كلِّ مكان من العالَم المعاصــر، وقد امتلكت الوعي المرهف بفساد الفكر الأيديولوجي، وبأولوية حماية الحياة على الأرض.

جيجك وتشومسكي وحتَّى كيسنجر يشتركون بنبوءة تقول إن البشرية لن تعود كما كانت. هل ينبغي أن نشــكَّ في ذلك؟ أليس ثمَّة في هذه الجملة شــيءٌ من تهويل، لا يصــدر إلَّا عن المصــدومين؛ فهل تكون لحظة الوباء، وقد انتشر وعَمَّ ووَضَعَ الإنسان في زاوية ضيِّقة، فرصةً حقيقيةً للبشر، ليس لِغَسْل الأيدي ممَّا يمكن أن يُلحِقَهُ بهم الفايروس من أذى، ولكنْ، للاغتسال من آثام العنصرية والكراهية والاستعلائية والاستهتار بالآخر؟ هل تكون هذه الجائحةُ فرصةً لإعادة اكتشاف الذات في الآخر؟

بالتأكيد ثمَّة شــيء ســيتغيَّر في العالَم. لكنْ، وعلى رغم ما هو فارق في الحادث اليوم، فليس من درجة قصوى في التغيير يمكن أن تُبدِّل وجه البشرية. لقد عرف العالَم عبر التاريخ لحظات أليمة وفارقة، وها نحن ندرج على سابق، ندرج ونتجدد، كما يدرج النهر، ممعناً في ماهيته، وماؤه يتجدد.

لندن في ١٧ نيسان/إبريل ٢٠٢٠

يقظة الضمير

أحمد برقاوي

منذُ أن تحوَّلت أوربا إلى مركز العالَم وعقلِهِ، وهي تفكِّر بذاتها على أنها العالَم، بل إن وَرَثَةَ مركزية الإنسان صاروا محتلِّين ومُستعمرين، انطلاقاً من أن مركزية الإنسان لم تكن تعني لأغلب فلاسفة الغرب سوى مركزية الأوربي. فرنسا بنتُ الثورة الفرنسية صاحبةُ شعار الإخاء والمحبَّة والمساواة ولائحة حقوق الإنسان تقتل مليون جزائري في سبيل بقائها دولة مستعمِرة! الاستعمار الإنكليزي لنصف العالَم لم يكترث بمصير المستَعْمَر! وعُنصرية الأبيض في جنوب أفريقيا لم ترَ سوى الأبيض مركز الإنسان! الصِّهْيُونِيَّة الأيديولوجيا التي نشأت في أوربا لم تكترث بالآخر الذي يعيش في وطنه! الأمريكي الذي أعاد العراق إلى ما قبل عصرنا مازال يفكِّر بمركزية أمريكا، بوصفها مركزية الإنسان!

لأوَّل مرَّة تستيقظ البشرية على خَطَر يداهم الإنسان في كلِّ أنحاء الكرة الأرضية، ولأوَّل مرَّة يحمل الخطر الكُلِّيَّ على الإنسان، من جرَّاء وباء الكوروناالعامّ، العقل البشري أينما كان ليفكِّر بمصير الإنسان. بل لقد أيقظ الكورونا الضميرَ الذي نام في سرير العولمة.

فالعقل العامُّ الذي أَرْعَبَهُ خطرُ الموت لا يفكِّر بأسباب الخطر ونتائجه الذي تهجس به عقول النُّخَب بكلِّ أنواعها. فالنخبة وهي تطرح الأسئلة الصحيحة لا تطرحها من أجل تفسير الواقعة العالَمية هذه، بل من أجل تغيير العالَم الذي نَبَتَتْ في أحشائه الفيروسات القاتلة.

دعوني أطرح الأسئلة تباعاً، والتي أراها قمينةً بالإجابات الفلسفية الكُلِّيَّة، التي قد لا يفكِّر بها العالِم أو رجل المال والاقتصاد، بل ولا رجل السياسة، وهذا يقودنا إلى أجوبتهم أو بعضها، والنَّظَر فيها من منطلق الخطر الكُلِّيِّ على الإنسان.

١-كيف ظهر فيروس كورنا؟ ولماذا؟ ومعنى الأجوبة:

سؤالُ كيف ظهر الفيروس من حيثُ طبيعته ليس سؤالاً فلسفياً، ولا أحد يستطيع الإجابة عنه سوى عالم البيولوجيا، والعامل في المختبرات العلمية المتعلِّقة بعالَم الفيروسات. ولكنْ، دعونا نمتحن الإجابات المتداوَلَة عن هذا السؤال. فالأجوبة تضعكَ مباشراً في معناها.

الإجابات العلمية الاحتمالية عن هذا السؤال هي:

١. طفرة طبيعية في حياة فيروس السارس، وانتقل إلى الإنسان عن طريق الحيوان. وبالتالي الطبيعة وحدها مسؤولة عن هذا الفيروس وخطره.

٢. هو ثمرة أبحاث مقصودة، وتسرَّب من مخابرها بشكل غير مقصود، وبالتالي فالخطأ العلمي هو السبب.

٣. إنه إنتاج مخابر علمية أمريكية أو أوربية أو صينية لإحداث كارثة في الاقتصاد العالَمي.

إذا قلتُ الطبيعة، ذهبتُ إلى العلم مباشرة، لكن واقعة الكورونا تعيدنا إلى سؤال مهمٍّ في مبحث الأخلاق والقِيَم، سؤال: هل يمكن أن نفكِّر بامتلاك الطبيعة علمياً دون أن نفكِّر بالإنسان ومصيره؟ إذا كان الفيروس طفرة، فسؤال العلم ما هي الشروط الطَّبيعيَّة وراء هذه الطفرة؟ وكيف يمكن مواجهة خطرها؟ سؤال المواجهة مرتبط مباشرة بمصير الإنسان الذي يهدِّده الموت المحتمَل جرَّاء الإصابة بالفيروس.

ولكنْ، ماذا لو كان فيروس الكورونا ثمرة خطأ مخبري؟ لا شكَّ أن إنتاج العلم فيروس الكورونا لأغراض الشَّرِّ، كجزء من إنتاج الأسلحة البيولوجية يشير إلى انحطاط الوعي الأخلاقي للدول ذات

التَّقدُّم العلمي والنازعة إلى الهيمنة، وتحويل العلماء إلى أخدام لسياسة الهيمنة. إن إنتاج هذا الفيروس لا يختلف عن إنتاج القنبلة الذَّرِّيَّة التي أُلقيَت على هيروشـيما وناكازاكي. لقد طُرِحَت مشـكلةُ العلم والأخلاق، فلسفياً، من أمد بعيد، غير أن توظيف العلم في النزعة التَّدميريَّة مازال مهيمناً. ولا يمكننا أن نضيفَ جديداً على الخطاب الأخلاقيِّ المرتبط بالعلم والسعادة البشرية.

أمَّا أن يكون إنتاج الفيروس مقصـوداً بنزعة مالتوسـية، أو نزعة ذات بُعْد اقتصـادي، وهو ما لا أميلُ إليه، فإن

ذلك يشـير إلى عدم الثقة بسـلوك الرَّأسـماليَّة تجاه الإنسـان. فبمجرَّد أن يُطرَح رأي كهذا، حتَّى ولو كان ضـعيف البرهنة، فإنه يشـير إلى الاحتجاج على غياب الإنسـان وموته في الحضـارة المعاصـرة. وموت الإنسـان لا يعني، فقط، غياب إرادته في تشـكيل العالَم، وفقدان حُرِّيَّته فحسـب، وإنما فقدان قيمته ومركزيته، كما سأُفصِّل لاحقاً.

٢- الكورونا بوَصْفها فضيحة:

ساهمت خطابات النُّخبة التي انطلقت من دَقِّ ناقوس خطر العولمة على البشـرية، ومكانة الإنسـان في رأسـمالية، لم يعد أمامها خطوط حُمر في فضـح الشَّـرِّ الناتج عن موت الإنسـان. لكن فيروس الكورونا جاء خطاباً فاضـحاً جدَّاً جدَّاً لاسـتهانة الدولة المعبِّرة عن مركزية الثروة بالجنس البشـري. فتغوُّل الرَّأسـماليَّة المتعولمة لم تكن سـوى التعبير العملي عن نهاية عصـر التنوير والتسـامح والمجتمع المَدَني والحزب والحُرِّيَّة والدِّيمقراطيَّة كنظام كُلِّيٍّ.

فدول العولمة اليوم وهي عاجزة عن الحفاظ على حياة الإنسان من خطر فيروس قاتل عَجْزاً، عبَّر عنه واقع المشفى، تؤكِّد بأن مكانة الإنسان في عالَم العولمة لم تعد تعني شيئاً.

لقد أعادت العولمةُ التفكيرَ بكلِّ المفاهيم الدَّالَّة على تعيُّن مسار الحُرِّيَّة وانتصـار مركزية الإنسان، وإلى دائرة اوالمراجعة.

العولمة اليوم تعيُّن خاصٌّ للرَّأسماليَّة، كمُتحكِّمة بمصير العالَم اقتصـادياً وسياسياً وثقافياً. إنها إمبريالية جديدة، وليسـت تشـكيلة اجتماعية اقتصـادية وليدة، لكنها إمبريالية ما بعد الدولة الاحتكارية، والسـيطرة المطلَق لرأس المال المتعدِّد الجنسـيات الذي لم يعد يحفل بالحدود القومية والدولة القومية، وبالتالي لا نجد هذا القَطْعَ التَّاريخيَّ الذي تمَّ عبر الانتقال من الإقطاع إلى الرَّأسـماليَّة، بل اسـتمرار في الرَّأسـماليَّة عبر تحوُّلات داخل الرَّأسماليَّة العالَمية.

فالعلم الذي كان منذُ نشـوء الرَّأسـماليَّة يقوم بدور إنتاج أدوات الإنتاج، تحوَّل إلى خادم أمين في تراكم الثروة لدى أفراد، يمثِّلون السيطرة على السوق، في ظلِّ الثورة التكنو-إلكترونية، والرأسمال المصرفي الذي كان مندمجاً بالرأسـمال الصِّـناعيِّ الاحتكاري، مازال، ولكنْ، مع اسـتقلال القوَّة المهيمنة له عبر المصرف. والثقافة نفسها تحوَّلت إلى سلطة بيد الرأسمال المتعولم، وإشغال البشر بالتسلية.

إن أهمَّ مَلْمَحٍ من ملامح التَّغيُّر الطَّبقيِّ للعولمة هو اتِّسـاع الطبقة الهامشـية التي انحدرت إليها فئات من الطبقة العاملة التي وَجَدَت نفسـها بلا عمل، وفئات من الفئات الوسـطى. وهذا انعكس على الوضـع السِّياسيِّ الدَّاخليِّ في العالَم الذي أنتج العولمة أصلاً.

لقد كانت الفئات الهامشـية موجودة دائماً، وقد أشـار إليها هربرت ماركوز في حينه، كما أشـار سـارتر إلى اغتراب الإنسان في عالَم الرَّأسماليَّة، وكانت الحركات اليسـارية تستند إلى نقابات وأحزاب شُيوعيَّة واشتراكية في مواجهة اليمين الرَّأسماليِّ التَّقليديِّ.

في هذه المرحلة ذاتها أعلن الوعي الأوروبي موتَ الإنسـان. وكأن الروح - العقل - الحُرِّيَّة في حال اغتراب.

أجل، في ظلِّ العولمة، كما قلنا، لم يعد مَوْت الإنسان صـرخة فيلسـوف يعي العالَم، بل واقعة تودي بالإنسـان إلى حال اليأس. اليأس الذي عبَّر عنه المجتمعُ الرَّقْمِيُّ بكلِّ وضـوح حين أعلن مَوْت الحزب والنقابة ومَوْت اليسـار واليمين التَّقليديِّ. عقود من الزمن كان اليسـار واليمين التَّقليديُّ يتناوبان على سلطة الدولة، ولم تكن الفروق بينهما واضحة في حَلِّ معضلات المجتمع الأوروبي والأميركي. وحين وصلا في العولمة إلى مرحلة التشابه في العَجْز تفتَّقت المجتمعات عن الشعور العملي لموت الإنسان، الموت بوصفه يأساً. وعن اغتراب الروح بوصفها تشيُّؤاً، وعن مأزق الحُرِّيَّة، بوصفها تغوُّلاً للرأسمال، وهزيمة للحقيقة، بوصفها مأزق العقل.

لقد طَرَحَ فيروس كورونا علينا، على جميع نُخب العالَم التي مازالت تفكِّر بمركزية الإنسـان السـؤال مرَّة

أخرى ما هو العالَم الآن؟بل ما هذا العالَم الآن؟ السؤال الأوَّل معرفي؟ فيما السؤال الثاني هو سؤال تأفُّفي احتجاجي، يتطلَّب رسم صورة لكفاح الإنسان في مواجهة أسباب موته التي خلقتْها العولمة المتوحِّشة.

ما هو العالَم الآن؟

لم تعد الإجابات التي قيلت سـابقاً إجاباتٍ صـالحةً عن هذا السـؤال. فالعالَم اليوم ليس عالَم صـدام الحضارات، على غرار ما قاله هنتنجتون في كتاب يحمل هذا المصطلح.

وليس العالَم اليوم عالَميْن: عالَم ما بعد التاريخ كعالَم أوروبا وأميركا وما شـابهها من دول ديمقراطية، والعالَم الغارق في وَحْل التاريخ، الذي يعيش صـراعات إثنية وطبقية ودينية، كما عبَّر فوكوياما في كتابه "نهاية التاريخ".

ولا هو بعالَم الانتقال من الرَّأسماليَّة إلى الاشتراكية، كما توهَّمت اللِّينينيَّة وأحزابها.

ولا هو عالَم المركز والأطراف، كما عبَّر في حينه مُنظِّرور أمريكا اللَّاتينيَّة وسمير أمين.

إن عالَم اليوم هو عالَم سلطة أخطبوطية ذات عدَّة رؤوس، ورأسها الأساس هو الرأسمال الذي يتحكَّم بالبشرية، من وراء كوَّة البنك، والذي لم يعد له وطن محدَّد، ولا مجال حيوي واحد لممارسة سلطته.

فلأوَّل مرَّة في تاريخ البشـرية يجري تحالف على مسـتوى العالَم بين أثريائه، فأثرياء دولة تعاني حرباً مدمِّرة، وأثرياء دولة فقيرة نصـف سـكَّانها تحت خطِّ الفقر، وأثرياء دولة في ذروة السـيطرة المالية تجدهم كتلة واحدة. أجل، العالَم صار واحداً في العبودية المعاصرة.

لقد ظنَّ ماركس بأن العبودية مرحلة مبكِّرة من مراحل تطوُّر التاريخ البشـري، وبوَصْـفِها تشـكيلة اجتماعية ـ اقتصادية، تقوم على وجود طبقة أسياد مالكة لكائنات بشرية، بوَصْفهم أدوات إنتاج للخيرات المادِّيَّة، وتكون السلطة حينذاك سلطة الأسياد المالكة للعبيد وللأرض، فالدولة العبودية هي دولة الأسياد الأحرار، وقد زالت من التاريخ.

ولعمري بأن روح العبودية لم تغادر الحضـارة البشـرية أبداً، بل ليمكن القول بأن العبودية الآن في هذه الحضارة التي نعيشها أشدُّ قسوة من العبودية في عصر سبارتاكوس. وآية ذلك أن العبد المعاصر يشعر بعبوديته، ويُحبُّ حُرِّيَّته، لكنه غير قادر على التَّحرُّر منها. على النقيض من العبد الذي لا يشـعر بعبوديته، وليس لديه وعي بالحُرِّيَّة.

غير أن التاريخ، وقد تجاوز مرحلة العبودية كتشكيلة اجتماعية ـ اقتصـادية، أبقى بهذا الشكل أو ذاك على روح العبودية في أيِّ مجتمع طبقي، وهي عبودية الأجر. فالأجر من حيثُ هو ضـروري للحياة ليس سوى ثمن قوَّة العمل التي يأخذها للبقاء حيَّاً، تماماً كالعلم الذي كان يُبقِي الثور على قيد الحياة، كي يستمرَّ في جَرِّ المحراث.

لقد صارت العبودية نمطاً من الوعي بالذات، ليس أهمُّ معالمه الخضوعُ بدافع الحفاظ على الحياة. هذه الكائنات ـ العبيد ـ في علاقتها بسيِّد العمل، شخصاً كان أم دولة لا تسأل، لا تناقش، لا تُحاور، لا تقول لا، فمهمَّتها أن تكون صاغرة ومنفِّذة، من أعلى رتبة إلى أصغر درجة، وهكذا تنشأ في في علاقات العمل المتعولمة العبودية في أجلى مظاهرها، حيثُ تخلق هذه العبودية ذاتاً مشوَّهة.
فهي تشعر بفقدان حُرِّيَّتها، وتكره سيِّدها، وتحتقره، لكن عبوديتها تُوفِّر لها وجوداً مادِّيّاً زائفاً، فتعيش ازدواجية العبودية واحتقار ذاتها المعبِّرة عنه باحتقار سيِّدها، وهناك الذات التي لم تعد تشعر بعبوديتها وتعلن خضوعها المطلَق لسيِّدها، وليس لشعور الحُرِّيَّة في حياتها أيّ حضور.
لقد جاءت الكورونا لتذكِّر الناس بعبوديتهم، ها هو الحَظْر يقول لهم ليس لكم ما يكفي من الأَسِرَّة، وما يكفي من أجهزة التَّنفُّس، لا يكفي لآلات اكتشافِ مرضِكُم. فموتوا في بيوتكم. وإذا كنتُم في الرَّمَقِ الأخير قد نُنقذُكُم. أمَّا ثمن قوَّة عملِكُم، فلربَّما لن يكون بمقدورنا أن نُوفِّرها لكم.
إن الكورونا، وهي تُعيد للوعي نشاطَهُ في التَّفكُّر بالحاضر والمستقبل، بعبوديته المعيشة، أعادت، في الوقت نفسه، السؤال الوجودي حول الإنسان واغترابه، فظهر السؤال مرَّة أخرى: هل يمكن أن نترك عبودية عصر العولمة دون شبح يُخيفها، دون يسار يدافع عن مركزية الإنسان؟
أيّ يسار نريد؟:
وصار العالَم في ظلِّ العولمة وغياب قوَّة لجم يسارية للرَّأسماليَّة خراباً اجتماعياً وأخلاقياً وسياسياً وانحطاطاً أخلاقياً، وما مازال بعض اليساريِّيْن في العالَم يلبسون طاقية لينين ومعطف ستالين وتلامذتهم المخلصين ..
بداية لا بدَّ من القول، وبعد تأمُّل في التجربة المعيشة، وزوال الدول الاشتراكية من الوجود دفعة واحدة بعد البريسترويكا، والتَّأمُّل في التجربة الصِّينيَّة والكورية الشَّماليَّة وما شابهها، فإن على حركة اليسار العالَمي، إذا ما أُريدَ لها أن تنهضَ بمهامّ إنسانية دفاعاً عن الحقِّ الإنساني ومركزية الإنسان في مواجهة مركزية الثروة، مركزية الثروة التي تُشكِّل ماهية الرَّأسماليَّة بكلِّ أشكال تطوُّرها من الرَّأسماليَّة التَّنافسيَّة إلى الرَّأسماليَّة الاحتكارية إلى الإمبريالية إلى العولمة، أن تهيلَ التراب إلى الأبد على اللِّينينيَّة ولينين، والسّتالينيَّة وستالين، والماوية وماوتسي تونغ. لقد أعاق هؤلاء الثلاثة اللَّاهوتيِّيْن حركة التَّطوُّر الطَّبيعيِّ لليسار كحركة ضرورية تنشأ في قلب الرَّأسماليَّة، في ظلِّ الكفاح الدِّيمقراطيِّ المَدَني الحُرِّ. وإذا لم يتخلَّص اليسار من هذا الإرث الدِّكتاتوريِّ المقيت، فإنه لن يكون باستطاعته مواجهة التَّوحُّش الرَّأسماليِّ العولمي أبداً.
الرَّأسماليَّة المتعولمة تحرق الحياة، وتسعى لأن تحطِّم الإرادة الإنسانية، تُعلن موت الإنسان حقَّاً. ولهذا فإن مهمَّة اليسار الآن أن يُعلنَ مرَّة أخرى ولادة الإنسان، ويجب أن يعلن ولادة الإنسان، والعودة إلى مركزية الإنسان، لتنتصر على مركزية الثروة كسلطة مطلقة.
الرَّأسماليَّة المتعولمة ظاهرة عالَمية، ويجب أن يكون اليسار عالَمياً. يجب أن نعود إلى وحدة اليسار في العالَم. التظاهرات التي تقوم الآن ضدَّ الأكباش الثمانية، حيثُ تتداعى جماهير التَّمرُّد من كلِّ أنحاء العالَم شكلٌ من وحدة اليسار، شكلٌ من ولادة اليسار ..
نعم، انهزم اليسار العالَمي، ويجب أن نعود لقراءة تجربة اليسار ناقدين من موقع إعادة الحياة لليسار، لا من موقع قراءة فاتحة كفاح الإنسان لاستعادة حضوره في هذا العالَم.
اليسار وحده يعطي للصراع مع لصوص العالَم معنى حقيقياً، لأنه يحمل هموم البشر، هموم الفقراء، هموم المضطهدين، هموم المغتربين، الذين غرَّبتْهم همجية الرأسمال.

أيّ فجيعة إنسانية هذه أن نترك الرَّأسماليَّة من دون ردع، أيّ كوميديا بشرية هذه أن يكون العالَم بلا يسار.

لا تنفع العودة إلى الدولة التَّسلُّطيَّة في الاتّحاد السُّوفياتيِّ والدول الاشتراكية الأخرى، لا إلى سلطة أبوية متخلِّفة كالسلطة في كوريا الشَّماليَّة، ولا إلى التجربة الصِّينيَّة التي لا مكان للإنسان عند حزبها الوحيد الحاكم.

ما ينفع الآن يسارٌ بلا يُوتُوبيَا، بلا مادِّيَّة جدلية، يسارٌ يطرح أهداف البشر انطلاقاً من مركزية الإنسان، حيثُ الحقُّ والحُرِّيَّة والإنصاف، قوَّة تُخيف زعماء اقتصاد السوق، وبالتالي زعماء الحروب من أجل السوق. والنكوص إلى الرَّأسماليَّة في توحُّشها الأوَّليِّ. فالنُّكوصيُّون الحقيقيون هم الذين يُعيدون الرَّأسماليَّة إلى بداياتها المتوحِّشة جدَّاً، بعد أن تحوَّلت إلى متوحِّشة فقط، والدعوة إلى يسار جديد دعوة للدفاع عن مركزية الإنسان واستعادته بعد إعلان موته.

لم تكن ولادة الذات في التاريخ أمراً سهلاً، بل الولادة مخاض مليء بالدماء والعذاب والاندحار والانتصار،

الذات أصل وفصل معاً، مركز العالَم والعالم معاً. مسؤولة عن مصيرها ومصير الوجود - بوصفها ذاتاً، لا شيء يتحكَّم بمصيرها إلَّا ما صَدَرَ عنها، وصار غريباً عنها. ولهذا فتحرير الذات من اغترابها بما فاض عنها تحرير لما حال بينها وبين مركزيتها، فاستعادة مركزية الذات عبر استعادة وحدة الوجود الإنسانية، لا وحدة الوجود الإسبينوزية، ولا وحدة الوجود الصُّوفيَّة، ولا وحدة الوجود المادِّيَّة، ولا وحدة الوجود الرُّوحيَّة، وحدة الهَمِّ البشري هي وحدة الوجود الحقيقية.

عندما نتحدَّث عن وحدة الوجود الإنساني لا نشير أبداً إلى تشابه الوجود الإنساني، بل إلى وحدة الهَمِّ الذي يفرض ولاد اليسار العالَمي.

لاهوتيون يستيقظون

من الصعب أن تعانيَ البشرية من خطر كُلِّيٍّ دون تدخُّل الخطاب اللَّاهوتيِّ بخطاب ينطوي على فكرَتَيْن:

فكرة سببيَّة، تردُّ الكارثة إلى غضب إلهي، بسبب ابتعاد البشر عن الإله، وفكرة خلاصية ومفادها ضرورة عود البشر إلى الالتزام بالأوامر الإلهية اتِّقاء شرِّ الخطر.

إن فكرة الإله الذي يغضب ويعبِّر عن غضبه بكارثة تصيب البشرية فكرة قديمة جدَّاً، والحقُّ بأن يَهْوَه، إلهُ اليهود، أكثرُ الآلهة غضباً.

وما من متديِّن إلَّا وهو مقتنع بقصَّة نوح وغضب الله الذي دمَّر الحياة على الأرض، باستثناء مَنْ أنقذَهُم نوح في سفينته.

لكن الإله الآن لم يُرسِل منقِذاً كنوح، يُنقِذ السالكين سلوكاً يرضيه من فيروس الكورونا. فمصاب المغضوب عليهم من هذا الفيروس يمتدُّ لينالَ من غير المغضوب عليهم. ولهذا فإن سلوك القائلين بفكرة غضب الله لاتِّقاء شرِّ كورونا لا يختلف عن سلوك مخالفيهم في الممارسة العملية الوقائية. وليس هناك إجابة لدى القائلين بالغضب الإلهي عن سؤال: لماذا هذا التعميم للغضب الإلهي على جميع البشر دون استثناء، لا سيَّما أن تعميم الغضب الإلهي يتناقض مع فكرة العدل الإلهي؟!

الكورونا جائحة مَرَضِيَّة، معروف سببُها الفيروسي سواء كان طفرة لفيروس أو خطأ مخبرياً، ومعروفةٌ طُرُقُ الوقاية منها، والعلمُ يشتغل على إيجاد دواء لها.

أمَّا نتائجها السِّياسيَّة والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وأثرها على الوعي، فهذا شُغْل مباحث المعرفة الإنسانية. وقد تدخل الأيديولوجيا طَرَفاً في النقاش.

كلُّ تناولٍ لاهوتيٍّ - دينيٍّ يهوديٍّ ومسيحيٍّ وإسلاميٍّ وبوذيٍّ، إلخ لهذه الظاهرة الفيروسية، من حيثُ رَدُّها إلى غضب إلهي، أو مناعة المؤمنين من الإصابة بها، أو التَّوسُّل من التمائم والنصوص والأئمَّة والقدِّيسين وما شابه ذلك للشفاء منها أو الوقاية، فهذا نوع من الجهل المقدَّس والهُرَاء المعيب، ومَعْلَم من معالم الغباء التَّاريخيِّ.

وبعد:

إن هناك أربع حالات احتمالية ستشغل البشرية بعد غَمَّة الكورونا:

١-ظهور مَدٍّ يساري ضدَّ الرَّأسماليَّة، بعيداً عن التجربة الشُّيُوعيَّة السابقة. فلقد أظهرت الرَّأسماليَّة المتعولمة كلَّ بنيتها الأخلاقية المعادية للبشر، وإهمالها للحياة حتَّى بالمعنى البيولوجي للكلمة ..

٢- تأكيد الوعي المناهض لبقايا الدِّكتاتوريَّات الأيديولوجية كالصين وسوريا وكوريا وإيران، حيثُ الفساد والعنف وفقدان الإنسان لأيَّة قيمة فضلاً عن الطبيعة العدائية للحقيقة الواقعية، في ظلِّ هذه الدِّكتاتوريَّات.

٣- بدء القطيعة مع الخزعبلات الدِّينيَّة اليهودية والمسيحية والإسلامية التي أتحفَنَا بها أصحابُ العمائم واللَّفَّات والقُبَّعات والطَّوَاقي وما شابه ذلك من أزياء، وتحرير الله من أخلاق الغضب والانتقام والثأر، والعودة إلى الدِّيْن الشَّعبيِّ ذي الماهيَّة الأخلاقية ..

٤- تأكيد سلطة العلم باتِّحاده مع الطبيعة الأخلاقية الإنسانوية له. ففصل العلم عن ارتباطه بسعادة الإنسان من أكبر الجرائم ضدَّ الإنسانية.

نحو أممية فكرية أخلاقية

أبو بكر العيادي

يقف الإنسانُ اليومَ في منعطف خطير من وجوده، ليس بسبب فيروس الكورونا وحده، وإنما، أيضاً، بسبب نَهْم النِّيُوليبراليَّة التي استباحت كلَّ شيء. فالأنموذج اللِّيبراليُّ كان من نتائجه تفجُّرُ التَّحرُّكات، وتسارُع الوتائر، والتنافس المحموم على الموارد، إضافة إلى شتَّى العوامل التي أدَّت إلى تدمير المنظومات الصِّحِّيَّة والتَّربويَّة والاجتماعية، وإصابة الكائنات الحَيَّة والنظام البيئي. كلُّ ذلك كان يُعَدُّ محرِّكَ تنمية وتقدُّمٍ، وطريقةً للدلالة على أن عالَمنا أفضل من عالَم الأمس، حسب مُنظِّري اللِّيبراليَّة، أولئك الذين قال عنهم بورديو إنهم يخلطون بين أشياء المنطق ومنطق الأشياء، لا يملكون في عمومهم تجربة عملية، وكلُّ زادِهم تكوينٌ ثقافيٌّ فكريٌّ، نَهَلُوه من الكُتُب، وتنظيرٌ مجرَّدٌ بعيد عن العالَم الاقتصادي والاجتماعي كما يتجلَّى على أرض الواقع. فالنَّظريَّة النِّيُوليبراليَّة تُعارِض تماماً ظروف الحياة والحاجات الأساسية للأحياء، ليس في مجال الصِّحَّة فقط، بل في مجالات البحث والتعليم أيضاً، وبإرساء العولمة التي أرادت جعل العالَم قرية كونية، توسَّعت النِّيُوليبراليَّة، وحوَّلت البشر إلى مجموعات استهلاكية، وغزت العقول بفضل وسائلها الدِّعائيَّة، واستيلائها على أهمِّ وسائل الإعلام في العالَم، فضلاً عن رباعي غافا (غوغل، آبل، فيسبوك، أمازون) ما جَعَلَهَا حاضرة في كلِّ مكان، فهي لا توجد في الساحات المالية والمؤسَّسات فقط، بل توجد، أيضاً، في كلِّ واحد فينا، في أنماط عيشنا.

أمَّا الكورونا، هذا الكائن الحَيُّ اللَّامَرئيُّ الذي شلَّ الحضارة الإنسانية الأكثر تطوُّراً وتجهيزاً من الناحية التِّقْنِيَّة، فهو نتيجة طبيعية للجشع النِّيُوليبراليِّ الذي دَفَعَ أصحابَهُ إلى تدمير البيئة في شتَّى أبعادها، من جوف الأرض وسطحها إلى بحارها وأجوائها، متناسين أن ثمَّة كائنات حَيَّة، نتقاسم معها هذه الأرض، وأننا كلَّما دمَّرْنا الغابات، دفعْنا الحيوانات التي تسكنها إلى البحث عن مأوى، ما يجعل

الفيروسات التي تحملها تتنقل من حيوان إلى آخر حتَّى تصيب الإنسان. وغاب عنَّا أن الإنسان جزء من العالَم الطَّبيعيِّ، وأن وجودنا مَرهونٌ بوجوده، فإن دمَّرْنَاه، فتحْنا الباب أمام كلِّ الكوارث الممكنة. والعلماء يؤكِّدون صباح مساء أن كلَّ قَطْعٍ للغابات، كما هو الشأن اليوم في أمازونيا وحوض الكونغو رئَتَي العالَم، يحرِّر كمَّاً هائلاً من الفيروسات، لا تلبث أن ترتدَّ على الإنسان في شكل أوبئة قاتلة.

لقد دأب الإنسان على الإخلال بالتوازنات الطَّبيعيَّة، وهو لا يدري أن قوَّة التدمير تلك، شأنها شأن قوَّة التوليد، مُوزَّعة بالتساوي بين سائر الكائنات، فكلُّ بكتيريا أو فيروس أو حشرة، يمكن أن تُحدِثَ آثاراً واسعة في العالَم. بالفيروس ندرك أن تلك القوَّة الهائلة ليست رهينةَ ميزةٍ جسدية أو طاقة ذهنية، فحيثما وُجِدَت حياة، أيَّاً ما يكن موقعها في شجرة النشوء، نجد أنفسنا، كما في حالة الفيروس هذه، إزاء قوَّة قادرة على تغيير وجه الأرض. وإذا كنَّا نريد البقاء، وتسجيل وجودنا على هذه الأرض بشكل دائم، ليس في قلب تاريخ اجتماعيٍّ فحسب، وإنما في صميم تاريخ تكنولوجي وجيولوجي أيضاً، وَجَبَ علينا إعادة النَّظَر في موقعنا في سُلَّم الكائنات الحَيَّة، لنصنعَ معاً سُبُلَ المستقبل في تناغم مع الكائنات الأخرى.

قد يضع هذا الوباء حدَّاً للسياسة الرَّأسماليَّة الشرسة التي دمَّرت منذُ أعوام أُسُس الدولة الراعية أو دولة الرَّفاهيَة، أي الصِّحَّة والتربية والعدالة والبحث والتقاعد، وما زالت تُدمِّر البيئة. ورغم ارتفاع عدد الضحايا منذُ ظهور الفيروس، فإنه لا يساوي شيئاً أمام عدد ضحايا الكوارث القادمة التي سيتسبَّب فيها الاحتباس الحراري إذا تواصل تدمير البيئة، فالخبراء يتوقَّعون ما بين مليار ومليارَيْن في نهاية القرن، وربَّما نصف البشرية. بعضهم يرى أن ليس أمامنا لتخفيف عنف الأزمات القادمة سوى إعادة بناء الدولة الراعية، وخَلْق تضامن عالَمي متين وفعَّال، وإلَّا فسنكون مقبلين على عصر، ينكفِئ فيه كلُّ طرف على نفسه بحثاً عن سُبُل البقاء، والتَّسلُّح لمقاومة الطامعين في أبسط الممتلكات حين تصبح شحيحة نادرة، ما قد يؤدِّي إلى حرب الجميع على الجميع. فتفاقم الجائحة معناه إفلاس مؤسَّسات وتزايد البطالة، وربَّما انقطاع سلاسل التموين الغذائي، وفقدان الموادِّ الغذائية، إضافة إلى أزمة مالية عالَمية بدأت تتَّضح ملامحها. قد نكون أمام سيناريوهات كساد سوداء، تعقبها أزمات اجتماعية وسياسية، وانتفاضات وفوضى، وقد تُصاب أغلب المنظومات الصِّحِّيَّة بالعَجْز عن أداء دورها بالكامل.

بعضهم يعتقدون أن الخطاب النِّيُوليبراليَّ سيفقد بعد الجائحة صداهُ وتأثيرَهُ، بينما يقترح غيرهم ضرورة إعادة تأميم بعض الصناعات الأساسية للاستقلالية الذَّاتيَّة، وإعادة توطينها بعد تهجيرها في أقطار ذات عمالة

رخيصة. فالغضب ما انفكَّ يتضخَّم ويحتدُّ منذُ سنوات ضدَّ النِّيُوليبراليَّة في صفوف اليمين واليسار على حَدٍّ سواء، والدعوة إلى حضور أكبر للدولة، دولة مسؤولة ومهتمَّة بالتربية والصِّحَّة، لا تنقطع ولا تفتر.

وكما هو الشأن في كلِّ أزمة كبرى، يسارع بعضهم إلى التصريح بأن لا شيء سيكون كما كان من قبل، وبأن العالَم سيدخل مرحلة ما بعد الأزمة، ثمَّ يتراجعون، بعد الانفراج، في أقوالهم وأفعالهم، ويستمرُّ الوضع كما كان، لأن التغيير الحقَّ لا يكون على مستوى النِّيَّة، وإنما على مستوى أيديولوجيات التسيير وتصوُّرات الإنتاج وملاءمتها للبيئة. ولنا في ما حَدَثَ عند اندلاع الأزمة المالية العالَمية ٢٠٠٧-٢٠٠٨ كَسَبَبٍ مباشر للتَّغوُّل الاقتصادي والعولمة المسعورة خيرُ مثال، فقد ساد الظَّنُّ أن قادةَ العالَم سيبحثون عن سُبُل أخرى لإعادة بناء الاقتصاد العالَمي على قواعد جديدة، تراعي حقَّ الإنسان في حياة كريمة، من خلال كَبْح جموح اللِّيبراليَّة، وتوزيع الثروات توزيعاً، يحفظ للشعوب حقوقها، ولكن الحكَّام سرعان ما هبُّوا لنجدة البنوك بأموال دافعي الضرائب، في تناقض صارخ مع تنظيرات النِّيُوليبراليَّة، التي ترفض أيَّ تدخُّل للدولة في الحياة الاقتصادية، وكلُّنا نتذكَّر قولة الرئيس الأسبق رونالد ريغن: "الدولة ليست حلَّاً لمشكلنا، الدولة هي المشكل."

بيد أن الحكَّام هذه المرَّة أظهروا قدرة غير مسبوقة على فرض قراراتهم ضدَّ منطق الأسواق المالية والمجموعات الكبرى ومصالح المؤسَّسات، وحتَّى ضدَّ حقوق المواطنين. وهي مفارقة إذا ما قُورِنَتْ بما كان سائداً حتَّى تلك اللحظة الفارقة، ونعني به عَجْز الدول أمام الأزمة المناخية، وعَجْزها على كَبْح جماح النِّيُوليبراليَّة والقضاء على التفاوت في توزيع الثروات، أي أن الفرضية التي تقول إن السياسة لا تستطيع شيئاً أمام منطق الفصل بين التمايز الوظيفي اتَّضح أنها خاطئة.
ولئن احتجَّ بعض المفكِّرين أمثال جورجو أغامبين وتريستان غارسيا ومارسيل غوشي وأندري كونت سبونفيل على الحَجْر، ورأوا في فَرْضه مصادرةً للحُرِّيَّات، وتمهيداً لإقامة اشتراكية استبدادية، وعبَّروا عن خشيتهم من أن يصبح الطارئ معيارياً، والمؤقَّت نهائياً، خصوصاً إذا لجأت الحكومات إلى أجهزة مراقبة فردية دائمة على غرار الصين الشَّعبيَّة، بدعوى المحافظة على صحَّة المواطنين، فإن الحكومات أظهرت أنها تملك القدرة على الفعل، إذا رامت اتِّباع طُرُق غير الطُّرُق المعتادة في رسم سياسات اقتصادية وتربوية وصحِّيَّة، تُصالِح الإنسان مع بيئته، وتضمن بقاءه في هذا الكون.
لنفرض أن عالَم الغد لن يكون صورة سالبة لعالَم اليوم، وأنه قد يقع التفكير في إقرار قنوات توزيع محلِّيَّة، وإعادة تثبيت المصانع الأساسية وطنياً، وإيجاد علاقة متوازنة مع الطبيعة، وتمكين الشعوب من سيادة حقيقية، ووضع سياسة وقاية وتأمين صحِّيٍّ، بتعزيز الإنتاج المحلِّيِّ، وتخزين الموادِّ الضَّروريَّة للصِّحَّة العامَّة، وتوفير مراكز تزويد آمنة، بعيداً عن مضاربات المحتكرين ... فإن ذلك يتطلَّب دولة قادرة على التخطيط المُحكَم بدل الاتِّكال على خبراء، دولة تضع في الحسبان تواشُج الغايات الإنسانية والإيكولوجية والاجتماعية. بيد أن ذلك لا ينجم إلَّا متى أُعيد النَّظَر في موازين القوى بين المهيمِنين والمهيمَن عليهم. فالسلطة بأيدي الساسة، الذين ربَّما كان انتخابهم بنسبة طفيفة، ولا يمثِّلون الشعب كلَّه، بل قد يتنكَّرون لوعودهم الانتخابية، فلا يُلبُّون مطالبَ الشعوب الأساسيةَ، كحماية البيئة والحَدِّ من التفاوت الاجتماعي، وعدم الخضوع لضغوط الدوائر المالية. والذين رفعوا أفكاراً تقدُّميَّة أو مدافعة عن البيئة، وتكتَّلوا في تنظيمات سياسية، غالباً ما تمَّ إغراؤهم بمناصب في السلطة، ثمَّ تهميشهم وإزاحتهم، كما حَصَلَ للخُضر في فرنسا مثلاً. أمَّا الذين اختاروا أن يكونوا حراباً حُرَّة free lance ضدَّ مختلف رموز الهيمنة والاستغلال أمثال الأمريكي نعوم تشومسكي والسّويسريّ جان زيغلر والفرنسي روني دومون، فإن أصواتهم لم تلامس سوى قوى اليسار، ومؤلَّفاتهم، على أهمِّيَّتها، لم تُحدِثِ التغيير المنشود.
وبناءً عليه، واستئناساً بما قاله جورج كليمنصو في نهاية القرن التاسع عشر (١٨٨٧): "الحرب مسألة خطيرة، كي نعهد بها للعساكر"، نقول إن مستقبل البشرية أمر خطير، كي نعهد به للسِّياسيِّيْن وحدهم. ومن هنا جاءت هذه الدعوة إلى خَلْق جبهة فكرية عالَمية، تُعوِّض إخفاقَ الأحزاب في استقطاب الفئات المجتمعية الفاعلة، جبهة كُوسمُوبُوليتيَّة، تترفَّع عن الهويَّات والمعتقدات والأيديولوجيات، لتُعانقَ قضايا الإنسان، حيثُما كان، لا تكتفي بالتَّصدِّي للسياسات النِّيُوليبراليَّة المغامرة بمصيره ومستقبله ومستقبل الكون كلِّه، بل تستهدي بالأنوار، لنشر القِيَم الإنسانية، فلا خير في فكْر لا يتعدَّى أسوار الجامعة والجَدَل الأكاديمي، ولا يُبسِّط مصطلحاتِهِ ومفاهيمَهُ لعامَّة الناس على نحو، يضيء لهم الطريق.
لقد كان المفكِّر في عصر الأنوار مثقَّفاً، له وظيفة اجتماعية، يُعمِلُ عقلَهُ في شتَّى المجالات، كي ينيرَ الضمائر، ويحضَّ على جملة من القِيَم، أهمُّها العقل والحُرِّيَّة والتَّقدُّم والسعادة والتسامح، ويجهد في الكشف عن الأخطاء، ويُعلي صوته لفَضْح الممارسات المناهضة لإنسانية الإنسان. ولكنْ، رغم المعارك التي خاضها بعضهم، لم يكونوا في موقف قوَّة لتغيير واقع لا يرتضونه، فقد أدان عدد منهم الاسترقاق والاستعمار بشكل مباشر أو موارب، ولم يستطيعوا مَنْعهما، لأن الحلَّ والرَّبْطَ ليسا بأيديهم، بل بأيدي السلطة السِّياسيَّة، ولأنهم، وهذا هو الأهمُّ، لم يُؤلِّفوا كتلة موحَّدة، كان يمكن أن تُشكِّل قوَّة ضغط. صحيح

أن أفكارهم لم تؤتِ أُكُلَها في عصرهم، لأسباب كثيرة، منها تواضع وسائل النشر والتوزيع، وقلَّة اهتمام الناس بالمطبوعات، وانحسار القُرَّاء في دوائر ضيِّقة فضلاً عن قبضة السلطة، ولكنها انتشرت من بعدهم عبر العالَم، واتُّخذت أُسُساً لدساتير وقوانين، وغيَّرت نظرة الإنسان إلى الوجود والميتافيزيقا وعلاقته بالطبيعة.

أمَّا اليوم، فنحن نعيش في عصر الإنترنت، بفضل هذه الثورة الأنثروبولوجية الثالثة التي ربطت أطراف الكون بعضها ببعض، ويسَّرت التواصل الآني نصَّاً وصوتاً وصورة، ما يجعل المهتمِّين بقضايا الإنسان مطَّلعين على ما يجري في العالَم في التَّوِّ واللحظة. وبالتالي فإن الفرصة سانحة لبَعْث ما يشبه كتلة أممية فكرية، في موقع رَسْمِيٍّ على الشبكة، يلتقي فيها كلُّ مَنْ يأنس في نفسه القدرة على ابتكار أفكار، تستهدي بالثوابت الكبرى لفكر الأنوار، وخَلْق تواصل فكري عابر للقارَّات، لتكون مرجعية أخلاقية، تُنبِّه صانعي القرار في العالَم، وتفضح زَيغ سياساتهم، وتُلهِم، في الوقت نفسه، القوى المؤثِّرة في مجتمعاتها، لبعث حلقات دراسية ومنتديات، تساهم في توعية الفرد بما ينبغي القيام به للحفاظ على سلامته وسلامة شعوب الأرض كافَّة، لأن الفيروسات ما عادت محلِّيَّة، بل باتت، هي أيضاً، مُعَوْلَمَة، تنتأ في مكان ما، ولا تلبث أن تخترق الحدود، لتبلغ أقاصي الدنيا. فلا مجال حينئذ، بعد ما تبيَّن من عَجْز الدول عن مواجهة فيروس طفيف، أن تظلَّ الأوضاع على حالها، وأن تُترَكَ الرَّأسماليَّة مُمسكِةً في الخفاء بمقاليد السياسة، تُوجِّهُها ضدَّ إرادة الشعوب، ومُمسِكةً في العَلَن بأعنَّة الكون، تسير به إلى فناء محتوم.

قد تبدو الفكرة طوباوية، ولكنها ممكنة، إذا تضافرت جهود كلِّ مَنْ يؤمن بأن كوكبنا واحد، ومصيرنا مشترك، وأن تَرْك النِّيُوليبراليَّة ترتع كما تشاء هو نوع من الانتحار الجماعي. فالكتلة الموعودة مَدْعُوَّة إلى الإجابة عن الأسئلة الحارقة التي تشغل إنسان هذا العصر حيثُما كان، والنَّظَر في الوسائل الكفيلة بالضغط على الحكومات، واقتراح الحلول الممكنة لتجاوز المشكلات الراهنة، وتوعية الناس بأن الأرض لم توجد للإنسان وحده، بل لكائنات أخرى، لا تقلُّ عنه أهمِّيَّة في سُلَّم الأحياء، وأن الإساءة إلى الطبيعة سيعود عليه بوبال، ليس أقلّه كوفيد ١٩.

لطالما تعالت أصوات تندِّد بتلويث الشركات العالَمية العملاقة للبيئة، عبر استنزاف الطاقات الجوفية والغابية والموارد البَحْرِيَّة، ونشر المبيدات الحشرية، وفرض البذور المعدَّلة جينيَّاً، ورَدْم النفايات النَّوويَّة، ولكنها كانت، في الغالب، أصواتاً مفردة لناشطين متفرِّقين، لم تجد آذاناً صاغية، لأن الحجَّة التي لا ترفدها القوَّة لا يسمعها القوي المتنفِّذ، وإنْ سَمِعَ، تجاهل واستهان. لذلك ينبغي أن تتشكَّل هذه الكتلة من شتَّى النُّخب في العالَم، ممَّنْ يضعون الوجود الإنساني فوق كلِّ اعتبار، أيَّاً ما تكن أعمارهم واختصاصاتهم ومشاربهم ومرجعياتهم، لتملك أسباب القوَّة التي تيسِّر لها لاحقاً تسجيل حضور فاعل، حتَّى تغدو بحقٍّ مرجعية أخلاقية وازنة قادرة على التأثير في مجريات الأحداث عبر العالَم.

لا أحد يستطيع أن يتنبَّأ بما سيكون عليه العالَم بعد زوال الوباء، ولكن الثابت أن المستقبل لن يحدِّده العلم، بل الفعل، كما يُتداوَلُ في الساحة الفرنسية اليوم، وذلك من خلال إصلاح عميق للمؤسَّسات وأساليب العمل الاقتصادي، وبناء نظام اجتماعي، لا يكون قانونُهُ الأوحدُ البحثَ عن المصلحة الأنانية والشَّغَفَ الذَّاتيَّ بالربح، بل يقوم على مجموعات، تُوجِّه عنايتها إلى التفكير العقلاني في غايات، يتمُّ إعدادها والمصادقة عليها جماعياً. تلك المجموعات هي التي ينبغي التركيز عليها حتَّى تكون همزة وَصْل بين الكتلة المرتَقَبَة وصانعي القرار، لتوجيه خياراتهم الاقتصادية والثَّقافيَّة والاجتماعية والبيئة الوجهةَ التي نريد. فالعالَم ما عاد يحتمل انهياره المطَّرد منذُ سنين، ولا بدَّ من تغيير زوايا النَّظَر إلى مشاكله العالقة.

يقول أينشتاين: "العالَم الذي خلقناه هو نتيجة مستوى تفكيرنا، ولكن المشاكل التي يُولِّدها لا يمكن أن تُحلَّ في هذا المستوى نفسه".

إعادة تشكيل العالَم

معالمُ من عصر ما بعد الدِّيستُوبيَا الكورونية

لطفية الدليمي

"عالَم ما بعد الجائحة الكورونية لن يكون كالعالَم الذي قبله". أظنُّ أنّ هذه العبارة هي الأكثر شُيُوعاً - من عبارات أخرى سواها - ردَّدتْها كتابات الفلاسفة والمفكِّرين ذوي المراتب الثَّقافيَّة الرفيعة في الوقت ذاته الذي صارت فيه إيماناً راسخاً لدى سكَّان كوكبنا الأرضي. ليس هذا بالأمر اليسير؛ فهو يشي بأنّ الناس راحت تستشعرُ (مستعينة بأدوات التَّفكُّر العميق المدعوم بالوسائل العلمية التَّحليليَّة أو بمحض القناعة التي تتَّخذ شكل الإيمان الميتافيزيقي) بأن البشرية بأسرها تخوض في لجَّة مخاضة عسيرة باهظة التكلفة، سيترتَّب عليها بالضرورة تغيُّر راديكالي في أنماط الحياة البشرية، وصورة العلاقات الحاكمة بين البشر والبلدان والجغرافيات، فضلاً عن تضاريس الخرائط الفكرية على الأصعدة كافَّة.

ليست أيَّاماً مريحة أو مرغوباً فيها هذه التي نعيشها اليوم؛ لكنَّ هذا هو واقع الحال وما يستلزمه من قوانين إجرائية صارمة للتعامل مع حالة، تنطوي على الكثير من الطَّارئيَّة والتهديد للبشر الذين يتمايزون فيما بينهم تمايزاً عظيماً، بشأن ترسيماتهم السَّايكولوجيَّة وكيفية تعاطيهم مع الأزمات: البعضُ يذهب مذهباً دِيستُوبيَّاً حالكاً، يتناغم مع رؤيته السَّوداويَّة للأمور؛ فيُصوِّرُ واقعَ الحال، وكأننا بِتْنا على أعتاب مرحلة قيامية apocalyptic مُنذِرة بفناء البشرية، وثمَّة آخرون (هم ذوو معرفة علمية مقبولة في الأعمِّ الغالب) يميلون لعقلنة الأمر، وتوصيف الحالة وَفْقَاً لمبادئ علمية متَّفق عليها في علم الوبائيات أو الجائحات المَرَضِيَّة، وإذا ماكان لنا أن نستخلص خلاصة مفيدة، فسنقول إن العلم والتِّقْنِيَّات المرتبطة به هي الملاذ العملياتي الذي يبدو متفرِّداً في قدرته على تدعيم ركائز الأمل والتفاؤل والعمل الإيجابي القادر على تجاوز هذه المحنة (الكورونية) بأقلِّ الخسائر الممكنة.

صحيحٌ أنّ هذه الجائحة الوبائية الكورونية تبدو شديدة القسوة وغير مسبوقة؛ لكنّ العقل العلمي المدرَّب لا ينظرُ إليها من ثقب الدِّيستُوبيَا التي شاعت في أيَّامنا هذه، وغادرت ثنايا كُتُب الخيال العلمي، لتصبح أطروحات يقينية مغلَّفة بأغلفة آيديولوجية أو دينية، تبشِّرُ باقتراب نهاية العالَم وفنائه. العقلُ العلمي لا يرتكنُ إلى هذه الأطروحات القيامية التي تتناغمُ مع البصمة السَّايكولوجيَّة لكثرة من البشر الذين يحيون على هذه الأرض؛ إذ يُبشِّرُ هؤلاء بالفناء المفعَم بالأجواء الدِّيستُوبيَّة المظلمة للبشرية، وقد يُغلِّفون رؤاهم التبشيرية بمنكِّهات مفاهيمية، تمنح هذه الرؤى شيئاً من مقبولية جَمْعِيَّة؛ فنراهم يكتبون عن موت الرَّأسماليَّة وموت العولمة وموت نَظَريَّة الدولة وسواها من الميتات التي لطالما طرقت عقولنا منذُ عقود عدَّة. العقل العلمي في الجانب الآخر هو عقل مضادٌّ للدِّيستُوبيَا بالضرورة، وقد لا يكون مبشِّراً بيُوتُوبيَا على شاكلة اليُوتُوبيَا التي شاعت في أعقاب الثَّورَتَيْن الصِّناعيَّتَيْن الأولى والثانية، وبقيت تأثيراتهما فاعلة حتَّى نهاية الحرب العالَمية الأولى؛ لكنّ العقل العلمي هو عقل محكومُ - بالضرورة - بالأمل: يجتهدُ ويتقصَّى ويُسائِلُ، ولايفرِّطُ بطاقته الجبَّارة في الدهاليز الدِّيستُوبيَّة المظلمة.

ذكَّرتْني هذه الجائحة الكورونية بكتاب قرأتُهُ قبل ما يقاربُ العشر سنوات، كَتَبَهُ البروفسور فريمان دايسون Freeman Dyson، الذي توفِّيَ يوم ٢٨ شباط/ فبراير من هذا العام. البروفسور دايسون شخصية رائعة على المستويَيْن العلمي والإنساني، وهو وإن كان فيزيائياً لامعاً، ساهم في العديد من

المشـــروعات البحثية الرائدة، لكنه عبقري ذو اهتمامات متعدِّدة، دفعت مُجايليه، لكي يصـــفوه بصـــفة Polymath التي تعني قدرة فائقة في التَّعمُّق المعرفيِّ التَّفصـيليِّ (لا المعرفة السِّـياحيَّة العامَّة) بطائفة واســـعة من الحقول المعرفية العلمية وغير العلمية. الكتاب الذي عنيتُهُ (وهو موضـــع الاهتمام في موضـوعنا هذا) هو الذي جاء بعنوان (الشـمس والجينوم والإنترنت The Sun، The Genome، and the Internet)، وبرغم أن الكتاب نشرتْهُ جامعة أكسفورد في طبعته الأولى عام ١٩٩٩، لكنه يبقى كتاباً حيوياً عظيم التأثير حتَّى يومنا هذا. يرى البروفســور دايســون أنّ التِّقْنِيَّات الثلاث الأســرع تطوُّراً في عالَمنا المعاصر هي: تِقْنِيَّات الطاقة الشَّمسيَّة، الهندسة الوراثية، والشبكة التَّواصليَّة العالَمية (الإنترنت)، وأنّ هذه التِّقْنِيَّات الثلاث لو تعاضـدت مجتمعة، فسـتكون لها مفاعيل عظيمة، وبخاصَّـة في موضـوعة تحقيق تنمية شـاملة في كلِّ أنحاء كوكبنا الأرضـي فضـلاً عن تجاوُز حالات الفقر المدقِع التي باتت معيبة، بل وتمثِّل مَثْلَبَة إنســانية. يمضـــي البروفســور دايســون في كتابه الرائع هذا (الذي ينتمي لصـــنف اليُوتُوبيَا المســـتقبلية ممكنة التطبيق) في التبشـــير بقدرة الجنس البشـــري على اجتياز عقبات خطيرة، ويرى أنّ الطاقة الشـمسـية متى ما استُغِلَّت بطريقة عملية معقولة التكلفة، فستجعل كلَّ البشـر- وبخاصَّة هؤلاء القابعين

في مناطق نائية من العالَم - قادرين على الولوج إلى منجم الثروة المعلوماتية التي تُتيحها الشـبكة العالَمية (الإنترنت)، وبهذا يمكن وضـــع حَدٍّ نهائيٍّ لحالة العَزْل الثَّقافيِّ للبلدان الفقيرة، وبطريقة مماثلة، يمكن للتَّطوُّرات الهائلة في الهندســـة الوراثية أن تخلق لنا محاصـــيل غذائية أكثر غِنى في محتواها الغذائي؛ الأمر الذي يســاعد في إعادة بَثِّ الحيوية المتضــائلة في الحياة الرِّيفيَّة التَّقليديَّة التي جرى التَّعدِّي عليها، وتهميشها لصالح دعم أخلاقيات السوق العالَمية.

يمكن أن تكون الدِّيستُوبيَا التي تُصـوِّرها عقول البعض إيذاناً بالنهاية القيامية للعالَم ميدان اختبار ممكن ومجَّانيٍّ، يُولِّد طاقة الدَّفْع المطلوبة لتحفيز تِقْنِيَّاتٍ، ما كان ممكناً اختبارها في ظروف غير دِيســـتُوبيَّة، وإذا ما شـئْنا التخصـيص، فيمكن القول إن هذه الجائحة الكورونية سـتعملُ على توفير دَعْم مؤسَّـسـاتي (على الصعيدَيْن الحكومي والخاصّ) لتطوير التِّقْنِيَّات التي بشَّر بها البروفسور دايسون في كتابه أعلاه، وأظنُّ أنّ تدعيم التِّقْنِيَّات الخاصَّــة بتعزيز الفردانية وإدامة الحياة البيولوجية للكائن الحَيِّ سـتلقى أسـبقية خاصَّـــة، ومن أجل هذا ســـنرى انقلاباً محتوماً في أنماط التعاون الدّوليّ والآيديولوجيا الحاكمة لعالَمنا (آيديولوجيا العولمة والأسـواق المفتوحة) في مقابل صـعود آيديولوجيا الفردانية التي قد تبلغ مسـتويات غير متصـوَّرة على صـعيد تخليق الغذاء لكلِّ فرد وطريقة تواصـله مع العالَم المعلوماتي، بالإضـافة إلى إعادة النَّظَر الجذرية بفلســفة التعليم الحالية، وربَّما ســيكون من أهمِّ الأســباب الداعمة لتطوير شــبكة التواصــل العالَمية (الإنترنت)، وجعلها مجَّانيَّة، تعمل على ســعات كبيرة، هو هذا الانقلاب الجذري في عملية التعليم الحالية التي باتت مُكلِفة، وغير ذات جدوى في الكثير من مخرجاتها التي لم تعد تُلائِم عصـر الثورة التِّقْنِيَّة الرابعة. هكذا يعمل العقل العلمي إذنْ: ليس من تبشـير بموت أو ميتات، وليس من ابتهاج لنهاية قيامية للأرض، وليس من مشـــهديات دِيســـتُوبِيَّة، يطرب لها بعض المســـكونين برغبات تدميرية؛ بل ثمَّة، في المقابل، معرفة وبحث وتمويل لتحديد الخســـائر (حتَّى لو بلغت تريليونات الدولارات)، ومن ثمَّ العمل على تجاوُزها بالمنهجيات العلمية والتِّقْنِيَّة المطوَّرة.

هل أنّ ما نعيشـه اليوم ينطوي على شـيء من الخيال العلمي؟ أقول: نعم، هذه الحالة التي نعيشـها اليوم هي مجرَّد بروفة أوَّليَّة (تجريبية) لما سـيحصـل في عالَم الأنسـنة الانتقالية Transhumanism وما بعد الإنســـانية Posthumanism لاحقاً، وحيث ســـيكون بمســـتطاع الفرد المكتفي بذاته Self-contained individual إدامة حياته عبر شبكة حاسوبية خارقة القدرات التِّقْنِيَّة. الفرد نفسه سيصبح

آلية معالجة معلوماتية عُظمى من خلال رقاقات مصغَّرة، تُستزرعُ في دماغه بطريقة روتينية شبيهة بالتطعيمات المضادَّة للامراض السارية في يومنا هذا، ومَنْ لايفعل هذا، لن يكون له مكان في العالَم القادم. ينبغي تفعيل خيالنا البشري، وتصوُّر ما سيحصل في تلك الحقب الزَّمنيَّة القادمة لا محالة: نمطٌ من الفردانية الخالصة التي ستأتي بمنظومة قِيَمِيَّة وسايكولوجية وأخلاقياتية غير معهودة.

الكائنات الدِّيستُوبيَّة مخلوقات شديدة الخطورة تجاه ذواتها والآخرين معاً، وقد لا تتقصَّد هذه المخلوقات الإيذاء بقدر ما تعكسُ نمطاً من السلوك السايكولوجي المحكوم بنوازع دِيستُوبيَّة؛ لكنْ، في كلِّ الأحوال ربَّما (وأقول ربَّما) قد يساعد انتصار العلم والتِّقْنِيَّة في تحقيق الغلبة على كلِّ العوامل الساعية لتدمير النوع البشري في كَسْر الرؤية الدِّيستُوبيَّة لدى هؤلاء، أو التخفيف من غلوائها في أقلِّ تقدير. قد يجادل بعض عُتاة الدِّيستُوبيِّيْن: إذا كانت الدِّيستُوبيَا غير مرغوبة؛ فلماذا، إذنْ، وُجِد الأدب الدِّيستُوبيُّ الذي حقَّقت بعض سَرْدِيَّاته (ولم تزل تُحقِّق) قراءات كبرى منذُ إدغار آلان بو وإج. جي. ويلز حتَّى يومنا هذا؟ الجواب ببساطة: ثمَّة فَرْق عظيم بين أن تكتب عن حالة دِيستُوبيَّة (راهنة أو مستقبلية)، بقصد توصيفها وتجاوُزها، وأنتَ تشيعُ الأمل بالمقدرة الرائعة للعقل البشري على تجاوُز كلِّ النتوءات الحادَّة في سلسلته التَّطوُّريَّة، وبين أن تشيع حالة مظلمة، ليست سوى انعكاس عقلي لسايكولوجيا تدميرية، تستطيب فناء البشرية، وتتلذَّذُ برؤية البشر وهم يلعقون جراحاتهم، ولا يمتلكون القدرة على دَفْن موتاهم.

أوردتُ أعلاه توصيفاً عاماً لعالَمنا وهو يخوضُ مخاضة الجائحة الكورونية؛ لكنْ، ماذا عن عصر ما بعد الجائحة؟ سأترسَّمُ في الحيثيات التالية بعضاً من المشهديات أو القراءات الفكرية لطائفة من الموضوعات التي أرى ضرورة إلقاء الضوء عليها، لأهمِّيَّتها الحاسمة في توصيف عصر ما بعد الجائحة:

١- نهاية عصر الأَنْثْرُوبُوسِيْن والشروع ببواكير عصر النُّوفَاسِيْن

ليست مفاعيل الجائحة الكورونية كلُّها موتاً ودماراً وخراباً وصوراً كئيبة؛ بل إن لها بعض الجوانب الإيجابية

المحمودة، ومن أهمِّ تلك الإيجابيات هو التسريع بتنفيذ بعض المشروعات التي ظلَّت رهينة التنفيذ المستقبلي، بسبب نقص الجرأة والدَّافعيَّة لتنفيذها. ستشهد السنوات القليلة القادمة الخطوات الأولى لولوج حقبة الأنسنة الانتقالية التي ستأذن بنهاية عصر الأَنْثْرُوبُوسِيْن Anthropocene (وهو عصر صارت فيه السُّلُوكيَّات البشرية ذات مفاعيل - إيجابية وسلبية - مؤثِّرة في الطبيعة)، ومقدَم عصر النُّوفَاسِيْن Novacene (وهو عصر الذكاء الفائق الذي سيغدو فيه الإنسان البيولوجي مُدعَّماً بالوسائط الميكانيكية والإلكترونية، وَفْقَاً لتعريف عالَم المستقبليات الأمريكي جيمس لفلوك James Lovelock).

٢- السياسات النِّيُوليبراليَّة شيء يختلف جوهرياً عن الرَّأسماليَّة:

لا أحسب أنّ عبارة "موت الرَّأسماليَّة" قد وهنت نبرتها يوماً خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الماضية، وتأتي هذه النبرة في العادة بهيئة نذير، يحمل نبوءة أشبه بالنبوءات اللَّاهوتيَّة، حيثُ لا يكون الفناء محض تلاشٍ فيزيائي لحالة، واستبدالها حالة أخرى؛ بل يكون فناءً عامَّاً للبشرية مقترِناً بخراب شامل وكامل، لا يُبقِي شيئاً من معالَم الحياة الإنسانية على وجه الأرض.

لايمكنُ نكرانُ أنّ لبدايات الرَّأسماليَّة كانت لها آثارها ومفاعيلها في حضارتنا الراهنة من حيثُ قدرتها الفائقة على الارتقاء بالرَّفاهيَة العامَّة عبر إشباع البطون الجائعة، ومن ثمَّ تصنيع أسباب الترف المادِّيِّ، وتوفير المتع ووسائل البذخ اللَّامحدودة.

ثمَّة شعبوية سائدة اليوم أعلى شأنها صوت الرَّاديكاليَّة اليسارية ومنظِّرو أحزاب اليسار الجديد الذين اندفعوا في ترجيح كفَّة الخطاب الأيديولوجي على حساب الحقائق الراسخة على أرض الواقع، متَّخذين

من "الأزمات الدَّوريَّة في الرَّأسماليَّة المعاصرة" شاهدة على مصداقيتهم في الوقت الذي نعرف فيه بما لا يقبل اللبس أنّ هذه الأزمات الدَّوريَّة ليست أعراضاً سريرية مُنذرِة باقتراب الموت، بقدر ما هي ملامح ملازِمة لطبيعة آليات اشتغال الرَّأسماليَّة.

لم يكن الترويج لفكرة شعبوية عن موت الرَّأسماليَّة سوى فكر رغائبي، يُراد منه رؤية القلاع الرَّأسماليَّة تتهاوى مثلما تهاوت قبلها قلاع الشُّيوعيَّة، ولا ينبغي أن ننسى في هذا السياق أن الشُّيُوعيَّة ذاتها تعرَّضت لذات الهجمة النُّبُوئيَّة المُنذِرة بموتها (روايات جورج أورويل وآرثر كوستلر مثالاً)، ثمَّ تحقَّقت هذه النبوءة بتهاوي القلاع التي كانت تمثِّل التجربة الاشتراكية نتيجة ظروف متضافرة كثيرة، أدَّت إلى انهيار المنظومة بكاملها.

هناك الكثير ممَّا علينا التَّوقُّف عنده في الحالَتَيْن: قد نتَّفق على سقوط الشُّيُوعيَّة كتطبيقات؛ لكن الفكر الماركسي الذي عُدَّ الخلفية الأيديولوجية للدول الشُّيُوعيَّة لا يزال حَيَّاً، ولا تزال الأدبيات الماركسية تلقى رواجاً كبيراً في أنحاء عالَمنا؛ فنجد أعرق الجامعات في البلدان الرَّأسماليَّة تُواصِل إصدار دراسات حديثة وكثيرة بشأنه. إذنْ، ثمَّة فرق كبير بين جوهر الأفكار وبين تطبيقاتها والمؤسَّسات (ومنها الحكومات) القائمة على تلك التطبيقات، والأمر يصحُّ على الرَّأسماليَّة، بقدر ما يصحُّ على الماركسية.

ثمَّ إنّ الرَّأسماليَّة ليست رأسمالية واحدة، بل هي رأسماليات عدَّة؛ فالرَّأسماليَّة الأميركية الأصولية المحكومة بغول الفردانية الجامحة هي غير الرَّأسماليَّة الألمانية، أو الاسكندنافية المُرشَّدة بُموجِّهات الدِّيمقراطيَّة الاجتماعية، وهذه غير الرَّأسماليَّة اليابانية المحكومة باعتبارات التقاليد اليابانية الصارمة. ولعلَّ المثال الأكثر تطرُّفاً بين الرَّأسماليَّات المعاصرة هو نموذج الرَّأسماليَّة الصِّينيَّة التي تجاوزت التلازم القسري بين اللِّيبراليَّة السِّياسيَّة والاقتصاد الحُرِّ، ونجحت في توظيف الآليات الرَّأسماليَّة بمعزل عن إسقاطاتها السِّياسيَّة، وأحرزت انعطافات ثورية في هذا المجال طبقاً لقاعدة دينغ زياو بنغ القائلة "ليس المهمُّ أن يكون القطُّ أبيضَ أو أسودَ، بل ما يهمُّنا فيه أن يصيد الفئران".

من الطَّبيعيِّ أن تتعالى الأصوات المنادية بموت الرَّأسماليَّة عند كلِّ أزمة وجودية تعانيها البشرية، ولعلَّ هؤلاء المنادين يقصدون السياسات النِّيُوليبراليَّة (أو الرَّأسماليَّة المتأخِّرة طبقاً لمصطلحات المنظِّر الثَّقافيِّ فريدريك جيمسون Fredric Jameson)- تلك السياسات التي هي بعض مواريث السِّياسَتَيْن الرِّيغانيَّة والتَّاتشريَّة اللَّتَيْن أطلقتا يد الأسواق الحُرَّة المتغوِّلة، وأعلتا شأن الاقتصاد الرَّمزيِّ القائم على المشتقَّات المالية

بدلاً من عناصر الإنتاج الحقيقية.

إذنْ، يبدو أن السياسات النِّيُوليبراليَّة آن لها أن تنتهي؛ لكن السياسات الرَّأسماليَّة التي سيعاد تكييفها إلى حَدٍّ، قد تبلغ معه مرتبة الرَّأسماليَّة التَّشاركيَّة.

٣- صعود العلم وانكفاء السياسة

سيتيحُ انكفاء الجائحة الكورونية إمكانية غير مسبوقة في إعلاء شأن العلم، باعتباره ممارسة بشرية ذات وجهَيْن: وجه براغماتي، يسعى لتحسين حياة الإنسان على الأرض، وإمداده بالوسائل العملية القادرة على تعظيم قدراته وسعادته، ووجه أخلاقياتي، يقوم على إعلاء النزاهة والبحث الدؤوب واعتماد النزعة الشُّكُوكيَّة في مقاربة المعضلات الوجودية، وعدم الارتكان لوجهة نظر واحدة أو رؤية محدَّدة.

كلُّنا نعرف أن السِّياسيِّيْن مقامرون بصيغة أو بأخرى: هم يفضِّلون النتائج السريعة التي يجتنون منها مكسباً على الجهود طويلة الأجل التي تتطلَّب تضحيات بالمواقف الآنية، وقد أبانت الجائحة الكورونية أنّ هذه البراغماتية السِّياسيَّة القبيحة التي لو كنَّا قبلناها من قبل على مضض، فلن يكون مقبولاً الإبقاء عليها في قادمات الأيَّام.

من جانب آخر، لا مناص من إشاعة الاهتمام بالعلم والسياسات العلمية على أوسع نطاق بعد أن أثبت العلم أنه مقاربتنا الوحيدة للتعامل المُعَقْلَن مع الطبيعة، والكشـف عن القوانين الحاكمة لعالَمنا الفيزيائي، وسيتبع هذا الإهتمام غير المسبوق نكوص الأصـوليات (الدِّينيَّة والآيديولوجية) التي تعتمد اليقين مقابل الفكر الشُّــكُوكيِّ الذي يسـمُ الفكر العلمي، وقد عبَّر بروفســور الفيزياء النَّظريَّة (جم الخليلي) عن هذه الحقيقة بطريقة رائعة عندما كَتَبَ في مقالة حديثة له بعنوان (شكُّ العلماء ويقين السِّياسيِّيْن) نشرها في صـــحيفة الغارديان البريطانية: "لم يكن يوماً ما ثمَّة ما هو أكثر أهمِّيَّة من إشـــاعة الفَهْم الخاصِّ بكيفية عمل العلم: في السـياســة يُنظرُ إلى الاعتراف بارتكاب خطأ ما على أنّه شـكل من أشـكال الضـعف والوهن؛ في حين أنّ الأمر معاكسٌ لهذا تماماً في العلم، حيثُ يكون ارتكاب الأخطاء حجر الزاوية في المعرفة. إنّ إستبدال النَّظريَّات والفرضيات القديمة بأخرى أكثر حداثة ودقَّة، هو أمرٌ يتيحُ لنا اكتساب فَهْمٍ أعمق للمادَّة العلمية موضــوعة البحث، وفي الوقت ذاته، نحنُ (أي العلماء) نطوِّرُ نماذجنا الرِّياضياتيَّة، ونشكِّلُ تخميناتنا تأسيساً على البيانات والشواهد المتوفِّرة لنا. بقدر ما يختصُّ الأمر بشيء جديد على شــاكلة فايروس الجائحة الكورونية، فقد شــرعنا من خطٍّ بداية واطئ من المعرفة، وكلَّما راكمْنا المزيد من البيانات الجديدة، فإنّ نماذجنا وتخميناتنا ســتســتمرُّ في التَّطوُّر والتَّحسُّــن"، ثمَّ يختتم مقالته بالعبارات المشــرقة التالية: "إذا كنَّا نتطلَّعُ بحقٍّ لتجاوُز معضــلة الجائحة الفايروســية الراهنة، فيتوجُّبُ علينا جميعاً أن نحوز فَهْماً أساسياً للكيفية التي يعمل بها العلم، فضلاً عن امتلاك القدرة على الإفصــاح بأننا (وفي خضـــمِّ أزمة كبيرة مثل الجائحة الحالية) إذا ما أبديْنا شــكوكنا (إزاء نظرياتنا وسلوكياتنا العلمية الراهنة) عوضاً عن التظاهر باليقين، فإنّ هذا الأمر هو مصدر قوَّة لنا".

٤- أخدوعة هشاشتنا البشرية

لعلَّ عبارة "الهشاشة البشرية" هي أكثر العبارات التي تشيع في ظروف المعضلات الوجودية الكبرى، ويتقصَّد المنافحون عنها وَضْعها في سياق لاهوتي، يشي بالمقدرة الكونية الفائقة والساحقة إزاء القدرة البشـرية، وبما يؤكِّد ضـآلة الكائن البشـري وتفاهته وعدم تفكُّره في هذه الحقيقة إلَّا عند الجائحات التي تقرِّبه من حقيقة موته المحتَّم، وممَّا يفاقم من حِدَّة هذه الهشـاشـة المزعومة الترديد الببغاوي لأسئلةٍ، من نَمَط: كيف يمكن لفايروس لا يُرى بالعين المجرَّدة أن يقتلَ إنســاناً مُدجَّجاً بكلِّ القدرات العلمية والتِّقْنِيَّة الهائلة؟ واضحٌ أنّ مَنْ يطرحُ أسئلة بهذه الصياغات القَصْدِيَّة الملغَّمة إنما يمرِّرُ فكرة مضمرة، قوامُها فكرة العقاب الأبدي الذي يستحقُّه الكائن البشري من جانب (الإله المتعالي كُلِّيِّ القدرة).

ليست الهشاشة البشرية عيباً أو مَثْلَبَة: قد يشعر الإنسان بهشاشته في مواقف وجودية بعينها وهو يواجه حقائق الموت والشـيخوخة والمرض والعَجْز وفراق مَنْ يُحبُّ، ، ، إلخ؛ لكنّ هذا لا يُلغي القدرات العظيمة المخبوءة في روح الإنسان، والتي تتحفَّز بكيفية غير مسبوقة متى ما استشعرت عوامل الخطر؛ وعليه فإنّ المنافحين عن تدعيم فكر الهشاشة البشرية ليسوا سوى كائنات، تستطيب رؤية الكائن البشري محطَّماً كَسِيْرَ

الجناح بقَصْد تمرير أجنداتها التي تبتغي تعظيم المكاسب على حساب معاناة البشر وموتهم وتهشيم روح العنفوان والابتكار لديهم.

٥- نكوص الفكر الرَّغائبيِّ والسَّرْدِيَّات الكبرى

تشـيع في أيَّامنا الموبوءة بالجائحة الكورونية أفكار لا تعدو أن تكون تمثُّلات لفكر رغائبي Wishful Thinking يشـيعه بعض أكابر أقطاب الفكر العالَمي (تشـومسـكي مثالاً): انهيار الإمبراطورية الأمريكية، تصـدُّع التَّكتُّلات الكبيرة (الاتِّحاد الأوربي على سـبيل المثال)، وإعادة إحياء الدولة القومية المدعَّمة بصبغة دينية (على شاكلة الاتِّحاد الرُّوسيِّ)، صعود الإمبراطورية الصِّينيَّة كقطب أوحد بديل

للقطب الأمريكي، ، ، ، إلخ. قد يحصل شيء من هذا في السنوات أو العقود القليلة القادمة؛ لكنه لن يتَّخذ سِمَةَ السَّـرْدِيَّة الكبرى (على شاكلة نهاية التاريخ)، بقدر ما سيكون انعطافة هادئة، تُمليها ضرورات براغماتية، وليست آيديولوجية.

الفكرُ الرَّغائبيُّ والتَّمسُّك بالسَّرْديَّات الكبرى الجامعة المانعة ليس سوى خصائص لصيقة بالعقل العاجز غير القادر على الفعل المَرئيِّ على الأرض.

٦- إعادة هيكلة التعليم والسياسات التَّعليميَّة

أرى من جانبي أن هذه التغيير الجَذْرِيَّ الذي سيطالُ التعليم في السنوات القليلة القادمة هو المَعْلَمُ الأعظم الذي سيسودُ حياتنا في عصر ما بعد الجائحة الكورونية، وسيمثِّلُ هذا التغيير قاطرة، ستجرُّ وراءها سلسلة ممتدَّة من التطويرات الثَّوريَّة على كلِّ الأصعدة، وبخاصَّة في ميدان مغادرة المرجعية القائمة على نمط الثُّنائيَّة الأزلية (المعلِّم/ المتعلِّم) لصالح منظومات تعليمية، يكون فيها المتعلِّم مرجعية لذاته، يعرفُ متطلَّباته وكيفية التعامل معها بطريقة كفوءة، تختصر الكثير من الوقت والجهد والمال والموارد البشرية.

أصبحت البرامج التَّعليميَّة الرَّقْمِيَّة المجَّانيَّة في السنوات الأخيرة مَعْلَماً أساسياً من معالم التعليم في عصرنا الحديث؛ فثمَّة برامج مهمَّة، أذكر منها برنامجَيْن مميَّزَيْن، هما الأكثر فرادة بين برامج التعليم الرَّقْمِيِّ من حيثُ مفردات البرامج والمنصَّات التَّفاعليَّة والجهات الأكاديمية التي تدير هذه البرامج: البرنامج الأوَّل هو (Edx) الذي يديره معهد ماساتشوستس التِّقْنِيِّ (MIT) وجامعة هارفارد، والبرنامج الثاني فهو Coursera)) الذي تديره جامعة ستانفورد إلى جانب جامعات عالَمية مشهود لها بالرصانة العلمية. تُنشَر بين حين وآخر تقارير إحصائية لبيان أعداد المستفيدين من هذه البرامج التَّعليميَّة، ويُلاحظ أن الصِّينيِّيْن والهنود وبعض أبناء جنوب شرق آسيا يأتون في طليعة المستفيدين من هذه البرامج الدِّراسيَّة، وبخاصَّة في موضوعات الرِّياضيَّات والفيزياء والبرمجة الحاسوبية ولغات البرمجة وتعلُّم اللغات الأجنبية (وبخاصَّة الإنكليزية)؛ الأمر الذي يكشف أن هؤلاء يعدُّون العدَّة منذُ وقت مبكِّر في حياتهم لترسيم صورة المستقبل الذي يريدونه لأنفسهم، وبخطوات محسوبة بدقَّة ووعي، وفي العادة يرى هؤلاء في تلك البرامج الدِّراسيَّة كنزاً ثميناً، تنبغي الاستفادة منه إلى أبعد الحدود الممكنة، وليس غريباً أن نقرأ بصورة دورية عن شباب آسيويِّيْن يافعين في حدود العاشرة من أعمارهم - أو أكثر بقليل - وقد أكملوا برامج دراسية علمية وتِقْنِيَّة، تكفي للحصول على درجة البكالوريوس بتفوُّق (وربَّما حتَّى الماجستير، في أحيان أخرى).

٧- الثقافة البيئية عنصراً جوهرياً في رَسْم السياسات العامَّة

قد يسمع الكثيرون - وهم غير مكترثين - بمفردات من قبيل: الاحترار العالَمي، ارتفاع نسبة ثاني أوكسيد الكربون في الجوِّ، ظاهرة غازات الدفيئة، ظاهرة النِّينيو .. إلخ، ولا يكاد يرفُّ لهم جَفْنٌ، والحقُّ أن تقصيراً معيباً يَسِمُ سلوكيات الأفراد إزاء هذه الظواهر فضلاً عن ثقافتهم العامَّة في الموضوعات البيئية؛ إذ على الرغم من كثرة الموادِّ الإخبارية والإعلامية بشأن التَّغيُّرات المناخية الشَّاذَّة، فلا يبدو ثمَّة بديل عن جهد فرديٍّ مواظب لمعرفة أدقِّ تفاصيل هذه الظواهر، ومساءلة الكيفية التي يمكن بها للفرد المساهمة في تقليل آثارها المهلِكَة، والفعل الجادّ - كما نعلم - يأتي لاحقاً للمعرفة الرصينة، بكلِّ أبعاد الموضوع، وإلى حَدٍّ معقول، بالنسبة إلى المواطنين من غير المتخصِّصين.

قد يظنُّ البعض بأنّ ظواهر غريبة مثل هذه تستلزم جهودا عالَمية وقدرات حكومية ضخمة، ولن يكون دور

الأفراد مُؤثِّراً فيها؛ غير أن هذا خطلٌ كبير، يُراد منه التعتيم على دور الأفراد، وعلينا ألَّا ننســى التأثير الجَمْعِيَّ للكتلة البشرية التي تتجاوز السبعة مليارات نسمة، أمَّا ماذا يمكن للفرد أن يفعل بهذا الشأن، فذاك موضـوع قراءة اختصـاصـية، ولكنْ، لا بأس من ذِكْر القليل المؤثِّر، منها: ضـبط اسـتهلاك المياه، تقليل استخدام المحروقات العضوية، المساهمة في زيادة رقعة المساحات الخضراء، ترشيد استهلاك الطاقة الكهربائية ... إلخ.

لم يعد الخوض في الموضـوعة البيئية تَرَفَاً، وبخاصَّـة في أعقاب الجائحة الكورونية؛ فقد تنبَّهت أغلب البلدان - المتقدِّمة والتي في طور الارتقاء - إلى خطورة هذه الظاهرة التي ســتكون الظاهرة المؤثِّرة على مجمل الســياســات العالَمية في الســنوات القليلة القادمة، وبلغ الأمر حَدَّ اعتماد ما يُسـمَّى (الثقافة البيئية) التي تُعدُّ اليوم فرعاً حيويَّاً ضمن السياسات الثَّقافيَّة. ولم يقتصر الأمرُ على ذلك، بل بلغ حدوداً أكبر، تتغلغل في معظم المفاصل الحياتية للمجتمع، ودليل ذلك، على سبيل المثال، أنّ نوعاً أدبياً روائياً بات يُدعى الرواية البيئية نالَ حظوة كبيرة في السنوات الماضية، وظهرت روايات كثيرة، جعلت البيئة ثيمةً رئيسةً لها، هذا فضلاً عن الاهتمام التَّعليميِّ منذُ المراحل المبكِّرة بتعليم الموضوعات البيئية، بسبب المعرفة الاستباقية بخطورة الموضـوع وجوهريته لبقاء الجنس البشـري، واستدامة عناصـر ديمومته الحيوية.

نحن على أعتاب كارثة بيئية خطيرة ومُدمِّرة، ســتتفاقم مفاعيلها في الســنوات القليلة القادمة، وما لم نُحشِّد كلَّ الجهود الفردية والحكومية لمواجهتها، فسنكون بمواجهة مشهد قيامي مريع في القرن الحادي والعشرين.

لا أظنُّ أنّ أحداً بوسعه نكران حقيقة أنّ الجائحة الكورونية انطوت على الكثير من التضحيات البشرية والخسائر المادِّيَّة؛ لكنها تذكرة لنا بضرورة اعتماد سياسات تشاركية أوسع على الصعيد العالَمي، بدلاً من تكريس حالة القطائع الآيديولوجية والسياسات الأنانية الضَّيِّقة. نحن كلُّنا بشر، نستوطن كوكباً، ليس سوى (نقطة زرقاء شاحبة) في الفضاء الكوني الشاسع (بحسب توصيف كارل ساغان)، وعلينا تقع مهمَّة حمايته، وتوريثه بصــورة مقبولة للأجيال اللَّاحقة. لنُصــغِ مَلِيَّاً إلى هذه الكلمات النُّبُوئيَّة المليئة بالحكمة المعتَّقة، وهي تردُ على لســان أحد حكماء (غوروهات) القرن العشــرين، بيتر مدوّر Peter Medawar:

"الأجراس التي تقرعُها البشرية هي، في معظمها، مثلُ الأجراس المعلَّقة في رقاب الماشية التي ترعى على مقربة من سفوح جبال الألب؛ فهي معلَّقةٌ في رقابنا نحنُ سكَّان هذا الكوكب، وسيكون، بالضرورة، خطؤنا غير المغتَفَر إذا ما أَطلَقَت تلك الأجراس أصواتاً ناشزةً، لا تبعث على البهجة".

البيت/ الكهف

نهاية خلاص الفرد
وانتصار مناعة القطيع وقلق الفكر

إبراهيم الجبين

صـراع طويل دام ألفيات متلاحقة من السـنين، خَاضَـهُ الإنسـان ضـدَّ الطبيعة والوجود، كانت علامته الفارقة الخروج من نمطٍ إلى آخر من التفكير، هرب في بداياته من العراء إلى شــكل، انتظمت به حياته الأولى تحت أوَّل سقف يُظِلُّهُ، ووراء أوَّل جدران رآها تُؤيه من الخطر. فكان الكهف الأوَّل.

في ذلك المكان المظلم، ولكنْ، الآمن، في الوقت ذاته. صَـنَعَ الإنسـانُ كلَّ شـيء. وروى كلَّ شـيء، وتخيَّل كلَّ شـيء سيقع. وكان الإفريسك ورسوماته الأوَّليَّة قاموس المستقبل. نجاته من وحوش عقله، قادته إلى التفكير، وهي تقوده اليوم إلى الفكرة ذاتها، أن يلوذ بذاك الكهف من جديد، كهف حديث مجهَّز بآخر ما توصَّلت إليه حِيَلُهُ العلمية والتِّكنولوجيَّة، كهف اسمه البيت، ووحش اسمه وباء كورونا.

مرَّت رحلته ما بين الكهفَيْن كطرفة عين. طوَّر خلالها رسـوماته البدائية بالدم - حِبْره الوحيد آنذاك لتصبح عالَماً مشـيَّداً فوق خرائط، رَسَمَهَا أيضـاً بالدم. لم يتعلَّم الكثير، بقي يبحث عن لذَّة تلك اللحظة الفريدة التي شعر فيها بالأمان في كهفه الأوَّل، وكان كلُّ شيء فعله فقط، كي يستعيدَ مذاقها الذي جرَّبه في الماضي السحيق.

يا له من قرن جديد، هذا الواحد والعشـرون، كأنما يريد أن يمحوَ كلَّ خرافة فكرية، وضـعتْها القرون التي سـبقتْهُ، خاصَّـة قرينه القرن العشـرون الذي حقَّقت فيه البشـرية آلاف الأضـعاف عمَّا حقَّقتْهُ في الماضـي. زمن مُولَع بالنهايات، نهاية الحداثة وما بعدها، نهاية الدِّيمقراطيَّة، نهاية الفلسـفة، ونهاية التاريخ.

ميزوفونيا

والفكر، إذ يجد نفسَهُ في طور النهايات، لم يؤسِّس لبدايات جديدة. إنما اكتفى بدور الشامان النذير الذي يحذِّر من جحيم تلك النهايات، والمجهول الذي سيليها. ما يزال يقشعرُّ بَدَنُهُ من صوت احتكاك الطبشور على اللوح، مستحضِـراً من عقله الباطن أصـوات الرعد وغيلان الماضـي السحيق. ميزوفونيا رهيبة يعيشها عقل إنسان العصر من كلِّ شيء، حتَّى أخذ يُؤسِّس لمنظومات الأمن قبل تأسيسه لهياكل حضارة جديدة، آن أوان ولادتها.

ميزوفونيا اللحظة، جعلتْهُ يشـعر بالرعب من كلِّ جديد. من كلِّ ما لا يعرف، ونسـي أن مهمَّته الأولى والأخيرة في الوجود اكتشاف ما لا يعرف. فَحَكَمَ واستبدَّ وقَتَلَ. وشَرْعَنَ وحشيته بكلِّ ما مَنَحَهُ إيَّاه الفكر من فيزياء الحِيَل، خَلَقَ الأديان، وخَلَقَ لها تناقضـاتها، وخَلَقَ الفلسـفات، وبنى لها اختلافاتِها، وبشَّـر بالثورة التِّكنولوجيَّة، وقدَّم معها ثمارها السَّامَّة التي تهدِّد الكوكب بأسره.

الديجتال إيرا يبتلع كلَّ شيء، بينما يتراجع الفكر إلى دور الموظَّف أو الناشط الذي يكتفي بالتعليق على الحَدَث، وإصـدار البيانات دون التَّدخُّل في ما يجري أو محاولة تصـويب بوصـلته. بات الفكر أسـيراً لوحش الحضـارة ذي الأسـلاك والرقائق الذَّكيَّة. وليس بيان مجلَّة "دي تزايت" الألمانية الذي وقَّعه المفكِّرون، ومن بينهم الفليسـوف الألماني يورغن هابرماس، والذي نُشـر في أبريل الماضـي في ذروة انتشار الوباء، ونشـرتْهُ بالعربية مجلَّة "الجديد" اللَّندنيَّة، سوى مثال على حجم دور الفكر في حضـارتنا المعاصرة.

تتوقَّع من هابرماس وغيره من أشـياخ الفكر في ثقافتنا العالَمية المعاصـرة أن يطرحَ أفكاراً تقود إلى المستقبل، لكنْ، انظر أين ما يزال هابرماس يعيش "في ألمانيا، حصَّننا الماضي النَّازيُّ بمزيد من القوَّة في مواجهة عودة الفكر اليميني المتطرِّف. لهذا السـبب، يمكن للأحزاب والحكومات أن تتحمَّل، تحت حالة معاداة الشُّـيُوعيَّة المهيمنة، أن تغضَّ الطرف عن اليمين. منذُ وقت كورناد أدناور، ومنذ عودة الوحدة مع ألمانيا الشَّرقيَّة، سمحت لهم هذه الواجهة المعادية للشُّيُوعيَّة بإخفاء المكوِّنات القاتلة لماضيهم السِّياسيِّ. في

فرنسـا، على العكس من ذلك، كان التَّطرُّف اليميني قد تمَّ تنظيمه بالفعل قبل ذلك بوقت طويل، ولكنَّ جذوره الأيديولوجية مختلفة عن جذور اليمين الألماني، فهي ليسـت عِرْقِيَّة قومية، ولكنها دولاتية، الآن حتَّى بعض قطاعات اليسار الفرنسي ذات الخلفية الأممية تغرق هي أيضاً في كراهية الاتِّحاد الأوروبي".

وعن جدوى منظومة مثل الاتِّحاد الأوروبي في مواجهة الوباء يُعلِّق هابرماس "لقد طرحْنا، أنا وأصدقائي، هذا السؤال على حكومتنا: طرحْناه على المستشارة ميركل ووزير المالية الذي ينتمي للحزب الدِّيمقراطي الاجتماعي. وقد تركَني كلاهما مندهشاً. فقد استمرَّا بعناد في التَّمسُّك بالتعاطي مع الأزمة، وإدارتها لصالح ألمانيا ودول الشمال فقط، دون الالتفات إلى انتقادات دول الجنوب المتوسِّطية. تخشى الغالبية العظمى من السِّياسيِّيْن الألمان ردود الفعل الغاضبة لناخبيهم في حالة التراجع، خاصَّة وأنهم هم الذين قاموا بدغدغة تلك النزعة القومية الاقتصادية وإثارتها؛ ذات المرجعية الذَّاتيَّة، والاحتفاء الذَّاتيِّ بالصادرات الألمانية كبطل للعالَم".

الصادرات، والأحزاب، ومعاداة الشُّيُوعيَّة والوحدة بين الألمانيَّتَيْن! في أيِّ عصر يعيش المفكِّرون؟ حتَّى تحذيرات سلافوي جيجيك من ظهور أنماط استبدادية جديدة، في كتابه "فايروس" الذي تسنَّت لنا قراءة القليل منه بعد أن سابق الزمن، ليُصدره مؤخَّراً، والذي يقول فيه إن كورونا "ستعطي معنى جديداً للمجتمع، وسينبت منها فكر شُيُوعيٌّ جديد بعيد كلّ البُعْد عن تلك الشُّيُوعيَّة التَّاريخيَّة". وإلى جوار ما سمَّاها بـــ "شُيُوعيَّة الكارثة" تأتي نُبُوءات هنري كيسنجر في قلب الرَّأسماليَّة النابض، ولا تقول إلَّا ما قاله هابرماس، وجميعها لم تكن بذاك الثِّقَل الذي تعكسه صورة البشر وهم يتجوَّلون بالكِمَامات والقفَّازات حريصين على بِدْعَة "التباعد الاجتماعي" التي درجت لمَنْع انتشار العدوى.

غير أن أهمَّ ما يطرحه جيجيك في لحظات القلق من الوباء، حديثه عن البشر، عليهم أن يصبحوا "سياسيِّيْن أكثر"، إذ لم تعد هناك لحظة سياسية أكثر من هذه اللحظة. على حَدِّ قوله.

استفاق الفكر الأوروبي اليوم على أن السياسة ليست إدخال البشر في فرَّامة الصناديق الانتخابية، والاكتفاء بإيصال نوادي الأحزاب إلى الحكم، والانسحاب بعدها حتَّى الدورة الانتخابية وحسب. بل إن عليهم المشاركة في صُنع القرار كلّ لحظة، فقد تتوقَّف على ذلك، حياة البشر، لا رفاههم كما أوهمتْنا الحضارة الغربية.

ثمن الصمت

لا تُدان الحكومات العالَمية، وحدها، على صمتها على انحطاط القِيَم الإنسانية، وليس مِن تجلٍّ لذلك الصمت أبرز من هَضْمها واستساغتها لما جرى ويجري في سوريا، حيثُ يباد شعب بأكمله تحت عدسات الكاميرات والأقمار الصِّناعيَّة ووسائل التواصل الاجتماعية، يُدان مع تلك الأنظمة أيضاً عَجْز الفكر العالَمي، ومن بينه الفكر العربي، عن الإتيان بمعادلات أخلاقية جديدة، تجيب عن الأسئلة التي أدَّت إلى المجزرة، والتي سمحت باستمرارها.

وإذ يصوِّر المؤمنون جائحة كورونا كعقاب إلهيٍّ على تواطؤ العالَم حيال تلك المأساة، يمكن للعقل أن يجده كعقاب علمي، وكخلاصة طبيعية لمآلات الصمت.

ذلك الصمت لم يكن مجرَّد مَهرَب أخلاقي، وإنما يكشف العَجْز عن التَّدخُّل في الواقع، من جديد. ويكشف عن أن هناك عالَمَيْن يعيشان جنباً إلى جنب، عالَماً نعرفه، وعالَماً آخر يدير عالَمنا، عالَمَاً أنيقاً، وآخرَ متوحِّشاً، عالَمَاً يشنُّ الحروب من أجل الدِّيمقراطيَّة، وعالَماً يسمح بشنِّ الحروب ضدَّ الدِّيمقراطيَّة، عالَماً من أجل الحياة، وعالَمَاً آخر من أجل الموت، عالَمَاً من أجل النجاة، وآخرَ في صفِّ الوباء.

وفي مناخ الخوف، يختلط على البشر الشعور بالخطر مع الإحساس بدُنُوِّ عالَم جديد، لا يعرفون عنه شيئاً. ولا يكاد قَلَقُهُم يتيح لهم الفرصة، لتلمسَ ملامحه.

وبدلاً من أن يستجيب الفلاسفة لهذه اللحظة، نراهم ينافحون عن وضعيتهم الحالية التي أقلّ ما يقال عنها إنها مصابة بالشَّلَل، يكتب الفيلسوف الإيطالي سيرجيو بنفينوتو أنه و"في إطار الحرب على هذا الوباء، من

شأن المسافات أن تقرِّبنا من بعضنا البعض، وأن تكون استراتيجية الخوف أفضل طريقة لضمان علاقات ودِّيَّة، لأن نشـــر الخوف قد يكون أكثر حكمة من التفكير فلســـفياً، فالخوف، في بعض الأحيان، يتطلَّب شجاعة".

لكنْ، متى بدأ شعور العالَم بالخوف؟ حين وصل الفايروس إلى أنوفهم وأفواههم؟ لماذا لم يشعر فلاسفة العالَم بالخوف وهم يراقبون الأرقام اليومية للقَتْلَى في ســـوريا وهي تتصـــاعد، وحين أخذت عدَّادات الأرقام ذاتها تشير إلى ضحايا كورونا في بلدانهم، اقشعرَّت أبدانهم، وبات الخوف شجاعة؟ أين كانت الشجاعة قبل ذلك؟ ومَنْ قال إن احتمال انتشار وباء الوحشية في بلد صغير يُطلُّ على البحر المتوسِّط أقلّ من احتمال انتشار وباء كورونا؟

والآن وقد استهلك العالَم الحديث مخاوفَهُ كلَّها، الخوف من التَّطرُّف والإرهاب، الإسلامي حسب كثير منهم، والخوف من الأزمات المالية، والخوف من الشُّـــيُوعيَّة، والخوف من القومية المتطرِّفة، واليوم الخوف من الوباء. ماذا بعد؟ بقي خوفه من مواجهة نفســه في المرآة، والنَّظَر مَلِيَّاً في ما فعله، وما عليه أن يفعلَهُ، ليتخلَّص من بقية الأوبئة التي أصابتْهُ فعلاً، وعشَّشت فايروساتها في عقله.

وليســـت الكارثة السُّـــوريَّة وحدها، ما كان يجري في العالَم مِن تآكل، مع أنها مثال ســـاطع، لكنْ، إلى جوارها كان الدمُ يُســـفَك، وكان الاســـتغلال يجري في بقاع بعيدة عن ذلك المفكِّر الذي يســـترخي على كرســـيِّه الجِلْدِيِّ الفخم وهو يســـتعرض مجدَهُ في مرايا ثورة الاتِّصـــالات والميديا. لم يكن لديه الوقت ليُزعِجَ هذه الجهة أو تلك في العالَم، التي تتحكَّم بالدعوات إلى المؤتمرات وتقديم المِنَح والتكريمات، بالحديث عن قصص كئيبة. حينها لم يكن شجاعاً.

ما الذي يجري في الخارج؟

لقد تغيَّر العالَم. غيَّره الخطر. وغيَّره أنه أصـــبح يعرف الجدوى الحقيقية من الأســـوار التي بناها حول نطاقاته الضَّيِّقة، وأنها لن تُقدِّم أو تُؤخِّر حين يدنو الفناء التالي.

وليس صـــحيحاً أن العالَم يتَّجه إلى انغلاق جديد، بعد أن ذاق طَعْم الخلاص الأناني، بل إنه ســـيعمل، مضطرَّاً هذه المرَّة، على عولمته الجديدة القادمة من وعيه أن إنقاذ البشر، كلّ البشر، مهمَّة مشتركة. وسيبقى على ذلك "المثقَّف الإجرائي" أن يُنتِج خطاباً متقدِّماً على اللحظة، متجرِّداً من خفره واستحيائه من التَّدخُّل في الشأن العامِّ، ومتمرِّداً على كلِّ القيود التي وضعتْها له السلطات، سواء كانت سياسية أو إدارية، دأبت على الإحســـاس أن بوســـعها أن تعيش من دونه، ومن دون إنتاجه. وحين اســـتغنت عنه، استغنت عنها الطبيعة. فأوَّل ما كسرتْهُ معزوفة كورونا المرعبة، كان صورة المثقَّف الغربي، سواء كان في المؤسَّسة الرَّسميَّة أو مستقلاً. بدا عارياً تماماً بلا ورقة تُوت. ناهيكَ عن مثقَّف الشرق المتكوِّر على نفسه، يرتجف خوفاً من كلِّ شيء.

تُعيد الطبيعة الكرةَ إلى ملعب الفكر. وهي الأدرى به، والأكثر ذكاء، والأكثر قدرة على التغيير. تدفعُهُ دَفْعاً، بانتخاب جديد، نحو إعادة إنتاج خطابه وتصـــوُّراته، وابتكار فلسفات كونية قادرة على أن تعيش بين جميع البشـــر، وتقدِّم الحلول لمشـــكلاتهم. ولا بأس بتعدُّد مدارســـها وينابيعها، ما دامت قادرة على توحيد جهود البشرية نحو النجاة. ليس بحَدِّها الأدنى، بل بحَدِّها الذي لا يُشـــكِّل خطراً على أولئك الذين يعيشون الرَّفاهيَة في البعيد. وهي مناعة قطيع مُستحدَثَة، تفرضها الطبيعة بيدها من جديد.

سيخرج الإنسان من البيت، ليرى ما الذي جرى في الخارج في أثناء اندساسه في العتمة الآمنة. بعد أن اكتشف أنه لم يعد قادراً على خداع أحد، فحتَّى الطفل الذي حصَّنَتْهُ الطبيعة ضدَّ الوباء، صار يُدرك أن الآباء عاجزون عن تفســير العالَم أو تقديم يد العون له. الآباء جميعهم، آباء الفكر وآباء الســـياســـة وآباء البيت - الكهف.

احتضار العولمة بين جائحَتَيْن

خلدون الشمعة

احتضـار، الكلمة المسـتعارة من البيولوجيا، والعاكسـة لمعنى الجائحة، قد تصـلح للإشـارة إلى النزع الأخير للعولمة. أسـتخدم هذا العنوان، لأُبيِّن من ناحية، أن من البداهة القول إن العولمة صـارت خلال العقد الأوَّل من القرن الحادي والعشـرين بمثابة النموذج المرجعي "البارادايم" أو بؤرة القرية الكونية الناظمة لعلاقات دولية، وأنه، من جهة ثانية، لم يصـل إلينا البارادايم دفعة واحدة، بل وَصَـلَ مُدوَّناً في الذاكرة، عبر أسطورة مشروع مارشال الموجَّه، تحديداً، إلى أوروبا التي مزَّقتْها الحرب، ولكي أفحص من ناحية ثالثة، بعض خصـائص العولمة، ومدى تأثير احتضـارها في وقت لاحق على تعزيز جملة من الظواهر السَّـلبيَّة المتحرِّكة باتِّجاه نكوصـي معاكس لدينامية التَّقدُّم الخطِّيِّLinear، وتعويضـها بدينامية ابن خلدون الدَّائريَّة المنزع في الصـعود والهبوط الذي يعقبه صـعود، وهكذا دواليك، وهي فكرة Vico، واشبنغلر ونيتشه في العود الأبدي، في وقت لاحق.

أتحدَّث من منظور عربي، بل سـوري على وجه التحديد. ولذلك من البدهي القول إنني أرى أفول العولمة من موقع، يتَّصل بالنظام السَّياسيِّ المتوقَّع في بلد، قُتل وشُرِّد فيه نصف الشعب السُّوريِّ.

ما العولمة؟ سـؤال مشـكلي، يمكن الإجابة عنه بالقول إنها سـيرورة، تتَّصـل بالتَّغيُّر في الطريقة التي نعيش بها.

كما تتَّصـل بالوضـع الاقتصـادي الذي يعتمد على ما يُدعى بالتواقف Interdependence أي الاعتماد الاقتصـادي المتبادل بين الدول أكثر من ذي قبل. ولكن هذه العلاقة لا يمكن اعتبارها نظاماً واحداً. فمعظم النشاط التِّجاريِّ يجري عبر تجمُّعات مناطقية، كالاتِّحاد الأوروبي ومنطقة آسيا والمحيط الباسيفيكي وشمال أوروبا، وليس ضمن نطاق عولمي واحد.

كما يمكن، أيضـاً، تفنيد القول بأن العولمة أثَّرت سلباً على دور الدولة. فحكومات الدول ما زالت تلعب دوراً مفتاحياً حتَّى الآن. فهي تُنظِّم وتُنسِّق الفعالية الاقتصـادية والاتِّفاقيات التِّجاريَّة وسياسـات اللِّيبراليَّة الاقتصـادية. الحكومات القومية احتفظت بقَدْر كبير من السـلطة والنفوذ، على الرغم من تفاقم ظاهرة الاعتماد الاقتصـادي المتبادل بين الدول. ولكن الدولة القومية بصـيغتها الارتدادية القوموية تعتمد نظرة أكثر نشاطاً، وتتَّسم بفاعلية أكبر مع التَّقدُّم المطَّرد للعولمة.

العولمة، إذنْ، ليست سيرورة خطِّيَّة واحدة نحو تحقيق درجة أكبر من الاندماج بين الدول، بل سيرورة مزدوجة لتدفُّق المعلومات والنفوذ على نحو يفضي إلى نتائج مختلفة.

يمكن القول، تأسـيسـاً على ما تقدَّم، أن الأمر الواقع ما زال الآمر الناهي. فالعقلاني، بتعبير هيغل، هو الحقيقي، والحقيقي هو العقلاني. وإذا لم يكن ما يحدث في سـوريا عقلانياً، فإن الحقيقي (الواقعي) هو العقلاني. كما أن "الكلمة الأخيرة (بتعبير الشـاعر توفيق صـايغ) هي دائماً للحيوان". التجربة السُّوريَّة، قبل الجائحة المَرَضِـيَّة وبعدها، تؤسِّـس لحقِّ القوَّة، لا لقوَّة الحقِّ. لا تُؤسِّـس لمنهج معرفي جديد، بل تُعزِّز منهجاً معرفياً قديماً، ربَّما تختزله، على نحو ما، مقدِّمة ابن خلدون:

"فإن الملك إذا كان قاهراً باطشـاً بالعقوبات مُنقِّباً عن كوارث الناس وتعديد ذنوبهم شـملهم الخوف، ولاذوا منه بالكَذِب والمكر والخديعة، فتخلَّقوا بها، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربَّما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات، ففسدت الحماية بفساد النِّيَّات، وربَّما أجمعوا على قَتْله لذلك تفسد الدولة، ويخرب السياج، وإن دام أمره عليهم، وقهره فسدت العصبية لما قلناه أوَّلاً، وفسد السياج من أصله بالعَجْز عن الحماية". ربَّما نرى في ما تقدَّم العلَّة التي يُحتمل أن تُفسِّـر شـيئاً من أفول العولمة تحت مظلَّة القوى

المهيمنة، وعَجْزها عن موضعة غائية أخلاقية المنزع، أو حتَّى الاقتراب من أحد أبرز عناصر المَقتَلَة السُّوريَّة المعلَّقة، ونعني بذلك ما يُدعى بـ "الدِّيمقراطيَّة الكُوزمُوبُوليتيَّة"، الدِّيمقراطيَّة التي يعترض على موضعتها باسم بروتوكولات اقتصادية طوباوية، مفكِّرون بارزون من أمثال تشومسكي وسمير أمين، على سبيل تعداد القلَّة، لا الحصر.

والحال أن الدِّيمقراطيَّة الكُوزمُوبُوليتية المعترَض عليها نموذج مرجعي لنظام سياسي، يطرح الحاجة إلى

تطبيق حقوق إنسانية أساسية عابرة للحدود، حقوق يُدرجها ديفيد هيلد Held، منظِّر العولمة، في سياق أُسُس، تتخلَّل فترة زمنية، يتأسَّس النظام العولمي فيها عبر شبكات قوَّة متعدِّدة، تضمُّ فئات بشرية متداخلة، وثقافات متقاربة، وروابط دولية من الاعتماد المتبادل، بحيث تصير الدِّيمقراطيَّة الكُوزمُوبُوليتيَّة حقَّاً إنسانياً، يوازن بين القوى المهيمنة والدول.

يقودنا الكلام على طوباوية منظِّري العولمة إلى الواقع، ويحيلنا الواقع إلى انحسار العولمة إلى نقيضها. في كتابه "الرَّأسماليَّة في عصر العولمة" يساجل سمير أمين بالقول إن العولمة في حالة استقطاب غير مرغوب فيه، ويمكن تجنُّبه. كما يقوم بتفكيك صندوق النَّقْد الدّوليّ والبنك الدّوليّ معتبراً أنهما ميكانيزمات إدارية مكرَّسة لحماية رِبْحِيَّة رأس المال. ثمَّ يعترض على معادلة مفهوم التَّطوُّر مع ظاهرة التَّوسُّع في السوق، ليؤكِّد بدلاً من ذلك على حاجة كلِّ مجتمع على حِدَة، إلى مفاوضة شروط اعتماده المتبادل مع الاقتصاد العولمي. وفضلاً عن ذلك يبحث سمير أمين دور الولايات المتَّحدة مساجلاً بالقول إن جذور مشروع الهيمنة الأميركي على العالَم بالقوَّة العسكرية تكمن في اللِّيبراليَّة الأوروبية، وأن الولايات المتَّحدة طوَّرت هذه اللِّيبراليَّة، بحيث تخدم مصالح الرأسمال وحده، وأنها تقوم الآن بتصدير هذا النموذج الاقتصادي إلى العالَم بأسره.

توضح لنا المقتلة السُّوريَّة المَنسِيَّة عولمياً في صدامها مع النظام الجملوكي السائد أن النزاع ليس مع الرأسمال الذي تحتاج إليه البلاد، بل مع الجائحة الإنسانية السابقة على الجائحة المَرَضِيَّة. هذه الجائحة المدمِّرة للبشر والحجر التي تمثِّل أكبر أزمة إنسانية وسياسية في القرن الواحد والعشرين تثير قَدْراً غير قليل من الاستغراب.

فلماذا يتجاهل بعض مناهضي العولمة بمحمولها المعرفي الدِّيمقراطيِّ مقتلةً، راح ضحيَّتها ملايين السُّوريّيْن؟

لا شكَّ أن ثمَّة نقاط تطابق وتقاطع، ظاهرة حيناً، ومستترة حيناً آخر، بين طوباوية العولمة وطوباوية مناهضيها. بل يمكن القول إن التمفصل العفوي بينهما يحيل إلى بروز ثلاث ديناميات:

الأولى تتَّصل بتعزيز النزعة القوموية. الاتِّحاد الرُّوسيّ وريث الاتِّحاد السُّوفياتيّ صار يمثِّل إمبريالية توسُّعيَّة بامتياز. دولة تبني على ماضوية قيصرية، تُقلِّد الغرب، وتُحاول إرضاءه باستمرار. بل إن رئيسها المزمِن يباهي علانية بفعالية تجريب أطنان من الأسلحة الرُّوسيَّة الصُّنْع على السُّوريِّيْن. وأمَّا الشريك اللدود، فيتمثَّل بإمبريالية فارسية، تتوسَّل بالدِّيْن، ثيوقراطية يستغل نظامها المَذهبي الدِّيْن، وتجهر بالسيطرة الاستيطانية على عواصم عربية. إمبراطوريتان تؤسِّسان لاستبداد شرقي تحت الأنقاض.

أختم قراءتي بالقول إن الكلام لا يكون إلَّا بين ذات وآخر. والآخر بصوت الشاعر سميح القاسم نقيض:

أنا لا أُحبُّكَ، يا موتُ، لكنني لا أخافُكَ
وأُدركُ أن سريرَكَ جسمي وروحي لحافُكَ
وأُدركُ أني تضيق عليَّ ضفافُكَ.

العالَم على أبواب قطيعة تاريخية

فخري صالح

لا شكَّ في أن الإنسانية مرَّت، على مدار تاريخها، بالكثير من الحروب الطاحنة، والكوارث الطَّبيعيَّة، والأوبئة، والمجاعات، التي حصدت حيوات الملايين من البشر، إلّا أن الوضع الحالي الذي نعيشه الآن يبدو غير مسبوق في طبيعته، وتهديده، ورقعة انتشاره الواسعة، وآثاره السِّياسيَّة والاجتماعية والاقتصادية المدمِّرة، وما سيتسبَّب به من فقدان الوظائف، وإضافة مئات الملايين من البشر إلى قائمة الجياع في العالَم، وقدرته على إجبار سكَّان الكوكب أن يلزموا بيوتهم في انتظار مصير غامض مجهول. إن غموض الحاضر والشَّكّ في المستقبل، وما ستكون عليه الحياة بعد هذه الجائحة، هي العلامات الأساسية لهذه اللحظة الفارقة في تاريخ البشرية، وهي ما يتردَّد في جميع التعليقات والتحليلات والتَّنبُّؤات التي تتدفَّق كلَّ لحظة في جهات الأرض الأربع. فلا أحد لديه جواب مقنِع يشفي الغليل على ما سيكون عليه شكل الحياة بعد أسابيع، أو أشهر، أو سنوات، في غياب معرفة يقينية بصفات فيروس كورونا، أو طُرُق انتشاره، أو السبب الحقيقي لسرعة انتقاله، أو طُرُق الوقاية منه، أو علاجه، أو إمكانية اكتساب المناعة ضدَّه، إذا أُصيب المرء به، أو انتقل إليه من غيره، ولم تظهر عليه أعراضه. لا أجوبة لدى السِّياسيِّيْن أو المتخصِّصين في علوم الاقتصاد أو المفكِّرين وعلماء المستقبليات. والأهمُّ من كلِّ هذا أنه لا أجوبة يقينية لدى العلماء والأطبَّاء الذين يسابقون الزمن للعثور على علاج ناجع أو لَقَاح يقي من هذا المرض الذي يهدِّد حياة البشر جميعاً.

ومع ذلك، ففي الوقت الذي يقبع فيه ما يقارب نصف سكَّان العالَم وراء جدران بيوتهم، وتُقفر الشوارع من سكَّانها، وتحطُّ الطائرات في مهاجعها، ويكفُّ العالَم عن الحركة، تبدو البشرية وكأنها على أُهْبَة قطيعة تاريخية مع ماضيها وحاضرها. لقد أجبرها فيروس كورونا (حاكم الأرض الجديد كوفيد- ١٩) على تغيير عاداتها، والتنازل عن حُرِّيَّاتها، وإدارة الظهر لمفهوم الحقوق الأساسية، الذي أشاعه عصر التنوير الأوروبي، وصادقت عليه المبادئ التي وضعتْها الأمم المتَّحدة. فما شهدناه، في إيطاليا وإسبانيا وبريطانيا وأمريكا، وغيرها من الدول، من تَرْك كبار السِّنِّ يموتون في بيوت المسنِّين دون مَدِّ يد العون لهم، لأن الأنظمة الصِّحِّيَّة هناك شارفت على الانهيار، ومن الصعب توفير أجهزة تنفُّس لكلِّ المرضى، يشير إلى حقيقة فاجعة - إضافة إلى حقائق عديدة أخرى، على رأسها هشاشة الأنظمة الصِّحِّيَّة في بلدان العالَم الأوَّل، فكيف بالبلدان الفقيرة، أو ما اصطُلح على تسميته سابقاً بدول العالَم الثالث! - هي قدرة العالَم المعاصر على غَضِّ البصر عن الالتزام بالمحافظة على حقِّ الحياة، بوصفِهِ الحقّ الأساسي الأوَّل لكلِّ إنسان، مهما كان عِرْقه أو طبقته أو ديانته، أو معتقده الأيديولوجي؛ والأهمُّ من كلِّ ما سبق، مهما كانت فئتُهُ العمرية، فالمُسنُّ مثله مثل الشَّابّ يتمتَّع بحقِّ الحياة، وتُعَدُّ مساعدته للحفاظ على هذا الحقِّ إلزامية. لكننا نشهد للأسف تضحية بهذا الحقِّ في أعرقِ الدِّيموقراطيات الغربية، وكذلك في الدول التي تحكمها أنظمة دكتاتورية أو شبه ديموقراطية. إننا نرى ونسمع عن آلاف المسنِّين، وكذلك المصابين بذبحة صدرية حادَّة، يموتون لأن الجهاز الصِّحِّيَّ في بلدانهم عاجز عن مساعدتهم ونَقْلهم إلى المستشفيات. فهناك مَرْضى أَوْلى بالمساعدة، ممَّنْ يقبعون في المشافي أو من الشباب الذين هم الأقوى، و"الأصلح"، والأكثر قابلية للشفاء. إننا نعبر عصراً يتسلَّح بمفاهيم وقِيَم داروينية ومالثوسية جديدة

تضـرب عرض الحائط بكلِّ ما دعت إليه فلسـفة الأنوار وشِـرْعة حقوق الإنسـان. وهو أمر مخيفٌ، بل مثيرٌ للفزع، أن تنحدر الإنسانية إلى هذا الدَّرْك من سُلَّم القِيَم.

يجادل الفيلسوف الإيطالي جورجيو أغامبين Giorgio Agamben في مدى أحقِّيَّة تفضيل ما يُسمِّيه "الحياة البيولوجية" على بقية الحيوات الأخرى، السِّياسيَّة والاجتماعية والاقتصادية، قائلاً إن ذلك يندرج ضمن التَّصوُّر الغربي لما يُسمِّيه "الاستثناء". يكتب أغامبين معترِضاً: "إن أوَّل الأشياء التي تكشف عنها هذه الموجة من الفزع التي أصـابت بلادنا بالشَّلَل هي أن مجتمعنا لم يعد يؤمن بأيِّ شـيء يتجاوز الحياة العارية ... فنحن في هَلَعِنا ذي الطابع الهسـتيري، نمارس جهداً جبَّاراً لتجنُّب الأذى الجسـدي. وبذلك عرَّضْنا أنفسَنا لخسارة نظام أرفع شأناً [من الحياة البيولوجية]: لقد ضَحَّيْنا بالعمل، والصداقة، والعائلات الممتدَّة، والطقوس الدِّينيَّة (وعلى رأسـها الجنازات)، والانتماءات السِّـياسـيَّة. ونحن بذلك قد نحافظ على أنفسنا بيولوجياً، لكننا نُضحِّي بكلِّ ما يجعل للحياة معنى، بما يجعلُها تستحقُّ أن تُعاش."

بِغَضِّ النَّظَرِ عن وَجَاهة ما يقولُهُ أغامبين بخصـوص التضـحية بأشكال أسـاسـية من الوجود الإنسـاني لصـالح ما يُسـمِّيه "الوجود العاري"، المتمثِّل في الحفاظ على مجرَّد العيش واسـتمرارية الحياة، فإن ما يقوله يندرج ضمن نوع من الهرطقة النَّظريَّة، التي تُعلي من شأن النَّظريَّة على حساب الحقِّ الأساسي في العيش. ففي

الوقت الذي تتعرَّض فيه البشـرية لتهديد وجودي، يتَّصـل بفناء أعداد كبيرة من أفرادها، سـواء أكانوا مُسنِّين أم شباباً، مرضـى أم أصحَّاء، لا يكون هناك معنى للحديث عن "الحياة العارية" في مقابل أنواع من الحيوات أكثر غِنى وتمثيلاً لمعنى الوجود الإنسـاني. وإذا استعملْنا نَظَرِيَّة أغامبين نفسه، فإن ما تمرُّ به البشـرية هو "الاسـتثناء" The Exception، فلكي نحافظَ على أنواع الحيوات الأخرى "الأكثر غِنى" علينا أن نحافظ على الحياة البيولوجية، أو "الحياة العارِية" Bare Life، إذ بانتفاء "الحياة العارية" لن تكون هناك حيوات أخرى، ويصـبح الحديث عنها نوعاً من الهلوسـة النَّظريَّة التي يتَّسم بها النقاش الفلسفي في بعض مدارس ما بعد الحداثة.

صـحيحٌ أن القوانين الاسـتثنائية التي تُفرَض الآن، في طول العالَم وعرضـه، بل في أعرق الدِّيموقراطيَّات في العالَم، تتَّسـم بطابع "الاسـتثناء"، الذي يمثِّل في فلسـفة أغامبين طابعَ الحضـارة الغربية، حيثُ تكتسب الأنظمة في أوقات الأزمات سلطات أكثر قوَّة، وتتعطَّل الحياة الدُّستوريَّة. ويتمثَّل هذا "الاسـتثناء" في إجراءات الحَجْر الصِّـحِّيِّ، ومَنْع التَّجوُّل، ونزول قوَّات الأمن والجيوش إلى الشوارع، حيثُ يجري خَنْق الحُرِّيَّات الأساسية وتقليصها والاعتداء عليها، بصورة من الصور، وإحلال قوانين الدفاع والطوارئ محلّ القوانين الطَّبيعيَّة. وهو الأمر الذي يجعل الفيلسـوف السّـلوفينيّ سـلافوي جيجيك Slavoj Zizek يتخوَّف من وباء السـلطويَّة وشـيوع الاسـتبداد، متوقِّعاً أن تنشـأ في أوروبا: "بربرية جديدة بوجه إنسـاني -حيثُ تُفرَض قيودٌ صـارمة، لا ترحم من أجل البقاء - تلجأ إلى آراء الخبراء لاكتساب مشروعيتها."

لكنْ، مع أخذ ملاحظات كلٍّ من أغامبين وجيجيك في الحسـبان، فالبشـرية كلُّها، وعلى رأسـها الدِّيموقراطيَّات الغربية، تواجه مرحلة فاصلة في تاريخها، والحفاظ على الحياة، بمعناها الأوَّليِّ العاري المتَّصـل بالوجود البيولوجي، يعلو على أيِّ نقاش آخر في هذه الفترة العصـيبة التي تعبرها الإنسـانية. وهو ما يُشـدّد عليه الفيلسـوف الألماني يورغن هابرماس jurgen Habermas قائلاً: إن حماية ما يُسمِّيه "الحياة الضَّروريَّة" يمثِّل الآن أولوية كونية، تعلو على أيِّ حسابات نفعية، أو أضرار اجتماعية أو سياسية أو اقتصـادية، قد تتسبَّب بها القوانين الاستثنائية التي تتَّخذها الدول للحفاظ على حياة الناس. "مع اتِّخاذ القرار بشـأن الوقت المناسـب لإنهاء الحَجْر الصِّـحِّيِّ، فإن حماية الحياة الضَّـروريَّة على

المستوى الأخلاقي، وكذلك على المستوى القانوني، قد تبدو متناقضة مع منطق الحسابات النَّفعيَّة، ممَّا يعني أنه عند الموازنة بين الضَّرَر الاقتصادي أو الاجتماعي من جهة والوفيات التي يمكن تجنُّبها؛ يجب على السِّياسيِّيْن مقاومة إغراء الحسابات النَّفعيَّة". من جهة أخرى، يمكن أن نضيف إلى ملاحظات هابرماس أن احتمال تحوَّل حالة الطوارئ إلى قاعدة أمر، يهدِّد الأنظمة السِّياسيَّة الدِّيموقراطيَّة في العالَم، وهو ما يجعل من الحفاظ على الحياة الضَّروريَّة نوعاً من العبور إلى نُظُم استبدادية وتوتاليتارات تتَّخذ من حماية حياة الناس جسراً للهيمنة والسيطرة على الحياة السِّياسيَّة والاجتماعية لهؤلاء الناس. ولهذا يُنبِّه هابرماس إلى "أن تقييد عدد كبير من حقوق الحُرِّيَّة المهمَّة يجب أن يظلَّ مرتَّباً لمدَّة محدودة جدَّاً، ولكنه إجراء مطلوب كأولوية، للوصول إلى الحقِّ الأساسي في الحياة والسلامة الجسدية، وإن كان البعض قد يستغلُّه لغايات سياسية."

رغم التَّحوُّطات السابقة التي يذكرها هابرماس، وهو الفيلسوف اللَّامع الذي قدَّم نَقْداً لاذعاً للحداثة، فإنه ينتصر لمبدأ الحياة الضَّروريَّة، متجاوِزاً في ذلك كلاً من أغامبين وجيجيك، ويشدِّد على كون هذا الوضع، الذي تمرُّ به الإنسانية، في زمن انتشار كوفيد - ١٩، هو الاستثناء لا القاعدة. لكنْ، هل يتحقَّق بالفعل توقُّع هابرماس، أو أمله، أو رغبته، في عودة الإنسانية إلى ما كانت تعدُّه "طبيعياً" أم أننا نعبر إلى زمن، تكون فيه الإنسانية قد عادت القَهْقَرَى إلى عصور الاستبداد التي تُخنَق فيها الحُرِّيَّات، وتسود فيها الصراعات التي قد يُشعِلُها الجوع وفقدان الوظائف وازدياد التقاتل على الموارد، في عالَم تبدو فيه الدِّيموقراطيَّة مجرَّد قشرة خارجية، طوَّح بها وباءُ كورونا إلى عالَم النسيان؟

العبث بالطبيعة هو المشكلة

ومع ذلك، وبِغَضِّ النَّظَر عن الأسباب الفعلية لهذا الوضع الكارثي الذي نعيشه، فإن يد الإنسان التي عبثت بالطبيعة، واقتربت من الحدود التي تفصل عوالم الحيوانات البرِّيَّة عن عالَم الإنسان، والتدمير المستمرّ للبيئة، وزَحْزَحَة الحدود في النظام البيئي، والعبث غير المسؤول بالفيروسات والجراثيم، لتوفير أسلحة بيولوجية، يُدمِّر بها البشر بعضَهم بعضاً، هي أسباب، مباشرة، أو غير مباشرة، لما نعانيه اليوم. كما أدَّى التحديث والتمدين المستمرُّ، الذي يُدمِّر الطبيعة، واجتثاث الغابات، وتقريب بيئات الحيوانات البرِّيَّة من بعضها بعضاً، والاقتراب

غير الضَّروريِّ للإنسان من هذه البيئات، إلى انتقال الفيروسات، وغيرها من الكائنات الدقيقة الضَّارَّة، من حيوان إلى حيوان، ومن ثمَّ، من الحيوان إلى الإنسان. وهو الشيء الذي حَدَثَ بالفعل في حالة كوفيد١٩، وقبله في بعض سلالات الفيروسات التَّاجيَّة، لقد عبثْنا بالطبيعة، دمَّرْناها، وجُرْنا عليها، فجارت علينا. وسوف تشهد البشرية في السنوات والعقود المقبلة كوارث أخرى، تسبَّب بها جشع أهل الأرض، وعدم مراعاتهم لهذا الكوكب الصديق الذي يوفِّر لهم الهواء والغذاء والمتعة والجمال. سوف يذوب الجليد في القطبَيْن، ويرتفع منسوب المياه في البحار والمحيطات، فتُغمَرُ مُدُن كانت يوماً من الأيَّام منارات للحضارة والعمران، كما سترتفع حرارة الأرض، فيصبح العيش مستحيلاً، يوماً بعد يوم، على هذا الكوكب. لكن البشر، للأسف، لا يتَّعظون، ولا يردعُهم التهديد الأعظم الذي يمثِّله وباء قاتل، لا يُفرِّق بين غني وفقير، لا يهتمُّ بمعدَّلات التَّقدُّم أو الفوارق الطَّبقيَّة، أو الأعراق، أو الأديان، أو الأيديولوجيات. إنه يهدِّد الوجود نفسه، وينتشر، دون أن يلوي على شيء، سابحاً في الهواء الذي نتنفَّس، حاطَّاً على الأسطح ومقابض الأبواب، على ما نأكل ونشرب، على ملابسنا وأيدينا ووجوهنا. لكننا لا نريد أن نفهم. لا يريد الساسة النَّرجسيُّون، الرجال الجوف، أن يعودوا إلى رُشْدهم. ولا يريد التُّجَّار الجشعون أن يتمتَّعوا ببعض القناعة وقَدْر من الاكتفاء. لا يريد صانعو الأسلحة الفتَّاكة، والقنابل النَّوويَّة، أن يتوقَّفوا عن مَدِّ المتحاربين بما يُدمِّر البشر والعمران.

وكما يقول عالَم اللغة والمنظِّر السِّياسيُّ الأمربكي نعوم تشومسكي، فإن "المشهد الخسيس للدول التي تتقاتل، بدلاً من التعاون فيما بينها، لكي تهزم هذه النازلة العالَمية، يُلقي الضـوء على الحاجة إلى تفكيك هذه العولمة القائمة على الربح، وبناء عالَميَّة Internationalism، إذا أردنا أن نتجنَّب الانقراض. إن هذه الأزمة الكبرى توفِّر لنا فرصاً، لكي نحرِّر أنفسنا من القيود الأيديولوجية، ونتصوَّر عالَماً مختلفاً تماماً، ونتحرَّك قُدُمَاً من أجل صُنعه."

اعتلال عالَمي

نادية هناوي

مع سقوط أوهام العولمة والرَّأسماليَّة وقبلهما الآيديولوجيات الشّموليَّة، وبينهما زعامات التَّحرُّر الوطني الموهوم الدِّكتاتوريَّة، وبعدهما الانكماشـات الاقتصـادية الرهيبة، بدت الحضـارة المعاصـرة مطالَبة بالاعتراف بأنَّ تقدُّمها لم يكن سـوى برجٍ عاجيٍّ مزعوم، تعالت فيه على العالَم الذي كان يتوقَّع منها خيراً قبل جائحة كورونا، ولم يعد ينتظر منها أيَّ خيرٍ في أثناء هذه الجائحة وبعدها.

فالتَّقدُّم الصِّناعيُّ ألقى كلَّ ما لديه واستكان، والمنظومة المعرفية ما كانت يوماً في تحدٍّ مع نفسها وهي تواجه مَعْمَعَةَ، ما لم تؤسِّـس له بتأنٍّ، كما ظلَّت الفلسـفة تُنظِّر بعين واحدة تجريدية، ولم تُعنَ بتحويل تجريداتها إلى واقع ملموس، تفحصه مستخلصة ومستنتجة ما فيه خير البشرية ونعيمها الذي فيه تطمئنُّ الحياة إلى قِيَمِها، وتؤمن بممارساتها، وأنها سائرة في طريق التوازن الإنساني.

وقد تعرَّضـت البشـرية عَبر تاريخها الطويل للكثير من الأرزاء والمِحَن، وبعضـها كان طبيعياً، ليس للبشـر يدٌ فيه، كالأوبئة والزلازل والفيضـانات والأعاصـير، وبعضـها الآخر كان للبشـر فيه يدٌ طولى عابثة، كالحروب - صـغيرِها وكبيرِها، وبالأصـالة أو بالوكالة - والهجراتِ القَسـريَّةِ، والإباداتِ الجماعيةِ، والمعاداةِ العنصـريةِ، والتصـفياتِ العِرْقيَّة، وعسـكرةِ المجتمعات، والآفاتِ والمجاعاتِ الجماعية، والحصاراتِ والمقاطعاتِ الدّوليّة، وغيرِها.

والمعروف أن أيَّاً من تلك الأرزاء ما كانت أضرارها لِتُؤثِّر بشكل مباشر وفوري على مسار البشرية بالعموم، ولا أن تقود أبعادها إلى الانتقال بالبشـرية من مرحلة إلى أخرى إلَّا في شـكل تتابع تدريجي، وبمستويات ودرجات تتناسب وطبيعة الفعل الكارثي وآثاره. وعادة ما يأتي الانتقال والتَّأثُّر كردَّة فعل، تشابه الرزايا في القوَّة والطَّارئيَّة والأهمِّيَّة، وتعاكسها في ما سيترتَّب عليه المستقبل من نتيجة.

بيد أن فيروس كورونا تعدَّى مألوفية الدواهي بنوعَيْها الطَّبيعيِّ والصَّـنيعيِّ، وخرج عن سـياقات الكوارث في التأثير والحَثِّ والانتقال، لأنه أوَّلاً كارثة وبائية، فيها للبشـر يدٌ، كما للطبيعة ردَّةُ فعل انتقامية، وثانياً أنَّ ما أصـاب البشـرية جرَّاء هذا الفايروس كان سـريعاً، وغير متوقَّع بالمرَّة، لا في شمولية انتشاره في الكوكب كلِّه؛ بل في قدرته على نقل البشرية - دفعة واحدة، وبلا مقدّمات أو إنذارات - من مرحلتها الحالية إلى مرحلة فيها استنهض النظام العالَمي قدراتِهِ بوتيرة حازمة، وهو يشهد جائحة، لا تُبقي ولا تَذَرُ، مدركاً أنّ ما كان قد تحسب له مِن عدوٍّ وشيك بشري أو فضائي، نَووي أو كيمياوي أو جرثومي، قد ذهب أدراج الرياح. فعدوُّه ليس سوى كائن فيروسي مستجدّ اجتاح العالَم بطارئية حتَّى لم يدع مجالاً للنظام العالَمي لأن يتصدَّى له؛ بل إن النظام صار لا نظام، فعمَّت الفوضى العالَم، وتهالكت أمام وبائية كورونا أقوى الخطط، واعتى التمترسـات وأكبر الكارتلات ذات البرامج والاسـتراتيجيات المتقدِّمة، كما تلكَّأت أعنف البرمجيات، وأكثرها تطوُّراً، ولم يعد أمام البشـرية وقت كافٍ للتَّأمُّل والتفلسف.

وها هو الفايروس يتجوَّل بحُرِّيَّة، ويتنقل بسرعة مذهلة، والمستقبل مجهول، لا يُعرَف له قرار سوى أن هذا الفايروس وباء خطير، هو ليس شيئاً نووياً، يمكن فَهْمه، ولا هو آلة تِقْنِيَّة، تملك عقلاً، يمكن برمجته؛ بل هو داهية من دواهي الشَّرِّ.

وصحيح أنّ كورونا وباء ككلِّ الأوبئة التي عرفها البشر، تستهدف الأجساد مطيحة بقوَّتها، لكنه زاد عليها أنه جاء في زمان ليس كتلك الأزمنة التي فيها الوباء يضرب بقعة من بقاع الأرض مخلِّفاً دماراً، يقتصر ضَـرَرُهُ على حدود تلك البقعة التي أصابها، ليكون فيروس كورونا نفسه أعجوبة الزمان التي فاقت أعاجيب، حقَّقها الإنسان بطفرات علمية مَهولة، وإنجازات ما بعد صناعية مذهِلة، كانت في الأزمنة الماضية تُعدُّ من قبيل الخيال والفنتازيا.

لقد جاء الوباء الكوروني وللبشرية دراساتها المستقبلية وأنظمتها التي بها تُسيِّر عجلة الحياة، بدءاً بالأنظمة السِّياسيَّة، وأشكالها الإيديولوجية المختلفة، والأنظمة الاجتماعية بصُورها العولمية والاندماجية، والأنظمة الاقتصادية بشكلَيْها الرَّأسماليِّ والاشتراكي، وما ينضوي فيها من مسائل الإنتاج والاستهلاك والاتِّصال، مروراً
بالأنظمة الحربية واستراتيجياتها الدقيقة والسِّرِّيَّة، ثمَّ الأنظمة التَّربويَّة ومتعلِّقاتها المعرفية والأخلاقية، وانتهاء بالأنظمة الفكرية على تنوُّع منظوراتها الفلسفية. وبالرغم من كلِّ هذا التَّحسُّب والتدقيق والتنظيم؛ فإن فيروس كورونا خيَّب أُفق التَّوقُّع، ليكون هو المجهول الذي قد يتبعه مجهول أكبر.

فما من نظام من هذه الأنظمة يستطيع التَّكهُّن بمآل فيروس كورونا بنوعه كوفيد ١٩ المستجد أو حتَّى استباق خطره أو ردع كارثيَّته وفكّ شَفْرة مستجديَّته زمانياً ومكانياً أو التَّأهُّب لمقارعة ما قد يظهر من بعده من مستجدَّات فيروسية من فصيلته أو من غيرها.

إن وَخَامَةَ فيروس كورونا تمثَّلت في أنه باغت البشرية كلَّها مباغتة، أيقظتْها عن بكرة أبيها، وقد أدركت حقيقة غفلتها الكبرى التي هي عليها. وهذا ما أَرهَبَها وأَرعَبَها، وأثار ذُعرَها حتَّى وَجَدَت نفسها بين ليلة وضحاها مكتوفة الأيدي أمامه، فلا هي تستطيع درء خطره، ولا هي تقدر على الحَدِّ من تأثيره أو التَّكهُّن بصورة منطقية، بها تتمكَّن من إعلان نهايته، فأعلنت أعظمُ مخابرها ومعاملها عَجْزَها التَّامَّ، وإفلاسَها الكاملَ في ايجاد لَقَاح أو دواء مضادَّيْن له، لتذهب كلُّ جهودها وأبحاثها، وعلى مدى قرون تطوُّرها هباءً منثوراً.

وها هو الفايروس يصول ويجول مُنذِراً البشرية إنذاراً من الدرجة القصوى، مُتوعِّداً إيَّاها وعيداً، لا ريب فيه، فخطرُهُ حاصلٌ، وليس وشيكاً، والجَلَل الرهيب وَقَعَ وسيقع بلا تخصيص أو تمييز، وكأن لسان حال الفايروس يقول بفروسية العصور الوسطى: هذا أنا، فَمَنْ يُبارِزُ؟

فما السبيل الذي على البشرية أن تسير فيه والأنظمة العالَمية بقَضِّها وقَضِيْضِهَا تُسلِّم حالها لهذه الجائحة التي أخذت تنتزع الهيمنة، وتعلن السيطرة على مقدّرات تلك الأنظمة؟ هل تتنازل الرَّأسماليَّة الغربية عن نزعتها المتعالية للاستهلاك والاستغلال وغطرستها العمياء هي المحرِّك الأساس لها بشعارها الأثير(أن تملكَ أو لا تملكَ)؟

وكيف يكون الحال إذنْ، والفايروس يجتاح الاقتصاد العالَمي الذي ٩٠٪ من قوَّة العمل فيه موظَّفة في المنتجات التِّجاريَّة، وإنتاج السِّلَع الاستهلاكية في العالَم بعامَّة، والولايات المتَّحدة بخاصَّة، وقد تقلَّصت عمليات الشراء، وجُمِّدَت طاقة الإنفاق؟

وبأيِّ طريقة نكسب حربَنا مع فيروس كورونا، وأخلاقيات النظام الرَّأسماليِّ الشَّرِهَة والمفرِطة ما زالت على نزعتها الافتراسية في الاستهلاك والإنفاق؟ وبأيِّ الطُّرُق نواجه الوباء الجائح: أَ بالشَّرِّ أم بالخيرِ أم بكلَيْهما أم لا نُواجهُهُ بالمرَّة؟! أَ يمكنُ لنا أن نُحوِّل شرَّ كورونا خيراً، فيه نجاتنا، وقد وضعْنا

اليدَ على مواضع الخَلَل الوقائيِّ والقصور الصِّحِّيِّ؟ ما الوسائل الكفيلة بتقليص ضَرَر كورونا النَّفْسيِّ؟: أَ هي العاطفة التي بها نقصي العقلَ أم هو العقل الذي به نقصي العاطفة أم هي الأخلاق التي بها نقصي عنجهية العقل وفساد العاطفة؟

والأسئلة تَتْرَى، وما من أجوبة حقيقية بالإمكان تقديمها أو الإدلاء بها، فكورونا خَطَرٌ داهمٌ وكارثةٌ ليس لها من تسويغ منطقي سوى أن النظام العالَمي لم يكن نظاماً إنسانياً، وعولميته كانت وبالاً عليه، وقد أخفقت في أن تُعطي البشرية ما كانت تنتظره من نَفْع وهناء.

والمفارقة الصادمة هي الخَوَاءُ الرُّوحيُّ لهذا النظام الذي استَلَبَتْ العولمةُ منه أكثرَ ممَّا أعطتْهُ، وأضاعت عليه ما كان ينبغي أن تدَّخره، فغدت حياتُنا مادِّيَّة ومتناقضة، وهي ترتهن بصنمية تكنولوجيات وبرمجيات غير آبهة بصحَّة البشر العامَّة، ولا مُولية بالاً لنظام التغذية والنظافة، فصارت خسارة البشرية في صحَّتها هي نجاحها في تِقْنيَّاتها، وغدا تراجعها كامناً في تقدُّمها.

لقد أوصلت العولمة - بكلِّ ما تعنيه من انفتاح وتعايُش واندماج - البشريةَ إلى نفق مسدود، فيه البشرية مُبتلية باللَّايقين الذي هو خَوَاءٌ روحيٌّ، سببُهُ الأكاذيب السِّياسيَّة والألاعيب الدّوليَّة التي تمَّ تمريرها على مستوى عالٍ من البراعة والدهاء عبر ماكينة إعلامية عملاقة، تطرح عبارات رنَّانة طنَّانة، تعلن الخير في الظاهر، لكنها تُضمِرُ الشَّرَّ في الخفاء، كالحربِ على الإرهاب، والبحثِ عن بدائل موارد صديقة للبيئة، ونزع الأسلحة النَّوويَّة، ومكافحة الجريمة المنظَّمة، وغير ذلك كثير.

ومن أسباب اللَّايقين الرُّوحيِّ أيضاً برودة الضمير العالَمي وهو يهادِن ويطاوِع - بكلِّ هدوء، ومن دون أن يحرّك ساكناً - الفظائع اللَّاإنسانية، كالحروب الأهلية والإبادات الجماعية والهجرات القَسْرِيَّة ومخيَّمات الإيواء والنزوح اللَّاإنسانية.

ومن اللَّايقين الرُّوحيِّ أيضاً العُزلة التي وَجَدَ الفردُ نفسَه مُجبَراً على الرضوخ لها. والسبب التَّقدُّم المذهِل في مجالات الذكاء الصِّناعيِّ كأنظمة المراقبة المتطوِّرة، وأساليب التعايش الكُوْسْمُوبُوْلِيْتِيَّة، وأجهزة التواصل السِّبْرَانِيَّة اللَّوحيَّة والجوَّالة.

كورونا: مأزق فكري

لا غرو أن الحروب اليوم ما عادت كما كانت في القرن العشرين كونية، تُجرى على طريقة التدمير الغَيْرِيِّ؛ بل صارت الحروب اليوم إلكترونية، تُدار عن بُعْد، وهو ما يجعل أمر التدمير الذَّاتيِّ وشيكاً، وكنتيجة حَتْمِيَّة لغطرسة العقل البشري.

وكلَّما تقدَّمت عسكرة البحث العلمي جفَّت مصادر الخير، ونضبت دعائم النّماء، وغاب السلام، وحَلَّت الوحشية محلَّه. والبشرية في ذلك كلِّه هي التي تدفع ضريبة العلم المادِّيِّ الذي تعرَّض بسبب ظهور فيروس كورونا إلى تسونامي، عَرَّى حقيقة إنجازاته، وأكَّد أن لكلِّ شرٍّ عقاباً، وأن على قَدْر الشَّرِّ يأتي العقاب، وأن الطبيعة تصبر على شرور ابنها الإنسان الذي بتَعَوْلِمِهِ ازداد غَيُّهُ حتَّى طَفَحَ الكيل. وها هي الطبيعة تردُّ لابنها الصاعَ صاعَيْن، من خلال كائن لا مَرئيٍّ، ولا مبرمج؛ بل هو مستجدٌّ، لا أوَّل يُعرَف له، ولا آخرَ وهو يهاجم الأجساد ناخراً أهمَّ جهاز حيوي فيها، هو تنفُّسها، غير مُعطٍ مهلةً لصُنع عقار أو إنتاج مَصْلٍ أو ترياق.

وإذ غدا الفايروس المستجدّ ينافس العولمة في هيمنتها السِّياسيَّة والاقتصادية، فلأنه صار نِدّاً، وقد أجهز لا على أهمِّ مصدر من مصادر قوَّة العولمة وهو النفط؛ بل جعل الفكر الفلسفي يُخفِقُ في استكناهِ مآزق تبعاته.

وها هي البشريةُ تُعلن نَدَمَهَا، وقد صحا أمام هذا الوباء المستعصي الحلّ ضميرُها البارد متعباً وتعيساً باحثاً عن حلول. وأنَّى للبشرية أن تجدَ الحلَّ، وهي تُشهر إفلاسَهَا الفكريَّ، وقد قُرِعَت أجراس الخطر

في عُقر دُولها المتقدِّمة والرَّأسـمـاليَّة، لا سـيَّما الولايات المتَّحدة الأمريكية التي هي أقوى حضـارة اسـتهلاكية في العالَم، وعنها قال الرِّوائيُّ الفرنسـي رومان غاري: "ليس باسـتطاعة الأمريكيِّيْن أن يتحمَّلوا فكرة وجود مشـكلة بدون حَلٍّ". وهذا الطبعُ المعتدُّ بنفسـه هو الذي أدَّى ويؤدِّي إلى نزاعات مستترة حول السِّلَع المادِّيَّة وما يلحقها من الإعلانات والدعايات والتقسيط.

وما عاد الحنين لفكر اشتراكي مستحيلاً، وقد أعلنت نزعة التَّمـلُّك إخفاقها بعد أن فاتَها الأوان، وما عاد الإنسـان وحدَهُ هو القوَّة المركزية في الكون التي حولها يدور كلُّ شـيء. إذ بسـبب هذه الأنانية دمَّر الإنسانُ الكائناتِ التي وقفت في وجه هيمنته، فمحى الغابات، وبنى ناطحات السحاب بدلها، وقضى على أنواع كاملة من الحشرات، لا لشيء سوى لأن لها هبَّات موسمية، تأتي بأسرابها، فتُزعجه، كما تَلاعب في جينات كائنات من ذوات الفِراء أو الريش أو الزعانف أو المخالب أو الفطريات أو وحيدات الخلية أو بلا خلية، لمجرَّد إشباع فضوله وتوكيد هيمنته، وهو الذي لوَّث بنفاياته النَّوويَّة بيئاتٍ بكاملها، وأفقر مساحات هائلة خضراء، وجفَّف مسطَّحات شاسعة من المياه.

وما درى أنه بهذه الغطرسـة الفكرية سـيقع في مأزق عقلي مُنهِياً وجوده بيده مدمِّراً الطبيعة وملوِّثاً الكون، ومحنِّطاً الجسـد، لتكون العولمة صـورة للإنسـان نفسـه الذي أضـاع البراءة، فنضـبت روحه، وتشوَّهت حياته باللَّااعتدال واللَّااتِّزان والتدمير.

ولعلَّ جائحة كورونا أثبتت أن أفعال البشر الشِّرِّيرة الجامحة ستنتهي بهم إلى انقراضٍ جماعيٍّ، وليس شـرطاً أنْ تكون عواقبُ الانقراض مادِّيَّة، إذ يمكن أن يكون الانقراض معنوياً متمثِّلاً في تلوُّث الفكر، ونوم الضمير، ومجاعة الروح، وسوء الأخلاق، وانعدام الإحساس بالمسؤولية تجاه ما نريد استهلاكه وامتلاكه أو السيطرة عليه.

ولعلَّ الوقت حان ليخفض البشـر اسـتهلاكَهُم، ويُقلِّلوا من نزعة التعالي الطَّبقيِّ والمصـلحي فيما بينهم رافضـين التَّلوُّث والتدمير، ومتشـاركين الوجود مع سـائر الكائنات الأخرى، متخلِّين عن مركزيَّتهم، ومُشمِّرين سواعدَهم في سبيل تعايش، يشعر فيه الجميع بشراً ونباتاتٍ وحيواناتٍ وحشراتٍ وكائناتٍ مجهريةً وما بعد مجهريةٍ بالسلام على الأرض، فتستعيد الطبيعة حيويَّتها، ويتجانس العيش ويتَّزن على هذا الكوكب، ويكون حقُّ الحياة مكفولاً لكلِّ كائن حَيٍّ مهما صغر.

وقد صوَّر بورخس في قصَّة "الخرائب الدَّائريَّة"، بحسٍّ فنتازيٍّ كبير، هذا الخطأ الذي بسببه يقع البشر ضحية كوارث، لكن سماحة الطبيعة وحنوَها على الإنسان الخطَّاء هي وحدَها التي تشفع له، ومن ذلك هذا المقطع "في روايات خَلْق الكون الغنوصية تصـوَّر صـانعو العالَم آدمَ أحمرَ، لا يستطيع النهوض، أخرقَ الشكل، ناقصَ التكوين مثل هذا الآدم الغباري .. أوشك الرجل أن يُدمِّر كامل العمل الذي صنعتْهُ يداه، لكنه غيَّر رأيه، وكان الأفضـل لو أنه دمَّره .. وتعلَّم خفايا الكون وأسـرار النار، وحين رأى النار تُدمِّر كلَّ شـيء، فكَّر بالالتجاء إلى الماء، لكنه أدرك حينئذ أن الموت سـيُتوِّج شـيخوخته، ويعفيه من أعبائه، فمشى نحو خرق اللهب المشتعل، لكنها لم تنهش لحمه؛ بل ربَّتت عليه، وغمرتْهُ دون حرارة أو إحراق. بارتياح، بخزي، برعب، أدرك أنه أيضـاً كان وهماً، يحلم به إنسـان آخر" (قصـص، خورخي لويس بورخس، ترجمة سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات العربية المتَّحدة، ط١، ٢٠١٣، ص٦٧ - ٧٠).

إن المجتمع الإنساني اليوم أمام مأزق فكري أكثر منه سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي، فبالأمس كان انهيار الفكر الشُّيُوعيِّ الشُّمُوليِّ سبباً في السجود للفكر الرَّأسماليِّ المتوحِّش الذي أصبح بدوره يخنق حاجات الفرد بالاستهلاك والرقابة الآلية ووسـائل الاتِّصـال والتكنولوجيا، بحُجَّة زيادة رَفاهيَة المجتمع بينما هي تُكبِّل الفرد، وتمنعُهُ من أن يتمتَّع بالحُرِّيَّة في معارضة الوَضْع القائم. وغدت الرَّأسماليَّة حوتاً،

يبتلع الإنســـان، ويســـتلبه بفرضـــية الاســـتهلاك والإنفاق، وببُعْد واحد، ووعي زائف يلبِّي عقلانيَّتها اللَّاعقلانية.
وراح المفكِّرون يتحدَّثون عن بدائل لهذا الوحش الرَّأسماليِّ الذي جَعَلَ المجتمع الصناعي كهلاً، وغدت منجزاته عقيمة ومنغلقة، ومن ذلك ما تحدَّث به ماركوز عن تهدئة الوجود التي تعني "أن الحاجات والرغبات والصبوات لم تعد مُسيَّرة من قبَل المصالح الخاصَّة الرامية إلى السيطرة، وإلى تأييد الأشكال المدمِّرة من كفاح الإنســان ضــدَّ الطبيعة" (الإنســان ذو البُعْد الواحد، هربرت ماركوز، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، ط٣، ١٩٨٨، ص٥٢).
وتحدَّث سلافوي جيجك عن روح جديدة للرَّأسماليَّة، سمَّاها الرَّأسماليَّة الثَّقافيَّة فيها "الخوف من الآخر هو الوجه الآخر لتعاطفنا مع الآخر الزميل" (بداية كمأسـاة، وأخرى كمهزلة، سـلافوي جيجك، ترجمة أماني لازار، طوى للثقافة والنشـــر والإعلام، لندن، ط١، ٢٠١٥، ص٨٢)، وقبلهما كان المنطق الماركسي يؤمن بالضرورة التَّاريخيَّة التي فيها كونية الفلسفة هي كونية بروليتارية.
ولطه حسين وقفةٌ رائعةٌ، فيها يصف النخبة التي لها الأولوية وصاحبة الامتياز والمتنعِّمة على حساب الأغلبية وصـفاً ينطبق بالفعل على الفكر الرَّأسـماليِّ الذي انشـغل "بيُسْـرِهِ عن عُسْـر الناس من حوله .. مشـــغولاً بِتَرَفِهِ عن شَـــظَفِ الناس .. مُثقَلاً بالغِنى، فلا يعنيه أن يثقل الناس بالفقر. كان نَظَرُهُ قصـــيراً كأدنى ما يكون القِصَـرُ، وكانت يده طويلة، كأبعد ما يكون الطول، كان يشـتهي، فيبلغ ما يشـتهي حتَّى سَئِمَ شهواته. وكان يريد فيبلغ ما يريد حتَّى مَلَّ إرادته. وكان قلبه قد قسا، فهو كالحجارة أو أشدّ قسوة .. وكان عقله قد حُجِبَ عمَّا حوله أو حَجَبَ عنه ما حوله، فهو لا يرى ما كان يملأ البيئة التي يعيش فيها من النذر .. الفريق من البائسين المعذَّبين .. لا يحسُّهم إلَّا أن يحتاج إليهم، وهو إذا احتاج إليهم لم يرفقْ بهم، ولم يعطفْ عليهم" (المعذَّبون في الأرض، طه حسين، مؤسَّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص٨- ٩).
وقد تســاءل ماركوز عن أســباب الخوف من فقدان امتيازات القضـــاء على القوَّة الكلاســيكية للثورة الاشـــتراكية المتمثِّلة بالطبقة العاملة، وكيف أن الرَّأســـماليَّة تبني مركزيَّتها على وجود البروليتاريا الصِّـناعيَّة، مؤكِّداً أنّ الثورة في البلدان الصِّـناعيَّة المتقدِّمة لم تقم، لأن المجتمعات الصِّـناعيَّة مجتمعات لاعقلانيـة، وتطوُّرهـا لا يؤدِّي إلَّا إلى أُحـاديَّتهـا. ومن ثمَّ يغـدو التعـارض الظـاهر بين الدِّكتـاتوريَّـة والدِّيمقراطيَّة واهياً ومجرَّداً، والقَصْد منه امتصاص المعارضة الحقيقية.
ويقترح ماركوز الثقافة، لتكون هي البُعْد الثاني الذي ينبغي أن يُحرِّرَ الإنسان، ويجعلَهُ غاية لها، بعكس التكنولوجيا التي تستبعد الإنسان وتشيُّؤه.
وهو ما نحتاجه اليوم مع النَّقْد الموجَّه للفكر الرَّأسـماليِّ وهو يواجه الفوضـى، وقد دلَّل على إخفاقه في مواجهة الجائحة الكورونية، وما سبَّبتْهُ من كارثة صحِّيَّة عالَمية خطيرة.
وتخدُّر الفكر هو الذي يجعل المجتمع بلا معارضة مُعطِياً الحقَّ للرَّأسماليَّة أن تتسلَّط وتهيمن، ولقد شبَّه ماركوز هول هذا الخدر بالكارثة للذَّرِّيَّة، فقال: "إذا كانت البشـــرية مهدَّدة بالإبادة بفعل كارثة ذرِّيَّة، أَ فليس هذا الخطر هو نفسه الذي يُبقِي على القوى التي تُسلِّط سيفَها على الإنسانية؟" (الإنسـان ذو البُعْد الواحد، ص٢٥).
إن التفكير الواعي هو الذي يعارض من أجل حياة، يجب أن تُعاشَ بســـلام وأمان، والمجتمع الواعي مجتمع حُرٌّ، وهو يقف إزاء أيِّ خطر أو أيَّة كارثة موقفاً، ليس فيه امتثال أو تراخٍ. وقد فرَّق إيمانوئيل كَانْت بين الامتثال والتفكير، من دون أن يرفضَ أحدَهما، ذلك أن التفكير هو أن تمتثل وتفكِّر معاً.

وإذا كان ما يُرسِّــخه المجتمع الصِّــناعيُّ يحرم الفكر من ممارســة دوره، بســبب قوى هذا المجتمع البرجوازية والبروليتارية؛ فإن تقدُّمها التِّقْنِيَّ لن يرسيَ له دعائم نظام كامل من السيطرة والتنسيق. وهو ما تأكَّد مع جائحة كورونا، فبان زيف الفكر وأُحاديَّته على مستوى النَّظريَّة والممارسة والقِيَم، فــــ " فَقَدَتِ النَّظريَّةُ النَّقْدِيَّةُ قُدرتَها على أن تُبرِّرَ بعقلانية ضــــرورةَ تجاوُز هذا المجتمع لواقعه الأُحاديِّ" (يُنظَر: الإنسان ذو البُعْد الواحد، ص٢٨ - ٣٠).

وممَّا أبانتْهُ المرحلة الكورونية الراهنة أنّ البشرية لم تعد تستطيع الحديث عن حياد التكنولوجيا أو عن عزلتها بعد أن فرضت نفسها، وصار الإنسان متأرجحاً بين فرضيَّتَيْن متناقضَتَيْن: إمَّا أن يمنع المجتمعُ الصِّناعيُّ المتقدِّمُ أيَّ تحوُّلٍ نوعي في المستقبل، وإمَّا أن هناك قوى وميولاً ستساعد على التجاوز وعلى تفجير المجتمع. وبالمقابل لا يمكن فرض العقل على المجتمع بأســــره، على حَدِّ تعبير ماركوز. (يُنظَر: الإنسان ذو البُعْد الواحد، ص٣١-٤٣).

ومن دلائل هذا المأزق الفكري في ظلِّ العولمة الرَّأسماليَّة أن لبست التكنولوجيا رداء سياسياً ذا طابع استبدادي وتعبئة قاهرة، فأصبح العقل نظاماً سكونياً ونمطاً فاشياً، حركتُهُ حبيسة سياسات اضطهادية، وعقلانيَّته هي اللَّاعقلانية، وغدت قيمة الإنسان في المجتمع الرَّأسماليِّ مهدورة بالآلية والتَّشيُّؤ.

وشناعة الفكر هي في ما يُسوِّغه للبشر، وفيه دمارُهُم كالصواريخ العابرة للقارَّات والقذائف الموجَّهة برؤوس نَوويَّة، وغوَّاصات وحاملات طائرات ذات مفاعلات ذرِّيَّة.

بينما ديناميةُ الفكر تعني تحرُّره من قيود أيِّ نظام، حتَّى إذا واجه حَدَثَاً كارثياً، كان خياله حُرَّاً في إيجاد السُّبُل الكفيلة بحَلِّه مقتنعاً أن أيَّ "حَدَثٍ كارثيٍّ مكتوبٍ في المستقبل، لكنْ، أيضاً كحادثٍ محتمَل" (بداية كمأساة، وأخرى كمهزلة، ص٢٢٧).

فالخيال نمط من أنماط التَّفكُّر التي بها يســتطيع العقل حَلَّ ما لا يســتطيع أن يحلَّهُ، وعلى وفق قانون الصدفة والضرورة. (قانون الصدفة والضرورة أحد قوانين نَظَرِيَّة الفوضى أو الكايوس، يُنظَر: نَظَرِيَّة الفوضــــى علم اللَّامتوقَّع، جايمس غليك، ترجمة أحمد مغربي، دار الســــاقي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨) وجوهر الفكر هذيان أو خيال أو فنتازيا، كما يذهب الفيلســـوف التَّنويريُّ ديفيد هيوم. وبالخيال يُعبِّر عن الجانب العقلي للواقع ممَّا يُوظَّف في الروايات والمســـرحيات، حيثُ "تســتمرُّ فيه لغة العلم الطَّبيعيِّ أو أجزاء منها على الأقلِّ في الاستعمال، لكنْ، في حالة من الفوضى الخطيرة المهلِكَة" (بعد الفضيلة بحث في النَّظريَّة الأخلاقية، الســـدير ما كنتاير، ترجمة حيدر حاجّ إســــماعيل، المنظَّمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١٣، ص٣٥).

وصحيح أن البشرية واجهت كوارث مخيفة، كانت فيها الأجساد هي المستهدَفَة، كإعصار كاترينا الذي ضَرَبَ مدينة أورلينز، على حين غفلة مُخلِّفاً الخوف واليأس في نفوس السُّكَّان، وقد تحوَّل كلُّ شيء إلى واقع أكيد، أو الحروب الذَّرِّيَّة والمتروبوليات الكبرى ومعســـكرات الإبادة والتعذيب والمقابر الجماعية والأجندات

الإعلامية الضــخمة التي هي ممارســات، أفرطت في التَّعقُّل، وأســرفت في الفلســفة، وتناقضــت في الممارســات، فكان فيها أسياد وعبيد وبنى فوقية وبنى تحتية، وصــارت الفلسـفة ذات لغة مغايرة، وهي تعيش في أبراج عاجية بينما العوامُّ لا يرون فيه منفعة أو إنتاجاً حتَّى إن الأمريكيِّيْن بلهجتهم الدارجة يُسَمُّون المفكِّر والمثقَّف رأسَ البيضــة، كنوع من التَّهكُّم من اســتعلائية الفكر وانعزالية الفلســفة. بيد أن خطر فيروس كورونا يتعدَّى ضَــرَرَ ما تقدَّم أضــعافاً مضــاعفة، كونه فيروســاً شــمولياً وديمقراطياً، لا يعرف تمييزاً ولا تفريقاً، يتحدَّى العقل، ويصنع الاحتمال والخيال والمعقول والواقع.

وطبيعي في هكذا مجتمع أن يكون الفرد منوَّماً مغناطيسـياً، تخدعه المفردات المبرقَعة والمنمَّقة التي تشـيع في نفسـه الاطمئنان، لكنها تخلق مزيداً من التناقض والألم والقلق مثل(القنبلة النظيفة، والحرب الباردة، والثورة البرتقالية)، فلا نُميِّز الخير من الشَّرِّ، ولا الصواب من الخطأ.
ونومُ الفكر وتعالي الفلسـفة وجهان لعُملة واحدة، هي الحضـارة التي هي في علميَّتها متقدِّمة، لكنها في أخلاقيَّاتها متخلِّفة، فما زال الفرد فيها خاضـعاً لنظام سـلطوي، فيه الفكر أُحاديٌّ، ببُعْد واحد، لا يعرف شـكوى ولا معارَضـة، وبعقل سـلبيٍّ محبَط، تختصـره مقولة: (إن الواقعي معقول)، والمعقول بحسـب ماركوز هو السـلطة الهدَّامة التي تجمع بين العالَم الذَّاتيَّ والعالَم الموضـوعيَّ (يُنظَر: الإنسـان ذو البُعْد الواحد، ص١٦٣).
ولن يتمكَّن العقل من التعاطي مع تبعات الفايروس المستجدِّ، ما لم تكن ممارساته ذات أبعاد، لا ينفصل فيها المادِّيُّ عن الرُّوحيِّ، كمسـعى فكري، يريد التَّخلِّي عن التَّبعيَّة والتعالي والمثالية، ويكترث للوجود الإنساني بدينامية تعايشية، لا تدميرية.
وانتصـار العقل يعني أن الفكر أدَّى دوره المطلوب منه، لا في هزيمة كورونا معنوياً حسـب؛ بل في التَّخلُّص بإيجابية من تعاليه كعقل محض.
والمجتمع المفكِّر بإيجابية مجتمع مسـالم وحُرٌّ ومتوازن، لا تسـتطيع أيَّة جائحة أو داهية أن ترهبَهُ بينما المجتمع الذي يعجز أن يجعل الفكر صفته سيُخفقُ في حماية الفرد حتَّى لو كان داخل جدران أربعة، كما لن يكون بإمكانه أن يزعم أنه يحترم الفرد، وأنه، في الوقت نفسه، مجتمعٌ حُرٌّ. (يُنظَر: الإنسان ذو البُعْد الواحد، ص٢٥٥).
ولو ارتهن رفاهُ المجتمع بالفكر الحُرِّ، وليس بالعقل المحض لَمَا شَـهِدَ عالَمُنا كابوسـاً مرعباً مثل كورونا، ولَتَجَاوَزْنا خطرَ الأسـلحة النَّوويَّة والإشـعاعات الذَّرِّيَّة، ولَحَمَيْنَا بيئَتَنا من مخاطرها، وبكلِّ ما فيها من أحياء وجوامد.
كورونا: إفلاس أخلاقي
أوجبت الفلسـفات العقلية كفلسـفة سـان سيمون وأوجست كونت ودوركايم أن تكون الأخلاق دريئة، بها يصنع المجتمعُ وجودَهُ. والأخلاق منذُ أرسطو وهي تجعل مصلحة المجتمع فوق كلِّ مصلحة. والأخلاق لا تسـتند إلى الدِّيْن وحده، وإنما هي ترتكز عليه، وعلى بُعْد منطقيٍّ آخر، يتمثَّل في أفكار ومبادئ إنسـانية، يتواضـع الأفراد على اتِّباعها، والالتزام بها سـواء في علاقتهم بعضـهم ببعض أو في علاقتهم بالدولة.
والمجتمع الذي يعاني مشكلة أخلاقيةٍ ما هو مجتمعٌ غَزَاهُ الانحطاط، فصـار الإنسـان عدوَّاً لبني جنسه، مدمِّراً الطبيعة بعقلانية تكنولوجية وتعالٍ ثقافي. وكلُّ ما يقال في هكذا مجتمع عن حقوق الإنسان وسيادة الفرد والحُرِّيَّة والدِّيمقراطيَّة هو مجرَّد دعاية وترويح عن النفس وأكاذيب، تُدلِّل على انحطاط العصـر وضياع حقيقته.
وقد أشار نيتشه وماركوز إلى أنواع من الضمائر، فهناك الضمير التعيس والضمير المتعب والضمير السعيد، وهذا الأخير هَشٌّ إلى حَدٍّ كبير "ولا يعدو أن يكون أكثرَ من قشرة رقيقة ملصوقة على الخوف والتعاسـة والاشمئزاز" (الإنسـان ذو البُعْد الواحد، ص١١٣)، وأنواع الضمائر هذه تشيع في مجتمعاتنا التي جعلتْها العولمة تشـهد إفلاسـاً أخلاقياً، والحياة فيها لعبة بيد الكبار، وما من شـعور بالذنب والإثم والجريمة، وذلك بوَصْف
الأخلاق مسألة شخصية، وليست عامَّة.

وإذا كان هذا الحالُ عامًّاً، يشـــمل الدول المتقدِّمة منها والفقيرة، فإن ما فرضـــتْهُ كورونا على هذه المجتمعات من حَجْر منزليٍّ وحَظْر صـــحّيٍّ، جَعَلَهَا تُدرك أنها كانت مخطئة حين أهملت منظومتها الأخلاقية، وتركتْها من دون توجيه أو اهتمام.
هكذا أظهر فايروس كورونا ما عليه عالَمنا التِّكنولوجيِّ من إفلاس أخلاقي، وغدت الأخلاق مشـــكلة كامنة في وســـائل التشـــريعات والاختراعات الكبرى. ومن ثمَّ تنقلب مشـــكلة العلاقات بين الطبيعة والمجتمع رأساً على عقب (التَّجريبيَّة والذَّاتيَّة بحثٌ في الطبيعة البشرية وَفْقَاً لهيوم، جيل دولوز، ترجمة أسامة الحاجّ، المؤسَّسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص٤٥)، وتغدو المؤسَّسات هي المتحكِّمة في الأخلاق، فتغيب الأخلاق الحقيقية، وتحلُّ محلَّها أخلاقٌ مختزَعةٌ بشروط اصطناعية موضوعة ومُفَبْرَكَة.
ولعلَّ هذا الذي أظهرَهُ لنا الفايروس المستجدُّ هو حَسَنَةٌ من حَسَنَاتِهِ التي تجعلُنا ندرك أن العولمة هي التي زرعت الهَلَعَ في النفوس، وجعلت الخوف جزءاً من السلوك العامِّ حتَّى إذا جاءت كورونا، أضافت للخوف النَّفْسيِّ خوفاً آخر، فيه الهواء هو العدوُّ الذي يتوحَّد الإنسان بالشَّرِّ المستطير.
وليس مثل التَّمسُّك بالأخلاق مَنْجَاة من عَمَى الضمير الذي حَكَمَ العالَم ببيرقراطية، فانتزع من الإنسان إنســـانيَّته، وشَـــيْطَنَ أفعالَهُ، وبرَّر له نتائجها الجهنَّميَّة بلا يقين روحي، ولا نظام أخلاقي؛ بل هي مادِّيَّة مقيتة، جعلت الحياة مهدَّدة على الدوام، والنفوس قلقة ومنهزمة، والخطر يُحدِق بالجميع، بلا استثناء.
والخوف الذي وَصَفَهُ باومان بالسائل هو الرعب من الإقصاء، وما دامت الحياة متشعِّبة بأشكال الموت المجازي، فهي حياة من الشَّكِّ الدائم والاحتراس الصارم، فلا يمكن التَّنبُّؤ بمصدر الضربة، ولا بالطرف الذي يبادر بها (يُنظَر: الخوف الســـائل، زيجمونت باومان، ترجمة حجَّاج أبو جبر، الشـــبكة العربية للأبحاث والنشـــر، بيروت، ط١، ٢٠١٧، ص٧٦)؛ بيد أن الخوف الكوروني لم يعد ســـائلاً أنه خوف هوائي، كتبعة من تبعات انهيار المنظومة الأخلاقية التي بسببها صار العالَم المتحضِّر هشَّاً والحضارة مزيَّفة بأخلاق وَهْميَّة، خطرها يضاهي خطر فيروس كورونا نفسه.
ويبدو أن شعور أغلب الفلاسفة المعاصرين بوجود أمر خطير ومريع، سيهدِّد البشرية في مستقبلها، سببه هذا التَّوجُّس من تهالك المنظومة الأخلاقية وتراجعها روحياً ونَفْسياً وإنسانياً، يقول باومان: "لا أســـتطيع التَّخلُّص من الشـــعور بأننا ســـنواجه مزيداً من تلك المخاطر كلَّما توغَّلْنا في القرن الحادي والعشرين" (الخوف السائل، ص٤٠)، وهذا التَّوجُّس مشابه للخوف (الغريزي) الذي تملَّك الإنســـان الأوَّل من مخاطر الطبيعة المجهولة.
ولم يعد الإنسان في ظلِّ الحضارة المادِّيَّة يأبه أخلاقياً وهو يصنع اختراعات مُدمِّرة، ويُجري تجارب مهلِكَة، من دون أن يفكِّر بمسؤولية عمَّا يُسبِّبه عملُهُ اللَّاخلاقيُّ هذا من نتائج مميتة، كتسرُّب إشعاع نووي هنا أو وقوع سلاح جرثومي بيد إرهابي هناك أو السطو المبرمج على شَفْرة سِرّيَّة لبرنامج مصرفي أو منظومة أمنية أو ظهور أناس سمَّاهم تودوروف البرابرة المتوحِّشين "أناساً غير متحضِّرين يتجاوزون القوانين أو آكلي لحوم البشر .. الذين يقيمون قطيعة فعلية بينهم وبين سائر البشر" (الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات، تزفيتان تودوروف، ترجمة جان ماجد حبور، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات العربية المتَّحدة، ط١، ٢٠٠٩، ص٢١).
وهكذا حضارة يحكمها أناس نزعوا عنهم الأخلاق هي أضعف من أن تُقاوِم كائناً ضئيلاً يُهدِّدها في شكل جائحة، تُداهِمها فجأة. وهناك شواهد عملية على ذلك في مواقع عدَّة من عالَمنا، وبأشكال وصيغ وكيانات مختلفة.

إن حضـارتنا المادِّيَّة اليوم كسفينة تيتانيك، دفعها غرور الإنسان ومغالاته إلى أن تكترث وتتحسَّب لكلِّ جانب وأيِّ طارئ إلَّا جانب الأخلاق، وكيفية المحافظة على سلامة الإنسان فيها عند الطوارئ، فكانت النهاية شـنيعة، وقد غرقت أجسـاد الصـغار والكبار، وتعذَّبت أرواح الغرقى والناجين معاً، وصـارت الخسائر تاريخية قبل
أن تكون بشرية ومادِّيَّة.

مصير تيتانيك هو مصير البشرية التي أفلست روحياً وهي تتقدَّم مادِّيّاً، غير مذعنة لنداء الأخلاق، حتَّى إذا هاجمتْها جائحة كورونا بشـكل طارئ وغير متوقَّع غدا حالها هشّـاً، وقد فقدت السـيطرة والتَّحكُّم، وانفلتت قبضة هيمنتها، مُعلِنة عَجْزها أمام كائن ما بعد مجهري، لم تُسعِفْها ترسانتها الصِّناعيَّة الباذخة، كما لم تُغنْها إيديولوجياتها الشُّموليَّة واللِّيبراليَّة، ولا دساتيرها الوَضْعِيَّة على مجابهته.

وها هي اليوم حضـارتنا التي بلغت أوج ازدهارها تتنازل عن عليائها، وتُجبر أفراد مجتمعاتها على وَضْع الكِمَامات والقفَّازات، وتُلزِم الأنفار بالتباعد الاجتماعي، وتنصحهم بالحَجْر المنزلي، وهي تعلم أن تنفيذ الأوامر والاسـتجابة للتعليمات هي أخلاقيات، يتعلَّمها الأفراد منذُ صِـغَرِهم، وسـلوكيات يتربّون عليها، وقبل ذلك هي فطرة في دواخلهم، تسـتسـيغها نفوسـهم، لا خوفاً ولا طمعاً ولا خنوعاً، وإنما حُبّاً إنسانياً، وحَلّاً إصلاحياً، فيه تغدو حياة الناس مَصونة ومهابة غير مهدورة ولا مملوكة.

وبالأخلاق لن نترك مخاوفنا تسـتحوذ علينا؛ بل الأخلاق سـتسـتحوذ علينا، فنخاف التفريط بها، وبالأخلاق ينبغي أن تُحاكِم الحضـارةُ المادِّيَّةُ نفسَـها، معترفةً بجسـامة ما ارتكبتْهُ من أخطاء، أودت بالبشـرية إلى التهلكة مراراً، وسـتودي بها مجدَّداً للتهلكة، ما لم تكن المنظومة الأخلاقية هي صـمَّام الأمان في مرحلتنا الكورونية العصيبة.

وهذا الحُكْم الأخلاقي، وإن بدا قاسـياً، فإنه عقاب عادل، فكورونا التي لا ترياق لها، ولا مصـل يحول دون الإصابة بها، جعلت البشرية تستفيق على حقيقة أن الحياة هي الأخلاق، ونهايتها مرهونة في انهيار أخلاقيات التعايش فيها، أو كما يقول سـلافوي جيجك: "إن زمن الابتزاز الأخلاقي لِلِيبراليَّة الدِّيمقراطيَّة قد انتهى، ولم يعد علينا الاسـتمرار بالاعتذار، في حين يتوجَّب على الجانب الآخر البدء عاجلاً" (بداية كمأساة، وأخرى كمهزلة، ص١٥).

ووَضْـعُ الأخلاق في كفَّة، والعمل في كفَّة أخرى هو الذي يضـمن للإنسـان العيش الرغيد، ويُبعِد عنه شـرور الجوائح والدواهي وكوابيس الذعر والقَهْر والخوف والاسـتلاب والموت المجَّانيّ والمجازي بلا تأنيب ضمير أو شعور بخسارة أو انكماش أو استعباد.

فهل تذعن حضـارتنا لذلك، وتكون مرحلة ما بعد كورونا مرحلة فيها تنتقل البشرية من عالَم مادِّيٍّ إلى عالَم جديد روحيٍّ ومادِّيٍّ وأخلاقيٍّ وعلميٍّ حقيقيٍّ وديمقراطيٍّ مختلفٍ وتعدُّديٍّ؟!

لا ريب أنّ إجابة هذا السؤال تتوقَّف على البشرية نفسها، وقدرتها على الإفادة من تجاربها، وقد تعلَّمت الدرس الأخلاقي جيِّداً.

لهم عَولَمَتُهُم ولنا عَولَمَتُنا

محمَّد آيت ميهوب

"كلُّ تعاسة البشر تنبع من أمر واحد
هو عَجْزهم عن البقاء بسلام في حجرة مغلَقة"

الآن وقد استوعبت البشرية الصدمة الأولى، واستقرَّ لديها أن فيروس كورونا هو أكثر من فيروس مثلما أن كلَّ وباء في التاريخ هو أكثرُ من وباء، والآن وقد أخذ الجسد البشري بعد شهرَيْن من الحَجْر يتهيَّأ ليخرج من بيت العنكبوت دون أن يكون على يقين بأن الوباء قد زال، وبأن الفيروس الشبح قد صَفَحَ عنَّا، وأخلى سبيلنا، والآن وقد أخذ الساسة يُبشِّروننا بقُرب الخلاص بعد أن قضَّتْ مضاجعَهُم الخسائرُ الاقتصادية، وها هم يتهيَّؤون لرَفْع الحَجْر دون أن يقدِّموا معطيات حقيقية، تضمن سلامة مَنْ سيعودون إلى الحياة من جديد .. الآن صار بإمكان الفلاسفة والمفكِّرين والإبستيمولوجيِّيْن وعلماء الطِّبِّ وحُماة البيئة والأنتروبولوجيِّيْن والفنَّانين بكلِّ مشاربهم، وغيرهم ممَّنْ يتَّخذون الإنسان والإنسانيَّ مجالاً لتفكُّرهم وتعبيرهم، أن يعودوا إلى ما جرى ويجري وسيظلُّ يجري على الأغلب إلى نهاية سنة ٢٠٢٠، بالتَّأمُّل والتفكير بغية الخروج من هذه التجربة الإنسانية الفريدة الأليمة، بقراءات جديدة، تبني تصوُّراً فلسفياً لغدٍ إنسانيٍّ أجمل وأرقى وأكثر نُبلاً، يكون فيه لقِيَم العدل والمساواة والتضامن وحماية البيئة منزلة عليا، وللمفكِّرين والفلاسفة وكلّ مَنْ همَّشَتْهُم رحى النظام الرَّأسماليِّ دور القيادة.

ولعلَّ أوَّل خطوة في هذا المسار هي التساؤل هل كان ما حَدَثَ أمراً مُفاجِئاً فعلاً؟ هل هذا الفيروس الخفيُّ المقاتل الشرس الذي لا يُرَى له طيف، ولا يُسمَع له دبيب هو مجرَّد صدفة من صدف الطبيعة أو طفرة طفيلية، لا تظهر إلَّا مرَّة كلّ قرن أم هو تشكُّل غريب لفيروسات أخرى ضخمة الأشكال مُدوِّية الأصوات طالما رآها البشر منذُ عقود، وطالما أصابت الملايين بأدواء ما وجدت لها أدوية؟ أَ ليست هذه الأزمة الصِّحِّيَّة هي محطَّة، وقفت عندها قافلة طويلة من الخطايا التي اقترفها بضعة من البشر في حقِّ كثرة من البشر، ونتيجة منتظرة لكوارث، أدَّت إليها سياسات اجتماعية واقتصادية، أشرف عليها منظِّرون ومهندسون واستشرافيون، انفردوا بكتابة تاريخ المستقبل؟ أَ ليس هذا الوباء تحوُّلاً كيفياً لتراكمٍ كمِّيٍّ، امتدَّ عقوداً في أوروبا والدول العظمى لانتهاك البيئة والتَّعدِّي على الطبيعة، وترسيخ سياسات، تعتمد التَّقشُّف في الإنفاق على المؤسَّسات الجامعية والأبحاث العلمية، وتعاظم البون الشاسع بين الفقراء والأغنياء، وإهمال التغطية الاجتماعية، والدَّفْع نحو خَصْوَصَة الخدمات الطِّبِّيَّة؟

يقول الكاتب والمخرج المسرحي أنطونين أرتو في كتابه "المسرح وقرينه": "إن وباء مثل الطاعون، له نقطة اشتراك مع المسرح في أنه يدفع البشر إلى أن يروا أنفسهم كما هم حقيقة، إنه ينزع القناع". فعلاً كم كان أرتو صادقاً في مقارنتِهِ الوباء بفنِّ المسرح، وكم نحن في حاجة حقَّاً إلى أن ننزع الأقنعة، فإذا كان وَضْع الكِمَامات حاجة ماسَّة للوقاية من الداء، فإن نزع الأقنعة أَوْجَبَ علينا للوقاية من كلِّ داء قادم. إن نزع الأقنعة هو السبيل الحقيقي، لنرى الواقع القديم الحقيقي، وهو يتمدَّد في واقع اليوم والغد. فلئن لم ينتهِ الوباء بعد، وبعض المختصِّين يؤكِّدون أننا ما نزال في بدايات المعركة، فإنّ نتائجه الوخيمة قد أخذت تظهر، ويكشف القليل منها عن العورات البئيسة التي تختفي وراء بهرج المُدُن الصِّناعيَّة الحديثة، وضخامة مبانيها، ورفعة وسائل الراحة والرفاهة فيها. فقد اتَّضح أن كلَّ ذلك ليس إلَّا ظاهراً مُزيَّفاً، يُخبِّئ باطناً مرعِباً، تجلِّياته في تدهور أوضاع مستشفيات إيطاليا وإسبانيا وبريطانيا، وقصور منظوماتها الصِّحِّيَّة العريقة، وارتباك مسؤوليها أمام الفاجعة. لقد جنوا في لمح البصر ما انساقوا إليه حكوماتٍ بعد أخرى من إهمال للإنفاق العمومي على الصِّحَّة والمنظومة الطِّبِّيَّة، وتقتير على العلماء والباحثين الجامعيِّيْن الشباب، وتساهل مع الخطابات الشّعبويَّة العنصرية المحمِّلة كلَّ أوزار الاقتصادِ للآخر مهاجراً كان أو لاجئاً أو مواطناً فقيراً، يعيش بعيداً عن أوروبا في أحد الأصقاع الإفريقية.

بيد أن الضحايا الحقيقيِّيْن ليسوا هؤلاء الساسة ولا القائمين على كبريات المؤسَّسات الاقتصادية والمالية، وإنما هم ملايين العُجَّز والمتقدِّمين في السِّنِّ، والمعوقين، والفقراء، والعاطلين عن العمل، والعمَّال العَرَضِيِّيْن، وصِغَار الحِرَفِيِّيْن، والمهمَّشين، والأقلِّيَّات الإثنية، والمهاجرين، والنساء. هم

الضـحايا الأغلب، لأنهم الأكثر عرضـة للإصـابة بالمرض، والأقلّ حظّاً في الانتفاع بالخدمات الطِّبِّيَّة والتغطية الاجتماعية التي ضعفت كثيراً، بسبب
توخِّي سياسة التَّقشُّف، ولأنّ الحَجْر الصِّحِّيَّ والإجراءات المتَّخذة للحَدِّ من تفشِّي الوباء، تُضيِّق عليهم سُـبُل الرزق القليلة بطبعها. لكنَّ هذا لا يمنع من أن يقع ضـحية هذا الوباء أفراد من خارج هذه الفئات، وممَّنْ يبدون في الظاهر في مَنأى منه. فمع الأيَّام، أدركْنا أنّ كوفيد ١٩ ديمقراطي، لا يُفرِّق بين الأغنياء والفقراء والسقامى والأصحَّاء والشِّيب والشباب.
ولا شكَّ في أنّ أعداد شهداء هذا الوباء مهما عظمت ليست، ويا للأسف، إلَّا نتيجة من بين نتائج أخرى كثيرة، ظهر بعضـها، وسـتُسـفر الشـهور القادمة عن أخرى، تزداد مع الأيَّام خطراً واسـتفحالاً، ومن المؤكَّد أن تأثيراتها السَّـلبيَّة المُدمِّرة لن تخبوَ قبل عقد من الزمن على الأقلِّ. وسـتتجاذب الأزمة المقبلة محاور كثيرة داخل البلد الواحد من جهة، وبين الأمم والشعوب من جهة ثانية. شأن هذه الأزمة كشأن الكائنات الأسـطورية في الخرافات الشَّـعبيَّة، كلَّما قَتَلَهَا الفارسُ المغوارُ انشـطرتْ وانبثقَ منها كائنٌ أسطوريٌّ جديدٌ كالأخطبوط، له ألف ساقٍ ويدٍ. فهي قد مُسَّت الآن، والكورونة ما زالت تحلِّق بيننا حُرَّة طليقة، المسـاواة في الحقوق بين مَنْ يملكون الحقَّ في الحركة والتَّنقُّل، ومَنْ لا يملكون ذلك، وبين مَنْ ينتفعون بالحقِّ في العلاج، ومَنْ حُرِمُوا ذلك، وغداً حين يهتدي العلماء إلى الدواء الكنز، سيخرج الناس إلى الشـوارع، وما هي إلَّا يوم أو بعض يوم حتَّى يكتشـفوا الجائحة الاقتصـادية والاجتماعية التي حلَّت محلَّ الجائحة الوبائية، فستُفلس كثير من المؤسَّسات المالية والشركات الصُّغرى والمتوسِّطة، وسيُلقَى بالملايين في العَرَاء خارج الدورة الاقتصـادية، وسـتزداد منظومة العمل اهتراء، بل إنّ مفهوم العمل نفسه سيعرف تحوُّلات درامية، تعصف بالتَّصوُّر التَّقليديِّ للعمل عصفاً، لا سيَّما بعد أن كشفت تجربة الحَجْر عن القدرات الهائلة للوسـائل الإعلامية التِّكنولوجيَّة العالية على تيسـير العمل عن بُعد، واختزال عدد الموظَّفين. أمَّا بين الدول والشعوب، فستزيد هذه الأزمة من ضـعف الدول الضـعيفة بطبعها مالياً واقتصادياً وسياسياً، وستزداد تبعيَّتها للدول القوية، وربَّما يحدث بين الدول العظمى إعادة تموقع جزئي على مستوى التحالفات وموازين القوى.
فهل هي نذر بتكرُّر عقد ثلاثينيات القرن العشرين الذي أعقب أزمة ١٩٢٩؟
يُخبرنـا التـاريخ أنّ الأوبئـة والحروب الكبرى تنتهي دائمـاً إلى إحـداث تحوُّلات كبرى في مختلف المجالات اجتماعياً واقتصـادياً وسـياسـياً وثقافياً وحضـارياً. على هذا النحو كانت نهاية الحرب العالَمية الأولى، ووباء الحُمَّى الإسـبانية قبل قرن منطلَقاً لتشـكُّل ملامحَ عالَم جديد تمام الجِدَّة، إذ عصـفت الكارثتان بدُول وإمبراطوريات كالإمبراطورية النمسـاوية - الهنغارية والإمبراطورية العثمانية، وأدَّت إلى ظهور دول جديدة هنا وهناك في أوروبا والمشرق العربي، ومثَّلت محفِّزاً هائلاً على التجديد الأدبي والفنِّيِّ، وتطوير البحث العلمي والتِّكنولوجيِّ، فحقَّق الفنُّ السِّـينمائيُّ تطوُّراً كبيراً، وازدهر تيَّار الحداثة الأدبية، وظهرت المدرسـة السُّـورياليَّة في الأدب والرسـم والسـينما، وبرزت اختراعات لا تُحصـى ولا تُعدُّ، كانت الأُسُـس الأولى لعصـر الرَّفاهَة القادم من قبيل مكبِّر الصـوت والثَّلَّاجة والتلفزيون. لكنْ، في مقابل ذلك تزاحمت قوافل الجياع والمفقَّرين، وظهرت التَّيَّارات الفاشـية، ووَصَـلَ موسـيليني إلى حُكْم إيطاليا، وأحكمت الدوائرُ المالية والصِّناعيَّة قبضَتَها على الاقتصـاد الأمريكي مرسِّخة سياسات ليبرالية متطرِّفة، أدَّت إلى أزمة ١٩٢٩ التي ستُفضي، هي الأخرى، إلى اتِّساع البون بين فقراء العالَم وأغنيائه، ورسوخ أقدام الفاشيِّيْن والنَّازيِّيْن في الحُكْم، وتهاوي كلّ المعاهدات والمواثيق الدّوليَّة، والتَّخلُّص من كلِّ مرجعية قانونية أو سـياسـية، تضـمن أو تدَّعي على الأقلِّ، ضـمان سـيادة القانون والشَّـرعيَّة والعدالة الدّوليّة، وكان ذلك كلّه مهاداً للانفجار الكبير سـنة ١٩٣٩ حين اندلعت الحرب العالَمية الثانية. وقد

سارت التَّحوُّلات الكبرى التي أعقبت هذه الحرب في المسارات نفسها تقريباً التي أفضت إليها سابقتها مع اختلاف المضمون والحجم بطبيعة الحال. فتهاوت من عروشها دول كبريطانيا وفرنسا واليابان، وعوَّضتْها قوى جديدة كالولايات المتَّحدة والاتِّحاد السُّوفياتيِّ والصين، وتَعَاظَمَ الشعور الوطني والفكر القومي في مختلف قارَّات العالَم مُفضِين إلى حركات استقلال واسعة النطاق في آسيا وإفريقيا، وتجدَّدت الآداب والفنون والفلسفة، فازدهر التَّيَّار الوجودي، وعمَّت المدرسة البنيوية النَّقْد الأدبي والفكر الفلسفي وشعباً من العلوم الصحيحة، وتطوَّرت السينما، وازدهرت الهندسة المعمارية، ودخلْنا عصر البترول، وتطوَّرت وسائل النقل تطوُّراً، لا عهد للبشرية به، وبدأت الولايات المتَّحدة، قائد العالَم الجديد، تضع تعاليم دِيْن حديث، سيُطلَق عليه لاحقاً تسمية العولمة.

مع ذلك هل يمكن للمرء أن يتنبَّأ بما ستؤول إليه الأمور بعد أن تزولَ الأزمة؟

يمكن أن نقرأ من داخل حاضر الأزمة نفسه مآلات المستقبل انطلاقاً من النتائج التي أخذت تنجلي بعدُ في مدَّة قصيرة جدَّاً، أمَّا التَّنبُّؤ الحاسم الجازم بالمستقبل في شكل رؤوس أقلام تقريرية، فيظلُّ فعلاً رؤيويا غارقاً في النزوع الميتافيزيقي المشحون بالطاقة الرَّغبويَّة الفردية لصاحب النبوءة، فلا يكون، في الأغلب، سوى إسقاط لشهوات الفرد النَّفْسيَّة والإيديولوجية في الحاضر على المستقبل المُتخيَّل. ولنضرب على ذلك مَثَلَيْن متناقضَيْن من تأويل العرب لوباء الكورونا، لكنهما يصبَّان في ذهنية تأويلية واحدة. التأويل الأوَّل دِيْني المنبع يرى في كلِّ كارثة على الأرض عقاباً من السماء، إنه "الجدل النازل" حين يُعطِّل الجدل الصاعد، ويسود الفساد الأرض، وينأى عالَم الواقع عن عالَم المثال، فتنزل السماء، لتعاقب الأرضَ مُسلِّطةً عليها شرَّاً من الشرور، أملاً في أن يأخذ البشر العبرة، ويتَّعظوا، ويعودوا إلى مُثُلِهِم وقِيَمِهِم، ويلتفتوا إلى ربِّهم، يتعبَّدونه، ويقدِّمون له القرابين. وهكذا رأى الكثيرون الغاضبون على انتشار الفساد في البرِّ والبحر أنّ الفيروس الشبح هو آية على عين الله الساهرة، ودليل على حتمية عودة البشر عن غَيِّهم. أمَّا التأويل الثاني، فتُسارِع إليه طيف متنوِّع من يساريِّين وشُيُوعيِّين قدامى وقوميِّين، التقطوا بعض الأحداث التي حفَّت بتطوُّرات الوضع الصِّحِّيِّ الأولى في الصين وأوروبا وروسيا، فخرجوا باستنتاجات، تبدو متماسكة قوية الحجَّة للوهلة الأولى، لكننا ما إن نتملَّاها قليلاً حتَّى نتبيَّن أنها مجرَّد خليط من أُمنيَّات لمستقبل متخيَّل على صورة من ماضٍ، ثَوَى في الواقع، لكنه ما زال حيَّاً نابضاً في بئر النوستالجيا الفردية. فقد خلص هؤلاء إلى أن نجاح الصين في السيطرة على الوباء وراءه فضائل النظام الشُّيُوعيِّ، وتفوُّقه على النظام الرَّأسماليِّ، سواء في انضباط المواطنين لتعليمات الدولة والتزامهم قيد أنملة بالحَجْر الصِّحِّيِّ، أو في تطوُّر المنظومة الصِّحِّيَّة العمومية وشعبيَّتها واتِّسامها بالطابع الإنساني. وهم بذلك ينطلقون من مُسلَّمة أوَّليَّة، لا يقبلون فيها نقاشاً، ومفادها أن الصين دولة شُيُوعيَّة فعلاً، تتحرَّك بعيداً عن فلك العولمة، تقوم مؤسَّساتها الحكومية على التناقض التَّامِّ مع المنظومات الرَّأسماليَّة الغربية، لذلك تفوَّقت هذه وخدمت الإنسان في حين أخفقت المؤسَّسات الحكومية في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا، وخذلت مواطنيها، فماتوا بالآلاف المؤلَّفة. وفي هذا السياق نفسه، قُرِئَت قلَّة الإصابات المسجَّلة في روسيا بفيروس كورونا في بدايات الأزمة بأنها دليل آخر على سلامة المنظومة الصِّحِّيَّة في البلدان الشُّيُوعيَّة. وسرعان ما تعالت الأصوات في تونس والمغرب ولبنان والعراق وفي أوروبا الغربية أيضاً، تنادي بضرورة التَّخلِّي عن الأنظمة اللِّيبراليَّة، وتقوية أُسُس الدولة الوطنية، والعودة إلى اتِّباع السياسات الاجتماعية الاشتراكية، والتَّمرُّد على العولمة بتصوُّراتها الأمريكية الغربية، ودعم الإجراءات الوطنية الحمائية. ولا يخفى ما في هذا التحليل من تغافُل لحقائق الواقع الفعلي لا المشتهى، فالصين وروسيا كلاهما انفصلت عن النموذج الشُّيُوعيِّ الصِّرف، وانضمَّت إلى فلك العولمة، وإن اختلفتا في الشكل ودرجة التصريح بهذا الانتماء، فهو موارِبة وتقنُّع مع الصين، وهو إخفاء للتعولم الرُّوسيِّ

الاقتصادي مع روسيا، وتركيز على المنافسة العسكرية والجيوبوليتيكية مع الولايات المتَّحدة الأمريكية.
أمَّا عن النجاح الطِّبِّيِّ، فلئن كان الشعب الصِّينيُّ قد ساعد دولتَهُ فعلاً في التَّصدِّي لتفشِّي الوباء، فقد لا يعود ذلك إلى الالتزام بالتعاليم الشُّيُوعيَّة، كما قد نتوهَّم جميعاً للوهلة الأولى، بل يُفسَّر بالانسجام مع التقاليد الفلسفية والرُّوحيَّة الكونفوشيوسية الضاربة في القِدَم والمُشتركة بين الصين وشعوب آسيوية أخرى، تُعرَف بانضباط أفرادها هي الأخرى، وإن لم تكن لها علاقة بالشُّيُوعيَّة. أمَّا عن روسيا، فسرعان ما بان أنّ قلَّة الإصابات لم تكن إلَّا سراباً خُلَّبَاً، إذ انفتحت بوَّابة الموت هناك، وأخذت رحاه اللعينة تحصد آلاف الأرواح، وكان مثل روسيا في ذلك مثل غيرها من الدول الأوروبية.
ولئن كنَّا جميعاً ننجذب، بحُكْم تكويننا وما نحمله من مُثُل قِيَمِيَّة وإنسانية، إلى كلِّ خطاب يُبشِّر بموت العولمة، وتهاوي المنظومة اللِّيبراليَّة، وما تقوم عليه من تصوُّرات فلسفية، تُؤَلِّه الربح المادِّيَّ، ولا ترى في الكيان الإنساني قيمة مطلقة، فإنّ ذلك لا يمنعنا من القول بأن هذه النبوءات ليست إلَّا محض رغبات مسكونة بشعور الضعف والتَّظلُّم والرغبة في تحقيق العدالة الإنسانية. أمَّا الواقع بما في ذلك تأثيرات الأزمة نفسها على حياة البشر، فلا يسند هذه البشارة البتَّة. صحيح أنّ أزمة كوفيد ١٩ قد كشفت أنّ كثيراً من ركائز العولمة ليست إلَّا مجموعة من اليُوتُوبيَات والادِّعاءات، فما إن حلَّت جيوش الفيروس في أغلب الدول الصِّناعيَّة العظمى، والتفَّت الساق بالساق حتَّى جرت كلُّ واحدة منها تبحث عن الخلاص الفردي، وعاد مصطلحا الوطن والأُمَّة يتواتران بكثرة في خطابات رؤساء الدول الأوروبية، وفي المقابل غاب مصطلح الاتِّحاد الأوروبي غياباً تامَّاً، وطغا صوت الشعور الوطني على الشعور التَّضامنيِّ الأوروبي، ولم تلتفت أيُّ دولة إلى جاراتها، بل قيل إن بعض الدول خطفت إعانات طبِّيَّة، كانت في طريقها إلى دولة أخرى مجاورة، وفي الأثناء، لم تصدر عن كاهنة العولمة، الولايات المتَّحدة الأمريكية، إشارة واحدة إلى استعدادها لمعاضدة حلفائها، والوقوف إلى جانبهم حتَّى قبل أن يستفحلَ الوباء بين مواطنيها، أمَّا حين صارت في طليعة البؤر الوبائية عالَمياً، فقد ازداد شعار "أمريكا أوَّلاً" ترسُّخاً، وزادت نزعة رئيسها الشّعبويَّة إلى الانغلاق على الذات تجذُّراً، وبان أمام أغلب القادة والخبراء الاستشرافيِّيْن أن لا أُفق إلَّا الارتداد إلى داخل الحدود الوطنية. كلُّ ذلك أفضى بنا إلى اكتشاف واقع جديد مفاجِئ، ما كنَّا لنتخيَّله قبل شهرَيْن، ومفاده أنّ العالَم الذي سلَّمْنا منذُ عقدَيْن بأنه قرية صغيرة ملتفَّة بعضها حول بعض ليس في الحقيقة إلَّا قرى منغلقة مشتَّتة، يعسر الربط بينها برَّاً وبحراً وجوَّاً. بل إن المُدُن المكوِّنة للوطن الواحد قد انقلبت بغتةً سجوناً ضخمة ذات سماء زرقاء، يعمُّها الصمت، ووصل عجيبُ أخبارِنا إلى إخوتنا الحيوانات، فأخذت تتساءل عن خطبنا، وتجرَّأت وزحفت نحونا.
كلُّ هذه المعطيات تُؤكِّد أن العولمة محفوفة بمخاطر جسيمة، تهدِّد قادم أيَّامها، ومن ثمَّ فإن التشكيك في قدرة المنظومة الاقتصادية والمالية الغربية على الصمود قراءةٌ ممكنة، بل ضرورية. مع ذلك فإنه يصعب كثيراً في رأيي أن نبنيَ عليها صَرْحَ نبوءة واثقة في تفاؤلها، بشَّر بها بعض من المفكِّرين، على رأسهم نعوم تشومسكي، تُصوِّر الغدَ، وقد تخلَّص من العولمة وشرورها، وسار يرسي دعائم نظام اشتراكي خيِّر عادل. ولنستحضر في هذا الصدد حقيقة لا جدال فيها، وهي أن الأزمات عنصر أساسي من العناصر التَكوينيَّة في النظام الرَّأسماليِّ منذُ انتشارِهِ وهيمنتِهِ في أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين. وقبل قرن من الآن، عاش النظامُ الرَأسماليُّ أزمتَهُ المُدمِّرةَ الأولى سنة ١٩١٤ وظنَّ الكثيرون لا سيَّما بعيد نجاح الثورة البلشفية أن نهاية الرَّأسماليَّة قد أَزِفَتْ، ومع ذلك رمَّمت الرَّأسماليَّة نفسها، وعادت أقوى بكثير، وظلَّت تتنقَّل طيلة القرن العشرين من أزمة إلى أخرى، وفي كلِّ مرَّة يُطرح السؤال: "هل الحلُّ في القضاء على الرَّأسماليَّة أو إصلاحها؟"، ويأتي الجواب إصلاحاً جزئياً، يزيد الرَّأسماليَّة قوَّةً وجبروتاً، ويزيد ضحاياها فقراً وعَرَاء. إنّ المأساة كامنة في صميم الرَّأسماليَّة نفسها،

فهي في حاجة دائماً إلى النُّمُوِّ حتَّى يستمرَّ بقاؤها، ولكنْ، كيف يمكن أن تجري فكرة النُّمُوِّ اللَّامحدود فوق كوكب محدود؟ إنّ هذا المبدأ عبثي من الناحية المنطقية، انتحاري من الناحية الأنتروبولوجية، فتدمير الكوكب هو تدمير لوجود البشر. وعلى هذا النحو يتَّضح لنا أن المسألة البيئية مثلها مثل المسألة الدِّيمقراطيَّة والعنصرية من الأركان الأساسية التي لا يُتخيَّل البتَّة أن يخلوَ منها أيُّ نقاشٍ فكريٍّ جادٍّ حول مستقبل النظام الرَّأسماليِّ والعولمة، فمقاربة الموضوع من هذه الزوايا لا تقلُّ أهمِّيَّة، بل لعلَّها صارت اليوم تفوق الزوايا السِّياسيَّة والإيديولوجية والاقتصادية المعتَمَدَة تقليدياً في هذه المقاربة.

إنّ قدرة المنظومة الرَّأسماليَّة على التَّجدُّد الدَّاخليِّ ومواجهة أزماتها بصفة دورية، تجعلنا لا نتصوَّر أنّ الجدل اليوم بشأن مصير العولمة يمكن أن يتمَّ خارج الرَّأسماليَّة، بل داخلها وبين مكوِّناتها، ولكنْ، وفق تصوُّر جديد للإصلاح، يُقرُّ بأن النموذج القائم للكسب والاستثمار الكوني والاعتماد التَّبادليِّ بين البشر وتكديس الثروات هو نموذج لا إنساني ظالم، ليس له أيُّ أُفق قِيَمِيٍّ. وهذا دَور الفلاسفة والمفكِّرين والفنَّانين، فوحدَهم لديهم القدرة على النهوض بهذه المهمَّة التَّاريخيَّة. ومن المؤكَّد أن أزمة الكورونا هي من قبيل الأضرار النافعة، فهذه أنسب فرصة ممكنة، ليعودَ الفيلسوف إلى العالَم، ويُسمِعَ صوته من جديد بعيداً عن الجدل الإيديولوجي في شأن أحقِّيَّة العولمة بالوجود أم لا. فقد أغرق الفلاسفة والمفكِّرون طيلة عقود من القرن العشرين في إدانة الامبريالية، ومع ذلك لم تزدد الإمبريالية إلَّا اتِّساعاً وشراسة، وتضاءل صوت المفكِّر شيئاً فشيئاً حتَّى صار هو نفسه ديكوراً، تحرص الإمبريالية على أن يوجد ضمن حفلة الأصوات النشاز التي تقيمها من حين إلى آخر. وهنا نوافق تمام الموافقة الشاعر نوري الجرَّاح في حماسه وهو يدعو المفكِّرين إلى أن يقوموا هبَّة واحدة إلى الفعل بدل الجدل: "ليس المطلوب اليوم من المفكِّر المعارض مماحكة الإمبريالية، لإثبات وحشيَّتها، أو تعداد أخطائها وجرائمها، هناك شيء من مضيعة الوقت في هذا السلوك أو أقلّه التمترس الأخلاقي في القلعة إيَّاها في وقت هي نفسها (الإمبريالية)، تُخرِجُ لنا من لدنها يومياً مَنْ ينتقد خطاياها، بوصفها أخطاء، ويدعو إلى تصويبها. المطلوب في نظرنا هو خَلْق صيغ جديدة لتواصُل فكري أممي، لربَّما تحوَّل لاحقاً، على نحو أو غيره، إلى مرجعية فكرية وأخلاقية موازية للقوَّة الغاشمة اقتصادياً وعسكرياً. آصرة تضمُّ نُخباً من العالَم كلِّه، تتنادى لتقرأَ زمنها، وتقرأ معضلاته، وتُظهِرَ مواطن الضعف والقوَّة، ومصادر الخَلَل في حاضره، وتجعلَ من الفكر عجلةً لتجديد الأسئلة، والبحث عن أجوبة، لا تغضُّ النَّظَر عن أمراض العصر، ولا عن الآلام التي يتسبَّب بها التفاوت في الأحوال والأوضاع بين جغرافيات الغنى وجغرافيات الاستفقار الرَّأسماليِّ، بينما هي تسعى للعثور على ضالَّتها من الأجوبة عن الأسئلة المشتركة بين أطراف فكرية متعدِّدة المشارب والمرجعيات" (مقال: أبناء نوح وطوفان الوباء، جريدة العرب، الأحد ٢٠٢٠/٤/١٩).

فلعلَّنا في حاجة اليوم إلى تمثُّل قول ماركس، وإن كان السياق غير السياق: "كلُّ ما فعله الفلاسفة إلى حَدِّ الآن هو تفسير العالَم بطُرُق مختلفة، لكنَّ المهمَّ هو تغييرُهُ". نحن في حاجة إلى هَبَّة فكرية وأخلاقية وثورة إيديولوجية وإنسانية، يقودها المفكِّرون والفلاسفة، تُؤسِّس لعالَم جديد، يقوم على المبدأ نفسه الذي تقوم عليه العولمة، مبدأ الاعتماد التَّبادليِّ، ولكنْ، مشروطاً بمبدأ أخلاقي مُستلهَم من تجربة هذه الأزمة، محوره الأساسي التَّشاركيَّة الإنسانية اقتصادياً واجتماعياً وبيئياً، ودعائمه الدِّيمقراطيَّة ونَبْذ العنصرية والقبول اللَّا مشروط بالآخر، وتقديس البيئة. ليكن أن الرَّأسماليَّة قادرة على أن تنفذ من كلِّ الأحابيل التي تصنعها بنفسها،

وليكن أن الرَّأسماليَّة باتت منذُ عقود طويلة الأُفق الوحيد للبشرية، فإنّه ما يزال لدى مفكِّري العالَم وفلاسفته وفنَّانيه وعلمائه مجال كبير للفعل الحضاري، وإجبار الرَّأسماليَّة على مواجهة ما تفرضه عليها هيمنتها من التزامات اقتصادية واجتماعية وأخلاقية وبيئية. ولئن جاز لمنظِّري الرَّأسماليَّة وباروناتها أن

يصيحوا محتجِّين بأنها ليست هي مصدر كلِّ شرور العالَم، فإنهم، في المقابل، لا يستطيعون إنكار أنها هي المسؤولة اليوم عن إيجاد الحلول المناسبة لكلِّ مشاكل العالَم.
ولا يمكن أن تنجح دعوة نوري الجرَّاح إلى فلاسفة العالَم ومفكِّريه، إن ظلُّوا يفكِّرون شرقاً وغرباً بمعطيات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فإذا ما جاوزوا هذه الفترة قليلا تحجَّروا عند مرحلة الحرب الباردة. إنّ التجربة الوبائية هي نفسها تعلِّمنا أن العولمة لم تَعُدْ فقط خياراً سياسياً، هَنْدَسَ له كبارُ رؤوس الأموال في العالَم بغية مزيد إحكام السيطرة على منابع الثروة ووسائل الإنتاج وتحويل العالَم كلّه إلى سوق ضخمة لترويج سِلَعِهِم، والقضاء على كلِّ نَفَس استثماري إنتاجي، يخرج عن سلطانهم. بلى ما تزال العولمة كذلك، وستبقى شئْنا أو أبيْنا، ولكنَّ ما حَدَثَ طيلة العقدَيْن الماضيَيْن أن العولمة تسرَّبت من سياقَيْها السِّياسيِّ والاقتصادي، وصارت نمط حياة، ووجود عمَّ البشرية جمعاء، وانضوى فيه أعداء العولمة مثلهم مثل أنصارها. وقد كان كوفيد ١٩ في بُعْد من أبعاده تجلِّياً ناصعاً لهذه الحقيقة، ففي الوقت الذي أُغلقت فيه الحدود بين الدول، وبركت الطائرات في المطارات، ولاذ كلُّ شعب بموطنه، ظلَّت شبكات الاتِّصال قائمة، واختزلت المسافات الهائلة اختزالاً رهيباً، فكان كلُّ مواطن في العالَم يتابع لحظة بلحظة تفاصيل تطوُّر الوباء في كلِّ مُدُن العالَم قاطبة، وكأنه يسكن حيَّاً شعبياً في مدينة عربية، فتترامى إلى آذانه في كلِّ لحظة أخبار جيرانه، وصرْنا نشعر أن كلَّ وسائل الإعلام في العالَم صغيرة أو كبيرة، شهيرة أو مغمورة، تتقاطع بعضها مع بعض وتتواصل، وكأنها مكاتب صحفية متجاورة في بناية واحدة، ولم تزد الأزمة العالَم الرَّقْميَّ إلَّا تعاظماً، واشتدَّت أهمِّيَّة التغطية للشبكة العنكبوتية، فعرفْنا أكثر من ذي قبل أنها هي كوكبنا الفعلي، وإذا بالحدود تتهاوى بين الواقع الافتراضي والواقع الفيزيائي حين صار التعليم والطِّبُّ والمعاملات البنكية، ثمَّ القضاء نفسه، تعمل جميعها عن بُعْد، بل إن التَّحقُّق من الهوية الفردية صار يتمُّ عبر مصادر غير الوجه كالصوت ونبضات القلب والبصمة. لن تنتهيَ هذه الأزمة حتَّى نكتشف أننا أبناء العالَم، وأن كلَّ فرد منَّا يحمل مسؤولية الكون بأسره، فلا يمكنه أن ينجوَ إلَّا إذا نجا الناس جميعاً، وإذا ما أُصيب هو، ففي ذلك انتصار للفيروس على العالَم بأسره، وتمدُّد له في المكان والزمان. إن الصِّينيَّ الذي أصابه الفيروس أوَّل ما أصاب من البشر لي به علاقة ما، والإيطالي الذي يفتح نافذته ليلاً، ويغنِّي زمن الحَجْر أجدني أغني معه، وأتمنَّى له الانتصار، ففي انتصاره انتصاري. ولعلَّ أحد أسباب سرعة تفشِّي الوباء في أوروبا هو ضعف الوعي تمام الوعي بهذا البُعْد العولمي، فقد أوعز اللَّاوعي إلى الأوروبيِّيْن وغيرهم أيضاً أن الوباء سيظلُّ محصوراً في الصين، ولن يصلهم شرٌّ من ذلك الصقع البعيد.
ليست القضية المطروحة اليوم هي تغذية الآمال في القضاء على العولمة، بل إنّ المسألة المُلِحَّة العاجلة هي أَنْسَنَة العولمة، وأخلقتها. إن المطلوب هو مزيد من العولمة بالسعي إلى تحرير العولمة نفسها من سجنَي السياسة والاقتصاد، وفَتْح مجالات أخرى أمامها، يكون لها حضور إنساني أممي فعلاً، لا أن تُتَّخذ مجرَّد قناع للعولمة السِّياسيَّة والاقتصادية ذاتها. لماذا يوجد ناتو عسكري، ولا يوجد ناتو صِحِّيٌّ مثلاً؟ لماذا لا نرسي دعائم عولمة ثقافية حقيقية، يكون فيها الفنُّ والأدب والفكر مجالات تعبيرية رمزية عن هذا الانتماء المشترك إلى الإنسان؟
ذات يوم قال البابا يوحنَّا بُولُص الثاني:" إن العالَم يحتاج إلى جسور، لا جدران"، واليوم ثبت أن الجسور أقوى بكثير من الجدران، ولا يمكن للجدران مهما علت في الغد، واشتدَّت وتراصَّت أن تمنع حدوث الجائحة القادمة، ولا أن تحميَ أصحابها من أيِّ تهديد، يخيِّم على مستقبلهم. لا يمكن للجدران إلَّا أن تمنع انتقال التكنولوجيا والبشر، والتمويلات والأفكار المستجدَّة، وإرادة التعاون الجماعي الذي نحن في أَمَسِّ الحاجة إليه لمواجهة الجوائح والتَّغيُّرات المناخية والإرهاب. لعلَّه من تبسيط الأمور القول بأن

كورونا قد وحَّدت البشـــر، لكنها، على الأقلّ، قد كشـــفت النقاب عن حقيقة كامنة وراء الحروب والصراعات الاقتصادية وركامات الكراهية والعنصرية، ومفادها أننا مُقبِلون على عيش عصر جديد، يتحمَّل فيه كلُّ البشـــر مســؤولية كلِّ البشـــر، ولكلِّ فئة فيه دور تنهض به تجاه ســائر الفئات، إنْ داخل الشـعب الواحد، وإنْ بين الشـعوب والأمم، فالفقير مرتبط بمصـير واحد مع الغني، والشّـمال والجنوب كلاهما مسـؤول عن نجاة الآخر. إنه الوجه الآخر للعولمة: وجه الضـرورة القصـوى. هذا الوجه الجديد المكتشـف يقتضـي حتماً تغيير مفهوم الاعتماد المتبادل السـابق ذي البُعْد الاقتصـادي البحت، والقائم على منطق رجحان الهيمنة حسب موازين القوى الاقتصادية والمالية القائمة، وتعويضه
بمفهوم جديد، يقترن فيه الاعتماد المتبادل بالتضامن البشري.

ولا شـكَّ في أن السِّـياسـيِّيْن ومن ورائهم كبار رؤوس الأموال في العالَم سـيُسـارعون فور أن تنجلي الغمَّة، إلى ترميم أوضـاعهم واسـتعادة زمام الأمور، ويكفي اجتماع واحد لمجموعة السبعة حتَّى تنبعث الحياة في المنظومة الاقتصـادية القائمة، ويتمُّ "تزييت" دواليب العولمة، لتعاودَ رحاها طحن الملايين من البشر، وكأن لا شيء حَدَثَ. هنا يأتي دور الفلاسفة والمفكِّرين، فما أنسب هذه اللحظة التَّاريخيَّة للتفلسف والتفكير. بل إن تجربة الحَجْر الصِّـحِّيِّ نفســها هي تجربة فلســفية في حَدِّ ذاتها، ومجال فســيح للتَّأمُّل الفلســـفي في الذات والآخر والمنزلة البشـــرية والحياة والموت، والعلاقة بالبيئة والطبيعة والحيوانات البرِّيَّة، ومفهوم التَّقدُّم، والعلاقة بين المكان والزمان في تجربة العزلة، فهل الزمان تيَّار فعلاً أم هو نفسه مكان وسجن؟ وأين يسكن الفرد حين يعزل/ يعتزل: أَ يسكن في بيت، سقفه من حديد وحجر، كما قال نعيمة أم يســـكن كينونته؟ وهل هذه الكينونة فردية كما نظنُّ ومجال لتحقق الذَّاتيَّة أم على العكس تماماً هي غَيْرِيَّة في المقام الأوَّل، فطيلة هذه الأزمة لم ينفكّ البشـر المسـتوحِدون عن اسـتقصـاء أخبار الآخر والإقامة في ما نتخيَّله عنه؟ لقد التقى في هذه التجربة الوبائية الحَجْرِيَّة روســـو وهوبز في غرفة واحدة لكلِّ شـخص منَّا، فأنا أُلازِم بيتي خوفاً من الآخر الذي يحتمل أن يعديني، وهو إن أعداني فما في ذلك إلَّا لأنه ضـحية لعدوى سـابقة، فتصـرُّفي معه، ينبني على اعتباري كلَّ آخر هو ذئبٌ في المطلَق، لكنني، في الوقت نفســه، إذ أُلزِم بيتي، وإن خرجتُ لِلَمْحٍ من البصــر، اتَّخذتُ كلَّ الاحتياطات، لأحميَ نفسي، لكنني دون أن أشعر، أساهم في حماية غيري، فَلِيُنْقِذَ المرءُ نفسَهُ عليه أن ينقذَ الآخرين، ولِيُنْقِذَهُم عليـه أن يتجنَّبهم، ولكي يعين الآخر عليـه أن يقف بعيداً عنـه. وعلى هذا النحو، فهذه التجربـة تُبرِز التداخل الشـــديد بين الأنا والآخر، وكأننا إزاء مرايا متجاورة، لا تنقل إلينا إلَّا أشـــطاراً من صُـــورنا، فحيثما يتوجَّب عليكَ أن تقف مع تقف ضـــدَّ، وحيثما يكون الآخر جحيماً يكون مَنْجَاة. أَلَا تؤكِّد لنا هذه الأيَّام ما قاله ذلك الشاعر البوهيمي الفلتة آرتير رامبو: "الأنا هو آخر؟".

إن مجالات التَّفكُّر الفلسـفي اليوم كثيرة جدَّاً يمكن أن تفتح بوَّابات واسـعة لتجديد الفكر الإنسـاني نفسـه، لكنها ينبغي أن تســير جنباً إلى جنب مع تحقيق هذه الحاجة المُلحَّة المســتعجلة، الحاجة إلى تأســيس ما ســمَّاه نوري الجرَّاح " أممية فكرية" تجمع الفلاســفة والمفكِّرين والفنَّانين وكلَّ مَنْ يطمحون إلى البحث عن مســار جديد، لا يسلك طريق الإنكار للواقع القائم، ويتمترس وراء حصـن إيديولوجي ماضـوي في بنيته العميقة، بل يسـعى إلى فرض نفســه على السِّـياسـيّ والاقتصــادي، ويصـلح المنظومة القائمة من داخلها، ويُنقِّيها من عقيدتها النِّيُوليبراليَّـة المتطرِّفة. طبعاً لا يملك هؤلاء الحالمون بـالتغيير الأدوات المادِّيَّة اللَّازمة للنجاح في مَسـعَاهُم، ولكنْ، يكفيهم أوَّلاً الحضـور في العالَم وملء الفراغ وتقديم بديلهم، والمهمُّ في البدء أن يتشكَّل المسار، لا أن تتحقَّق النتائج فوراً. ليس في هذا التحليل عملية إسقاط ساذجة لما وقع في زمن الكورونا على ما يمكن أن يقع في مســـار ولادة الأفكار، ولكنْ، ينبغي أن نقرأ جيِّداً خصـــائص التجربة الوبائية، ونتأمَّل ما وصـــفناه من ميكانزمات التفاعل البشـــري في أثنائها، وحينها

سيتجلَّى لنا بوضوح أن أصحاب الأفكار يقفون إزاء فرصة حقيقية للفعل الفكري الحضاري شرط تأسيس عولمة فكرية موازية للعولمة الاقتصادية، ذلك أنّ الأطروحات الفردية: "مهما كانت نبيلة في أطروحاتها، ومبصرة في رؤاها، لم ولن تكون فاعلة أصوات الفكر، وهي منفردة وعزلاء في توقعاتها الجغرافية، ولا الأصوات المفردة للنشطاء المنتشرين في العالَم، والمطالبين بالعدالة والسلام لسائر أهل الكوكب، وبالتالي، وفي ظلِّ ممكنات العالَم الرَّقْمِيِّ، والشبكة العنكبوتية، وآلاف التطبيقات والبرامج الإلكترونية هناك فرصة، بل فرص ذهبية لابتكار طرائق جديدة للتعبير والتواصل بين دعاة التغيير الإنسانيِّيْن في العالَم .. ".

هي ذي الساحة قد خلت إلَّا من حصان واحد جامح مَزْهُوٍّ بنفسه برَّاق العينَيْن مرتفع الصدر، فَلْنَرْكَبْهُ ولْنَقُدْهُ حيثُ أُفق التلاقي بين الفكري والإيتيقي والإنساني، وستطير بومة منيرفا، إنْ عند الغسق، وإنْ قبله، لنلتقيَ هناك أوَّلاً بكلِّ اللغات والمشارب والمعتقدات، ولنُؤسِّس عولمتنا، ونؤمن بأفكارنا، وإنْ ظهرت على شيء من السُّورياليَّة والمثالية للوَهْلَة الأولى. فلن تلبث حتَّى تصير واقعاً مثلها مثل هذه الأشياء الكثيرة التي غدت بين يوم وليلة واقعاً يومياً معتاداً، وكانت ممَّا لا يرقى إليه حتَّى خيال الشعراء.

سياق كارثي

خواطر وتداعيات في زمن الكورونا

مفيد نجم

يعيدنا الطوفان الكوني للوباء الذي أدخل العالَم في غرفة العناية المشدَّدة إلى السؤال الأوَّل عن الأسباب التي جعلت الوعي الوجودي المبكِّر للإنسان، كما تجلَّى في المَرويَّات الدِّينيَّة وأساطير الشرق بهذا البُعْد التَّراجيديّ الذي كان يحتاج دائماً إلى مخلِّص ما، لإنقاذ الحياة والإنسان على هذه الأرض من ما فعله الإنسان بنفسه وبأخوته البشر. من أوَّل دم أَسَالَهُ قابيل وحتَّى طوفان نوح العظيم وصرخة المسيح على صليب آلامه، ما زال هذا الوعي التّراجيديُّ مقيماً في الذات والحكاية، يُعيد بناء فصولها على هذا النحو أو ذاك، وكأنه ابن الحكاية البشرية الذي لا يريد أن يفارقَ مَتْنَهَا، وقد استحوذ على بطولتها بلا منازع قاتلاً وقتيلاً.

والسؤال الذي يستعيدنا في كلِّ مرَّة لماذا كان هذا الوعي الوجودي المأساوي سابقاً على أيِّ شكل آخر من الوعي؟ ولماذا لم تستطع الديانات أن تمحوَ أثره، بل أضاف إليه أبناؤها الكثيرَ من الدم في حروب، لم تتوقَّف إلى اليوم حتَّى بين أبناء الدِّيْن الواحد، ليأتيَ العصر الحديث، ويقول بأن الحياة للأقوى، وتبدأ معها حروب السيطرة من جديد على العالَم، حتَّى تحوَّل العالَم إلى ساحة اختبار لحدود هذه القوَّة وطغيانها، وقد تسلَّحت بكلِّ أنوع الفَتْك والقَتْل الحديثة.

الشعور بالتَّفوُّق للقوَّة الغاشمة لم ينتهِ عند حدود البلاد الأضعف، وإنما وصل إلى الطبيعة التي تحوَّلت بدورها إلى ضحية أخرى في هذا السياق الكارثي المنفلت من أيِّ ضوابط أخلاقية وإنسانية، وصلت في اندفاعها الجنوني إلى الفضاء والكواكب الأخرى، وكأن العالَم لم يعد يكفيهم لإشباع نهمهم وتأبيد سلطة القوَّة والهيمنة. فهل أراد الوباء الزاحف بقوَّة وشراسة أن يُعيدَ أصحاب هذه السياسات المجنونة إلى الأرض، ويسخر من وَهْم القوَّة وجنون العَظَمَة الذي يتلبَّسهم وهو يكشف كيف أهملوا الإنسان، وتركوه لمصيره العاري في مجتمع، باتت تحكمه قِيَم المادَّة والاستهلاك. فكم نوحاً سنحتاج ليُنقذَنا من هذا النزوع الجامح للعَدَم، وكم مسيحاً علينا أن نرفَعَهُ على خشب الصليب لمغفرة الخطايا.

إنه السؤال الوجودي الأكثر رعباً وهو يتجدَّد في كلِّ مرَّة يجد الإنسان نفسه فيها عاجزاً ومهزوماً أمام النتائج الكارثية لما يفعله أباطرة الحروب والثروة الذين استباحوا كلَّ شيء في العالَم. لماذا إذا يرتجف العالَم هَلَعاً في مواجهة هذا الخطر الداهم للفيروس الغامض والشرس؟ ألأن هذا الفيروس أراد اختبار حدود القوَّة لتلك البلدان الأكثر قوَّة اقتصادية وعلمية وعسكرية، وفضح كيف لُفِظَ الإنسان في مجتمعاتها خارج مفهوم الاستثمار المربِح لرأس المال الجشع والمرابي، كما تجلّى في ضعف السياسات الصِّحِّيَّة وعَجْزها عن تأمين وسائل الإنقاذ لضحايا هذا الوباء القاتل، في حين يغالب نوحٌ القابع في المختبرات وغُرف الإنعاش الزمنَ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأرواح البشرية، بينما لا تزال أكبر قوَّة في العالَم تتخبَّط في مواجهة هذا الطوفان الوبائي، لكي لا تتوقَّف آلة الرأس الجهنَّميِّ عن الدوران، وتفقد موقعها في هَرَم السيطرة على العالَم، ما جعل الرئيس الجالس على قمَّة هذا الهَرَم الأعمى لا يتوقَّف عن إتحاف العالَم بحلول مضحكة، تشي بالإفلاس الأخلاقي، ما دامت هذه القوَّة العمياء لسلطة المال والهيمنة ونهب العالَم اعتادت على فعل ذلك في أماكن كثيرة من العالَم، وقبل هذا مع سُكَّان بلادها الأصليِّيْن الذين بَنَتْ مجدها على مَحْوِ وجودهم بالقوَّة نفسها؟!

قد يكون من المفارق أن هذا الوباء القاتل الذي فَتَكَ بالدول الأكثر تقدُّماً وحضارة لم يجد ما يفعله في بلاد قابيل أكثرَ من ما فعله الطُّغاة بشعوبها المنكوبة، لذلك لم يحاول أن يختبر قوَّته وهو يتأمَّل مصائرنا الحزينة المتروكة لعَبَث الطغاة بها.

***

كم مرَّة إذاً سيكون على البشرية أن تستعيد الحكاية؟! وكم مرَّة سنحتاج لمثل هذه اللحظة الكونية العاصفة، لكي نفتحَ أعيننا على اتِّساع الرعب الذي نعيشه، وقد تركت مصائرنا في مَهَبِّ أطماع أباطرة المال المتوحِّش الذين حوَّلوا العالَم إلى سوق استهلاكي شَرِهٍ لا يشبع، وساحة حرب لا تتوقَّف، من أجل السيطرة وتكديس الثروات بعيداً عن أيِّ وازع أخلاقي، حتَّى أصبحت مراكز الثروة والمال تقيس أرباحها بالساعات، وكأنها عدَّاد مجنون، يريد أن يسابقَ الزمن في سرعته؟! ولذلك كان بدهياً أن تعمل ثقافة الاستهلاك في هذه المجتمعات على استبدال الجيتو المعروف الذي تأسَّس عليه زمن الحداثة بالجيتو الجديد أنا أستهلك، إذا أنا موجود. لقد أصبح العالَم مثل قطار مندفع بقوَّة، وقد تعطَّلت مكابحه دون أن يهتمَّ أحد لمصيره أو لمصير مَنْ هم بداخله. وهكذا أخفقت مؤتمرات المناخ في بلورة أيِّ سياسات لوَقْف التدهور الخطير في أحول المناخ والطبيعة، كما أخفقت في خَلْق أيِّ فُرص للتنمية المُستدامَة في البلدان الفقيرة التي نهبتْها وما زالت بعد أن سلَّطت على شعوبها حُكَّاماً مأجورين وقَتَلَة، وأشعلت فيها حروباً لا تتوقَّف، في حين تحوَّلت الدِّيمقراطيَّة التي
كانت المجتمعات اللِّيبراليَّة تتباهى بها إلى لعبة في يد رأسمال المال والشركات الكبرى التي أصبحت تتحكَّم في صناعة الرأي العامِّ، ما جَعَلَ شخصية مهووسة بالمال والقوَّة مثل رونالد ترامب تصبح رئيساً لأقوى قوَّة في العالَم، لكي تواصل اندفاعها المحموم للبقاء على عرش القوَّة والتَّحكُّم بمصائر العالَم.

في هذه المتاهة الكونية التي وَجَدَ العالَم نفسه محاصَراً داخلها، كان لا بدَّ من عمل شيء لاستعادة التضامن الإنساني بعد أن غاب التضامن بين الدول والرَّأسماليَّات التي أراد كلٌّ منها أن ينجوَ بنفسه، وليكنْ من بعدها الطوفان. وفي حين يبشِّرنا البعض من السياسيِّيْن والفلاسفة بأن العالَم بعد كورنا لن يكون ما قبلَه، تأتي الأفكار التي طرحها الشاعر نوري الجرَّاح في مقالته التي حملت عنواناً دالّاً عن نوح وطوفان الوباء قيمتها المعنوية من خارج سياق طغيان حسابات الربح والخسارة لقوى الهيمنة الكبرى بغية استعادة المبادرة من قبَل الكُتَّاب والمفكِّرين والفنَّانين على اختلاف أعراقهم وجغرافياتهم وثقافتهم، لكي لا نواجه طوفاناً آخر، وبأسماء جديدة، على غرار ما تواجهه البشرية الآن.

احتفل المنتصـــرون في الحربَيْن الكونيَّتَيْن على أنقاض بلاد كثيرة وعشـــرات الملايين من الضـــحايا والمعوقين وملايين أخرى من النساء المغتصبات (خمسة ملايين امرأة اغتُصبت في ألمانيا وحدها من قبَل جيوش الحلفاء والسُّوفيات)، وجرى اقتسام العالَم وتوزيع الغنائم على المحتفلين بالنصر. لا جديد إذاً منذُ قابيل ونوح وأحلام الإمبراطوريات القديمة والجديدة، وبدلاً من أن تتمَّ إعادة ترتيب سُـــلَّم القِيَم الإنسانية في العلاقات الدولية تمَّ تأسيس نظام دولي قائم على المحاصصة وسلطة القوَّة من مجلس الأمن إلى هيئة الأمم المتَّحدة والبنك الدّوليّ وسواها من أنظمة التَّحكُّم والسيطرة العالَمية. إذاً ما الذي سيتغيَّر في العالَم إذا كانت الرَّأسـماليَّة المتوحِّشــة التي سـتحكم بعدُ العالَم بعدَ الوباء شُـيُوعيَّة أو رأسـمالية؟ وما الذي سيطرأ على وضع الضحية الإنسان في عالَم يزداد فيه توحُّش رأسمال ومحاولات السيطرة على العالَم؟

بعد الحرب الكونية ما الذي فعله مشـروع مارشـال على سـبيل المثال غير تنمية الرَّأسـماليَّات الأوربية لبناء شراكات جديدة في مواجهة المَدِّ الشُّيُوعيَّة، وتعزيز نفوذ الولايات المتَّحدة، وهيمنتها على المعسكر الرَّأسماليِّ الذي أنشأتْهُ لهذه الغاية، وما زال محكوماً بنفوذه المالي والعسكري والسِّياسـيِّ؟ ما العمل إذاً؟ هذا هو السـؤال الكبير والمُلِحُّ قبلَ كورنا وبعدَهُ. ما العمل لاسـتعادة المبادرة لبناء تضــامن إنســاني بين النُّخب الخيِّرة وصاحبة الضمير الحَيِّ في مواجهة غطرسة القوَّة والرأسمال المتوحِّش وتسليع كلِّ شيء، بما في ذلك الإنســان؟ هذا هو الامتحان الذي يسـتوجب موقفاً إنســانياً يؤكِّد أن طوفان هذا الوباء لم يكن ســوى نتيجة لطوفان آخر أكثر همجية وخطراً على مســتقبل الإنســـان وحياته يجب أن لا يبقى يتحكَّم بمصــائر البشـرية، خاصَّــة وأن هناك معركة أخرى تجري على هامش المعركة مع الوباء، هي معركة مراكز القوى الدّوليّة التي تعمل على توظيف المعركة الأولى لتحقيق انتصــارات على بعضـــها البعض دون أيِّ حسـاب للآثار الكارثية لهذا الوباء على الإنسـان والحياة في العالَم بعد أن انكشـفت اسـتثمارات رأسمال حتَّى في المجال العلمي والطِّبِّيِّ في مجتمعات، كانت تعتقد أن حياتها مؤمَّنة ضدَّ الأخطار.

سَرْدِيَّة إنسانية بديلة

ملامح خطاب ما بعد الوباء

نهلة راحيل

ميَّز الفيلسوف الفرنسي "جان - فرانسوا ليوتار" بين نوعَيْن من السُّرُود: السَّرْدِيَّات الكُبرى والسَّرْدِيَّات الصُّـغرى، فإذا "كانت السَّـرْدِيَّات الكُبرى تمثِّل كلَّ المكتسـبات الفكرية والسِّـياسـيَّة التي تحوَّلت بفعل الزمن إلى قوانين، ادَّعت امتلاكها للحقيقة، ومن ثمَّ للسـلطة، فإن السَّـرْدِيَّات الصُّـغرى هي كلُّ محاولة ناتجة عن مراجعة تلك المكتسـبات ومسـاءلة خطابها الإطلاقي ونَزْع الشَّـرْعَنَة عنها". وقد حاولت تلك المَرويات الكبرى - أو الشــارحة، كما تُسـمَّى- صـياغة التجارب التَّاريخيَّة، بمفاهيم نهائية حاسـمة في الفَهْم الإنســاني: الحقّ – الخلاص – الخير – السلام – السعادة - وغيرها، ممَّا جعلها عرضـة لشـكوك أصحاب المَرويَّات الصُّغرى الذين رأوا أنه "من خلال التاريخ وحده تتشكَّل المفاهيم الإنسانية، وتُفهَم".

ورغم أن الكثيرين قد اقترحوا أن يقتصـر دور تلك السَّـرْدِيَّات الصُّـغرى على نَقْد السَّـرْدِيَّات الكبرى وكَشْـف تحيُّزاتها، ومن ثمَّ تقويضـها وإزاحتها عن موقع الهيمنة، دون "أن تتحوَّل السَّـرْدِيَّات الصُّـغرى إلى سَــرْدِيَّات كبرى بديلة، تسـعى لقلب معادلة المركزي والهامشـي، فتتحوَّل هي ذاتها، فيما بعد، إلى مركز بديل، يمارس التهميش والإقصـــاء"، فإنه قد آن الأوان لِتَكوُّن مَرويَّات المثقَّفين والمناضـــلين والعلماء والأدباء - وغيرهم من القطاعات الفردية غير المنتمية لسـلطة رسـمية أو تيَّار إيديولوجي -

سَـرْدِيَّة "مركزية" بديلة، تُعاوِدُ التفاوض مع المعتقدات الإنسـانية التي تُعلي من "الإنسـان" فقط، وتُثبت تفوُّقه وقدرته على حماية وجوده.
في هذا الصدد، يجب أن يعود خطاب "الإنسانية" (Humanism) ليفرض نفسه على الساحة الفكرية والمجتمعية، وليزيحَ خطابات الشُّــمُوليَّة والشُّــيُوعيَّة والرَّأســماليَّة والاشــتراكية وغيرها من أنظمة براجماتية، تُعزِّز مصلحة الدول على حساب مواطنيها؛ فأزمة الوباء الحالية "كورونا" برهنت بوضوح على عَجْز العالَم عن التضـامن لمواجهة الأزمات القومية، وأظهرت الكراهية المضـمَرَة التي تغذِّي تلك الأنظمة غير القادرة على نصـر الإنسـانية، وذلك رغم الزعم الدائم بانفتاحها على قِيَم التكامل والمحبَّة والسلام والادِّعاء بمحاربتها كلّ ما يفرِّق بين البشر، فيعيق إرساء الدِّيمقراطيَّة وإنهاء العنصرية. فهل تكون تلك الجائحة "الكورونية" فرصــة أخيرة للتَّغيُّر الفكري لصــالح البشـرية والأصــول الأخلاقية، وكذلك لتأسيس سَرْدِيَّة بديلة، تعيد تعريف المفاهيم الطَّبقيَّة والعِرْقِيَّة والطَّائفيَّة والقومية حتَّى تكون قادرة على مواجهة الجشــع والغرور والفوقية، ومن ثمَّ، الرجوع إلى التكافل الإنســاني ومعاونة الأفراد على اختلاف ألوانهم وأعراقهم ودياناتهم ومعتقداتهم؟!
نتيجة لهذه الظروف السِّياسيَّة النَّفعيَّة، من تجاهل للإنسان واحتياجاته، لا بدَّ من ظهور سَرْدِيَّة فكرية، تسترجع القِيَم الإنسانية، وتُعيد للإنسان جدارتَهُ لأن يكون هو المعيار الأوَّل والأخير في الجهود التَّنمويَّة للدولة، فتتَّجه إصـلاحات الحكومات نحو الأخلاق والقِيَم بدلاً من الاقتصـاد والتجارة والسـلاح وغيرها من إجراءات تتَّخذها الأنظمة بدعوى الحفاظ على أمنها. فبعد أن تســاوى البشـــر أمام الأزمة الحالية، أصبح من الضـرورة إعادة صوغ القوانين والأفكار، لتبتعدَ - هي الأخرى - عن التصـنيفات العنصـرية القائمة على دونية بعض الشعوب وفوقية غيرها، والمُقَوْلَبَة في صور نمطية ثابتة مثل: "عالَم أوَّل وثانٍ وثالث"، و"دول متقدِّمة ونامية وفقيرة"، و"دول كُبرى وصُــغرى ومتوسِّــطة"، و"عِرْق ســامٍ وآريّ وزنجيّ"، و"رجل أبيض وأسود وأصفر".
وبما أن الصـوت لم يعد حِكْراً على الحكومات الفاعلة والمؤسَّـسـات الرَّسـميَّة، فإن الخطاب الفكري - ســواء التَّوعويّ أو التَّنبُّؤيّ - عليه أن ينشــغل بتشــكيل وعي جديد، يبتعد عن الطبيعة السُّــلطويَّة والإقصـائية، ويتَّجه نحو تحليل المسبِّبات التي أنتجت الأزمة، والكشـف عن المضـمَر وراء ما أظهرتْهُ القطاعات المؤسَّساتية من سلوكيات انتهازية في أثناء التعامل مع الجائحة - كلٌّ وفق ظروف بلده ونظام حُكمه - كشــفت عن أوهام أحلام الوحدة بأنواعها: الأوروبية أو العربية أو غيرها، ثمَّ يحاول هذا الخطاب البديل - بعد تفكيك تلك المركزيات - أن يُدشِّــن من جديد مفاهيمَ غير نمطية تتمركز حول الاحتياجات والاهتمامات والقدرات الإنســانية، وتتناول العقل البشــري في عموميته دون ارتباط بأمور إيمانية أو رؤى خرافية أو مواقف إيديولوجية أو اتِّجاهات سياسية.
هذه السَّرْدِيَّة الفكرية المواجِهة لا يملك خطابها الحالي سوى الابتعاد عن أيَّة إيديولوجيا متعالية أو رؤية أُحاديَّة، والاقتراب بمرونة من الاعتراف بقيمة الاختلاف والتَّعدُّديَّة الثَّقافيَّة/ السِّياسيَّة، فالسلوك الجَمْعِيُّ المعبِّر عن التأثير والتَّأثُّر بين الأفراد - أيَّاً كانت انتماءاتهم - هو الأبرز في هذا المشــهد المفاجِئ، ومن ثمَّ،
فالمصـلحة العامَّة غير المنحازة لدِيْن أو قومية أو جنس هي ما يجب تجسيدها في بنى معرفية متشـابكة، تدعو إلى المشاركة. وعندما يمكن للخطاب البديل/ التابع - المؤسَّس بأقلام المفكِّرين والمثقَّفين والأدباء - أن ينهض ويقدِّم رؤية عالَمية، تسـهم في تطوير الوعي الإنســاني لدى الشـعوب والحكَّام، فإنه قد يتحوَّل بمرور الوقت إلى سَـرْدِيَّة كبرى مركزية، يُفكِّكها القادمون، ويراجعون مقولاتها التي ولَّدتْها الصـراعات

القِيَمِيَّة المصاحبة لانتشار وباء كورونا المستجدِّ الذي أوضح عَجْز الأنظمة السِّياسيَّة والاقتصادية عن التكاتف لمواجهته.
وانطلاقاً من أن الإنسان هو المبدأ الأوَّل والأخير الذي يُعنَى به الخطاب المضادُّ الذي يجب أن يتشكَّل بعيداً عن شروط الخطاب المركزي الذي تفرضه السلطات، يمكن أن نضع إطاراً مفاهيمياً - تخييلياً - جامعاً، يحدِّد بعض سِماته الفكرية الداعمة للتَّقاطعيَّة الهوياتية/ الثَّقافيَّة، ويبلور ملامح رواته كأصوات أساسية في عملية التغيير السِّياسيِّ والاجتماعي الآخذة في التبلور:
يتشكَّل الخطاب من رؤى المبدعين وأصوات المفكِّرين، بوصفهم البديل الأوَّل للخطاب الرَّسميِّ، والمعبِّر الرئيس عمَّا خلَّفتْهُ الجائحة من آثار على الثقافات والشعوب، والكاشف الأمثل عن الإدراك الجماهيري للأزمة.
يتمحور الخطاب المجابه حول المخاطر النَّفْسيَّة والبيئية التي تُهدِّد صحَّة البشر في جميع الأنحاء، والمخاطر الاقتصادية التي طالت الأفراد في غياب رعاية حكوماتهم التي لم تلتفت إلى المعاناة البشرية اليومية وقت الأزمة.
يواجه الخطاب المشهد العالَميَّ بأكمله، بتخلِّيه عن القِيَم الإنسانية، وبَثِّهِ التصريحات العنصرية التي وصلت إلى الدعوة لتجربة اللَّقَاحات على بعض الدول الأفريقية، رغم التَّشدُّق الدائم بشعارات السلام والتضامن والدِّيمقراطيَّة والعدل.
يواجهه كذلك بمُسبِّبات العَجْز عن احتواء الأزمة، والتي تتمحور حول انشغال معظم الأنظمة الحاكمة وأتباعها - في الغرب والشرق - بأطماعها الاقتصادية، وإهمال سلامة الفرد وأمنه.
يكشف الخطاب، بالتالي، عن سقوط وَهْم مركزية الحضارة الغربية ونقائها بعد اتِّخاذ دولها مواقف انتقائية وظالمة تجاه بعض الدول المتضرِّرة من الجائحة.
يطرح آليات معرفية بديلة، تمرِّر خطوات مقترحة - في شكل إجراءات وقائية وسلوكيات عقلية - يمكن اعتمادها لمواجهة أيِّ أحداث عالَمية مفاجئة؛ كالكوارث الطَّبيعيَّة والمنعطفات الوبائية التي تتجاوز الحدود بين الدول والبشر.
يعيد الخطاب صوغ قوانين تساوي بين البشر، وبالأخصِّ في الظرف الطارئ كانتشار الفيروسات والأوبئة، واقتراح مفاهيم عادلة، تجرِّد الإنسان عن كلِّ التصنيفات العنصرية أو التَّمييزيَّة.
يراجع الخطابات المرافقة لظهور الوباء، كالتقارير الإعلامية والطرائف الساخرة على منصَّات التواصل الاجتماعي، واليوميات الراصدة لمشاعر الخوف خلال فترات العَزْل وغيرها من خطابات - معلوماتية وإبداعية - جاءت على هامش الخطاب الرَّسميِّ.
يُفكِّك أدبيات الدِّيستُوبيَا العالَمية التي تضمَّنت التَّكهُّنات المستقبلية بانهيار المجتمعات وتجرُّدها عن الإنسانية، بسبب الكوارث البيئية والسياسات الشُّمُوليَّة ووسائل القَمْع بصورها المختلفة.
يعرض الخطاب، بجانب النتائج العلمية التي قام بها المتخصِّصون والخبراء، تسجيل لشهادات المصابين وذويهم، ولنماذج من أقوال أهالي المتوفِّين جرَّاء المرض، بوصفها تطبيقات راصدة لمشاعر الخوف والوحدة والقلق وأحياناً الخزي والعار، وغيرها من خبرات إنسانية، ستُسهم مستقبلاً في فَهْم المرض ودراسة تداعياته.
من هنا قد تكون الفلسفة الإنسانية هي المظلَّة الأنسب لنُمُوِّ مثل هذا الخطاب، وتشكُّل مروياته؛ فمن المعروف أن المذهب الإنساني قد انطلق تاريخياً من إيطاليا منذُ النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وانتشر منها لاحقاً إلى بقية دول أوروبا، وكان هدفه الرئيس هو التَّحرُّر من سلطة اللَّاهوت وتطوير الروح النَّقْدِيَّة للمفاهيم كافَّةً، من أجل التأكيد على قيمة الإنسان وكرامته الأسمى، فجاءت الحركات

الإنسانية كافَّةً - التي ازدهرت خلال عصر النهضة - لتتمركز حول الاحتياجات الإنسانية والانحياز إلى الفرد بعيداً عن أيِّ اعتبار آخر (دِيْن أو لون أو وطن أو جنس أو قومية).

فبروز الإنسـانية وتراجع البراجماتية هو الطَّرْحُ المُلِحُّ الذي يجب أن يتجسَّـد في هذا الخطاب البديل المُتشكِّل؛ حيثُ أكَّد الوباء المتفشِّي وحدة المصير الإنساني أمام المرض ومصيره المحتوم الذي يربط الفرد بغيره في أماكن بعيدة، فتجلِّيات الأزمة تنعكس على الإنسان عموماً، بوصفه الضَّحيَّة الأولى التى تواجه الأزمة الوجودية التي فرضـها الوباء من ناحية، وتواجه الخسـائر الاقتصـادية والمعيشـية التي فرضتْها الأداءات الحكومية في بلاده من ناحية أخرى.

ومثلما فرض التَّحوُّلُ الرَّقْمِيُّ نفسَـهُ على معاملات المؤسَّسـات الرَّسـميَّة بالدول المختلفة ضـمن الإجراءات الوقائية لمواجهة فيروس كورونا الجائح، فقد أصبحت الفضاءات الرَّقْمِيَّة التَّفاعليَّة هي الأُفق المعرفي الذي يُتيح إنتاج هذا الخطاب وتلقِّيه؛ حيثُ مَحَتِ العولمة الثَّقافيَّة الحدود المكانية والحواجز الفكرية بين الشعوب، وخلقت استراتيجيات حديثة للتواصل بينهم، فكانت وسائل التواصل الرَّقْمِيِّ القوَّة الفعلية في أيدي صائغي هذا الخطاب، لوضع مفاهيم غير تقليدية، تسمح بالتَّعدُّديَّة الثَّقافيَّة والتخالط بين الأنماط السُّلُوكيَّة المختلفة، وتجسِّد حاجات الإنسـان ورؤيته وتطلُّعاته، بشـكل يضـمن عدم التَّبعيَّة للآخرين.

وفي النهاية، فإن المَحكِيَّات الصُّـغرى التي تبرز خلال الأزمة الحالية، وتعتلي - تدريجياً - "المركز البديل" البعيد عن المركز الرَّسميِّ سيكون لها بالطبع دورها في المراحل القادمة، وليس المرحلة الآنية غير المكتملة، بصـفتها المكرِّس الأوَّل للدور الإنسـاني المنفتح على الآخر، والسـاعي الحقيقي لتفادي الأفكار العنصـرية التي تزداد وقت الأزمات العالَمية. ومن ثمَّ، فإن توصـيفها لهذه الظاهرة لا يجب أن يقتصـر على إدانة الأنظمة السِّياسيَّة أو قرارات الحكومات، بل على خطابها أن يوثق حالة التَّغيُّرات الفكرية والمعرفية الناتجة عن هذا الظرف الطارئ سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات، وأن يعيد إحياء الشعور الجَمْعِيِّ الإنساني الذي ولَّدتْهُ أزمة وباء كورونا التي لم تُفرِّق في تفشِّيها بين أنواع البشر أو تصانيف الدول.

مراجع:

جان - فرانسوا ليوتار: في معنى ما بعد الحداثة، نصوص في الفلسفة والفنِّ، ت: السعيد لبيب، المركز الثَّقافيُّ العربي، الدار البيضاء، ٢٠١٦.

ج. م. بيرنشـتاين: المَروِيَّات الكُبرى، ضـمن: بول ريكور وآخرون: الوجود والزمان والسَّـرْد، فلسـفة بول ريكور، ت: سعيد الغانمي، المركز الثَّقافيُّ العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٩.

محمَّد الشَّحَّات: سَرْدِيَّات بديلة، مقاربات ثقافية، أزمنة للنشر، عمَّان، ٢٠١٩.

معن الطَّائيّ: السَّـرْدِيَّات المضـادَّة، بحث في طبيعة التَّحوُّلات الثَّقافيَّة، المؤسَّسـة العربية للدراسـات والنشر، بيروت، ٢٠١٤.

قبل أن نطأَ قَعْرَ الهاوية

يوسف وقَّاص

لم يخطِئ العلماء والمفكِّرون لسنوات في الإشـارة إلى القضـايا التي تؤثِّر على حياتنا وبيئتنا، ولطالما حذَّروا من قُرب وقوع كارثة عالَمية. مع ظهور وباء الفيروس التَّاجيِّ، اتَّخذت هذه القضـايا جانباً ملموسـاً ومُلِحَّاً على حَدٍّ سـواء، مع التركيز على علاقتنا الإشـكالية مع البيئة، التي لم تجد حلَّاً لها حتَّى

الآن. ولكنْ، في كلِّ هذا، كان هناك شـــيء مفقود في هذه النداءات والتحذيرات، وهو تضـــامن هذه الأصوات مع بعضها البعض، لتكون أكثر فعالية، أو على الأقلِّ أن يكون لها رأي في هذا المجال.

في البداية، عندما تبلورت أبعاد هذا الوباء، وتحوَّل إلى جائحة عالَمية، فكَّر الكثيرون فيما إذا كان سيزداد سوءاً، بل تجرَّأ البعض على اعتباره أمراً بسيطاً وعابراً، وبالتالي، يمكن المضيُّ قُدُمَاً في تدمير الغابات الاستوائية الماطرة، وانبعاث الكربون وأكاسيد الكبريت والغازات الضَّـارَّة الأخرى للإنسـان والأرض. يُذكِّرنا هذا الســـلوك على الفور بمَثَلِ "المكفوفين"، وهي حكاية إنجيلية رمزية ذات مغزى أخلاقي، التي جسَّدها الرَّسَّام الهولندي بيتر بروغل الأكبر في لوحة، تحمل نفس الاسم في عام ١٥٦٨، محفوظة حالياً في متحف كابوديمونتي الوطني في نابولي، حيثُ حاول بروغل من خلالها إظهار مدى الالتباس الذي يحيط بالوجود البشـري. التباس ليس من النادر أن يرتبط بالغباء الشـديد، في المقاصـد، وفي الفكر.

في هذا السياق، استعارت وسائل الإعلام، ولكنْ، أيضاً سياسيون رفيعو المستوى، الذين لا يعرفون لمَنْ ينســـبون هذه الكارثة الهائلة، مجاز "الحرب"، دون تحديد العدوِّ الذي يتعيَّن محاربته، طالما أن الفيروس التَّاجيَّ؛ لا تُمكِنُ رؤيته بالعين المجرَّدة. لقد اعتاد الناس دائماً على المعارك التَّقليديَّة، حيثُ يلتقي جيشـان محدَّدان، ويتحاربان بشراسة باسم الدِّيْن أو العقيدة أو المصـالح الوطنية، وحتَّى في أكثر الحالات غموضـــاً، مثل الحرب على الإرهاب، على الرغم من عدم وضـــوح النظير، مع ذلك كان ثمَّة اسم، أو بالأحرى أسماء، مع صور تُظهِرُهم بلَحْمِهِم ودَمِهِم وأسلحَتِهِم. إنما في هذه الحرب، فلا تُمكِنُ رؤية العدوِّ إلَّا بالمجهر، وبالإضـــافة إلى ذلك، لا يميل إلى التفرقة العنصـــرية والدِّينيَّة، فهو يصـــيب الجميع دون تمييز في العقيدة أو الانتماء القومي.

إذنْ، مع الفيروس التَّاجيِّ، تغيَّر الخطاب جذرياً، لأن العدوَّ هنا لم يقتصـر، فقط، على تهديد حياتنا، ممَّا أجبر الجميع على عزلة جماعية، لا شـبيه لها في تاريخ البشـرية، ولكنه شـوَّش معتقداتنا أيضـاً، وعلى رأسها الفرضية التي تدَّعي سيادتنا المطلقة على الأرض، وقبل كلِّ شيء ما يُسمَّى التضامن الإنساني. إذ فجأة، رأيْنا حوادث قرصـــنة بين الدول التي كانت حتَّى يوم أمس تفتخر بمعاهدات وثيقة، وفُوجِئَت الحكومات، وأخذ الناس يتشـــاجرون من أجل لفَّةٍ من ورق التواليت. ثمَّ، بدأت الدول، إزاء هذه الأنانية المتفشِّـية، تتصـرَّف من تلقاء نفسـها، حيثُ لم يجد حتَّى أعضـاء الاتِّحاد الأوروبي خطَّاً مشـتركاً فيما بينهم، بل تبادلوا الاتِّهامات، وانكفؤوا على أنفسهم.

الآن، يعترف الجميع بأننا على نفس القارب، وأنه دون تعاون، فإننا نخاطر بالغرق، واحداً تلو الآخر. لذلك، يجب أن نتَّحد، ونمنح زخماً أكبر لأعمالنا وأصواتنا. ولكنْ، هل سيكون هذا سهلاً؟ في الواقع، من المبكِّر الادِّعاء بالتفاؤل أو التشـاؤم. فالوضـع لا يزال غامضـاً، ونحن نعرف إلى حَدٍّ ما المنظور الذي ينتظرُنا من السِّياسيِّيْن، أولئك الذين يتولَّون زمام الأمور، وهو، بلا شكٍّ، التضحية بالإنسان على مذبح الاقتصاد. بعد اكتشاف أميركا، انتصر الغُزاة الإسبان على السُّكَّان الأصليِّيْن بفضلِ الفيروسات، ولا أسـتبعد وجود فائزين جُدُد في المعركة الدائرة حول فيروس كورونا، الذي يمكن أن يكون الصِّـين أو الأمازون أو نيتفليكس، والذي يبدو أن هؤلاء الفرســان الثلاثة، كما في سِـفْر الرؤيا الذي يُبشِّـر بنهاية العالَم، هم مَنْ سيتولَّون المسؤولية، ولكنْ، مَنْ يدري بأيِّ ثمن؟

كان الاتِّجاه، على وجه الخصوص في العقود الثلاثة الماضية، هو خَلْق كتلة بشرية منخرطة باستمرار في العمل والاسـتهلاك، وتَرْك حيِّز صـغير للثقافة، ومن هنا تشـكَّلت الحكومات والحكَّام الفظِّين وشـبه المتعلِّمين، مع بعض النُّدرة ممَّنْ يحملون قِيَماً سـليمة، ولهذا السـبب، شـــهدْنا في الآونة الأخيرة ردود فعل، مردُّها الجهل فقط، وعدم الرغبة في الفَهْم والقدرة على شـرح ما يجري للمواطنين. لقد أصبح من

الواضح الآن أننا غير قادرين على مواكبة سرعة التَّقدُّم المتسارعة للغاية، والآن لا نعرف كيف نتوقَّف، أو على الأقلِّ كيف نتصرَّف أمام مثل هذه المواقف. دول، مثل الولايات المتَّحدة، لديها جوائز نوبل أكثر من جميع الدول الأخرى مجتمعة، ومع ذلك،
فهي أكثر الدول عدائية بالنسـبة إلى العلوم، والعدائية ليسـت متعلِّقة بالعلم فقط، كما يقول جاريد دايموند، أحد أكثر العلماء شعبية في العالَم، الأمر يتعلَّق بمسار حقيقي مناهض للفكر.

يقول دايموند: "إن أصـل هذه العداء للفكر، الذي أصـبح روتيناً، يمكننا أن نشـرحه عبر الفرضـيات فحسـب، وأحدها مرتبط بميلاد الولايات المتَّحدة نفسـها، التي أسَّسـها المهاجرون الأوروبيون بحثاً عن الحُرِّيَّة الدِّينيَّة. لم يكن هناك كنائس كبيرة كما هو الحال في أوروبا، لكن، كان هناك عدد لا يُحصـى من المجتمعات الانشـقاقية الصـغيرة. في القرون التالية كانت لدينا حركات دِينيَّة أصـولية أكثر من أيِّ دولة أخرى في العالَم: المورمون، السَّـبتيِّيْن، شـهود يَهْوَه .. إلخ. والنتيجة هي مناهضـة الفكر، التي غالباً ما ترتبط بالبدائية الدِّينيَّة". وما يؤيِّد هذا الكلام، أن مستودعات الأسلحة في نيو أورليانز نفدت في غضون بضعة أيَّام. ومن الواضح أنه لا يمكنكَ إصابة الفيروس باستخدام سميث آند ويسون، ولكنْ، بعد قرون من التنوير، عاد الناس فجأة إلى التفكير بنفس الطريقة البدائية. وفي الوقت نفسه، اختار الكونغرس، من جانبه، تحرير إعانات البطالة لزيادة الانقسـام في المجتمع، وحثِّ أرباب العمل لتسـريح الموظَّفين دون ضمان إعادة التوظيف بعد الأزمة. ولعلَّ هذا أوضح مثال على السياسة اللِّيبراليَّة الجديدة التي تغامر منذُ عقود بمصـير الشـعوب، وتقود العالَم إلى حروب متواصـلة، من أجل مصـالحها الخاصَّـة، دون أن تعبأ بحياة الملايين من البشر الذين يعانون من التبعات الكارثية لهذه السياسة اللَّاأخلاقية.

في هذا السـياق، يتسـاءل الفيلسـوف وعالِمُ الأنثروبولوجيا الثَّقافيَّة والمحلِّل النَّفْسـيُّ والأكاديميُّ أمبرتو غاليمبرتي في مقال نَشَـــرَهُ موقع (ACLI، جَمْعِيَّة العمَّال المســيحيِّيْن الإيطاليِّيْن) "إذا كان هذا هو الإطار، فهل يعني ذلك عدم القدرة على التَّطوُّر كبشـر؟ لقد نشـرت المسـيحية تفاؤلاً في الغرب عندما علَّمَتنا التفكير بهذه الشروط: الماضي سيِّئ، والحاضر افتداء، والمستقبل هو الخلاص. هذه الصيغة، في اعتبار الوقت، تبنَّاها العلم أيضـاً، والذي بدوره يقول إن الماضـي هو الجهل، والحاضـر هو البحث، والمستقبل هو التَّقدُّم.

حتَّى كارل ماركس، وهو مسـيحيٌّ أيضـاً، كان يَعِظُ بأن الماضـي هو ظُلْمٌ اجتماعي، والحاضـر سـوف يُفجِّر تناقضـات الرَّأسـماليَّة، والمسـتقبل سـيُحقِّق العدالة على الأرض. بينما سـيغموند فرويد، الذي أَلَّف أيضـاً كتاباً ضـدَّ الدِّيْن، يعتبر بأن الصدمات والعُصَاب تتكوَّن في الماضـي، وأن الحاضـر سـاحرٌ، وأن المستقبل يشفي. الأمر ليس كذلك. المستقبل ليس وقت الخلاص، ليس الانتظار، ولا الأمل. المستقبل هو وقتٌ مثل أيِّ وقت آخر. لن تكون العناية الإلهية التي تأتي إلينا وتحلُّ مشـــاكل جمودنا. دعونا نأمل، دعونا نتمنَّى، دعونا نرغب: كلُّها أفعال سـلبية. نقف مكتوفي الأيدي والمســتقبل سـيُعيننا: الأمر ليس كذلك".

من ناحية أخرى، جعلنا هذا الوباء نفهم أن الآفات لا تأتي من لا شـيء سـوى من سـلوكنا تجاه أنفسـنا، ونحو البيئة التي نعيش فيها. نحن نعلم الآن أن هناك صـــلة بين الوباء والعلاقة مع البيئة، ولكنَّ هذا لا يعني أننا سـنذهب في الاتِّجاه الأكثر ملاءمة. الطُّرُق كثيرة، ولكنْ، علينا اختيار الطريق الصـحيح. بعد الحرب العالَمية الثانية، مع خطَّة مارشـــال، أعطت الولايات المتَّحدة الفرصـــة والأداة للقضـــاء على أمراض أخرى، لم تكن أقلَّ خطورة من فيروس كورونا، إنها "عبقرية الشَّرِّ" الأوروبية، مصدر حربَيْن عالَميَّتَيْن، وثلاث أيديولوجيات شمولية خلال خمسة وعشرين عاماً.

لكنْ، كان ثمَّة بُعد آخر من الخطَّة الذي تمَّ تجاهله إلى حَدٍّ كبير: الاتِّصـالات، أي الدعاية الضـخمة التي لم يسبقْ لها مثيل في وقت السِّلْم، لا قبل ولا بعد، مثل استخدام عمليات الوسائط المتعدِّدة أو السينما أو المعارض أو الملصقات أو البرامج الإذاعية، التي أوصلت إلى كلِّ مصنع أو مكتب أو مدرسة أو منزل، برسالة مناسبة لكلِّ مستوى من مستويات المجتمع.

على نفس الخُطى، يكرِّس العديد من الأشخاص، بما في ذلك هانز أولريش أوبريست القَيِّمُ الفنِّيُّ والناقدُ ومؤرِّخُ الفنِّ (زيورخ ١٩٦٨)، الوقت والطاقة لمبادرات ثقافية مهمَّة، تتكوَّن من مشـــاريع هامَّة قائمة على الحاجة إلى تبادُل الأفكار والنوايا والاســـتراتيجيات مع مجتمع فكري كبير إلى حَدٍّ ما، وللرَّدِّ على العديد من الســـيناريوهات القاتمة التي يمكن أن يعانيها عالَم الفنِّ والثقافة بشـــكل عامٍّ. يأخذ أولريش كنموذج مشـــروع الأشـــغال العامَّة للفنون (PWAP)، البرنامج الفيدرالي الذي روَّجت له الولايات المتَّحدة في عام ١٩٣٣، وإدارة تقدُّم الأشغال (WPA) التي أنشأها روزفلت في عام ١٩٣٥. المبادرة التي أرادتْها الدولة تهدف إلى رعاية الفنِّ، وتشـــجيع ظهور المواهب الشَّـــابَّة، وزيادة معرفة الجمهور بالرسم، وتعزيز علاقة أكبر بين الفنَّانين
والمجتمع.

إذا كان من الممكن إطلاق برنامج واحد فقط من البرامج التِّكنوقراطيَّة التي تمَّ الإعلان عنها هذه الأيَّام بشكل واضح، بقيادة شخصيات كاريزماتية، فربَّما يمكن للاتِّحاد الأوروبي أن ينتزع مبادرة سياسية من أيدي الشَّـعبويِّيْن ويدفع "عبقرية الشَّـرِّ" الأوروبي إلى قفصـه - المتمثِّل في الأحزاب المناهضـة للاتِّحاد الأوروبي - حيثُ كان قد تمَّ تحديدهم بدقَّة من قبَل الأميركيِّيْن الذين أطلقوا خطَّة مارشال.

إن الفيروس التَّاجيَّ مسـتجدٌّ تماماً، وهو يعني أن وجودنا يعتمد على "القفزات" التَّطوُّريَّة التي لا يمكن التَّنبُّؤ بها، والتي يمكن أن تُغيِّر التاريخ البشري بعدما أنزلت الضربة القاضية بالعولمة.

الآن يدعوننا للبقاء في المنزل. لكنَّ هذا لن يكون كافياً. يجب أن نتفاعل مع العزلة، وقبل كلِّ شـــيء يجب أن نقف على أقدامنا، وهذا لن يحدث دون حركة قوية، تُعيد للفكر أولويَّته ومكانته اللَّائقة.

هزيمة القوَّة

صراع البرهان والعرفان

محمَّد صابر عبيد

تكوَّنَ مفهومُ القوَّة في هذا الكون لأجل أن يكون الجبهةَ المفاهيميةَ الأعلى والأعنف والأكثر هيمنة وحضوراً وتأثيراً في الحياة، وتحويل هذا المفهوم إلى سلطة كان ومازال هو الغاية القصوى التي يبلغها قادةُ القوَّة ورجالُها وعرَّابُوها وسَدَنَتُها، للسيطرة على مُقدِّرات العالَم بموارده البشرية والطَّبيعيَّة الهائلة، وتوجيهه بحســـب النَّظريَّات والمناهج والمذاهب والتَّيَّارات والمصـــطلحات التي يعتقدون بصـــوابها وبإمكاناتها غير المحدودة لتنفيذ المقاصد والأهداف الكبرى، وبرزت على هذا الأساس فكرة الاستعمار، وما أعقبها من أفكار، انتظمت في هذا السياق فيما يطلق عليه منهجياً "النِّيُو" أو"الما بعد".

يتلازم مفهوم القوَّة مع مفاهيم أخرى مُحايثة على أكثر من مسـتوى وأكثر من صـعيد، فثمَّة مسـتوى، يقرن القوَّة بالعلم والمعرفة، ومستوى يقرن القوَّة بالمال والسلطة والجاه والأسلحة الفتَّاكة التي تُوصَف بأسلحة الدمار الشامل، ومستوى آخر يقرن القوَّة بالنَّظريَّة والمنهج والمصطلح والبرهان، وثمَّة مستوى يتجاوز هذه المحطَّات كلَّها، ويزيحها عن درب مفهوم آخر، يتحرَّك على صـــعيدٍ مختلفٍ تماماً، يتعلَّق بالغيبيَّات، ويرى أن لا قوَّة تســـمو على قوَّة العرفان حين تتوقَّف ســـكَّة البرهان، فحين تُخفق الحلول

التابعة للعقل البشريِّ أيَّاً كان مصدرها، وأيَّاً كانت طبيعتها وتفاصيلها الأرضية، فلا مناص من اللجوء إلى الحلِّ العرفانيِّ الحاسم، وهو يتعلَّق بالإيمان القائم على أن كلَّ ما يحصل للبشر والبشرية هو نعمةٌ مَنَعَتْ ما هو أبشع منها ضرراً في مقولة شهيرة ومعروفة، هي "دفعَ اللهُ ما كانَ أعظم"، على نحو يجلب الطمأنينة والقناعة "التي هي كنزٌ لا يفنى" فيتعايش الإنسان مع ما يصيبه، ويحمد اللهَ على كلِّ شيء أوَّلاً وآخراً.

تشترك الأساطير القديمة والملاحم الكبرى والأديان بمختلف أشكالها ومصادر انبعاثها في تقديس العرفان والبرهان معاً، لكنَّها تعطي العرفان قيمةً أعلى، القوَّة الأرضية الملموسة المَرئيَّة في البرهان، لكنّ القوَّة الخفيَّة الغامضة السِّحْرِيَّة الأعلى في العرفان، لأنّ البرهان مهما بلغ من قوَّة العلم والمعرفة والنفوذ المادِّيِّ والبشريِّ والفتوحات والكشوفات العقليَّة النَّظريَّة والإجرائيّة لا بدَّ وأن يقف عند حَدٍّ معيَّن، لا يمكن أن يتخطَّى فيه طاقته البشريّة المُقدَّرة له مهما كانت كبيرة وجبَّارة وهائلة وثريَّة، وحين يُمتحَنُ العقل البشريُّ في ظرف خاصٍّ امتحاناً قاسياً، يفوق قدراته، فيستنفرُ ما لديه من طاقات حتَّى آخرها، ويعصرها عصراً، فلا يجد حلَّاً، فإنه يلجأ حُكْماً للغيب، كي يعثرَ على حلٍّ مجهول، لا يعرف له سبيلاً سوى الانغمار الاستعطافيِّ التَّوسُّليِّ في فضاء العرفان.

بما أنّ القوَّة هي واقع ملموس مَرئيٌّ، فإنه رديف البرهان العقليِّ القائم على خطوات منطقية عالية الحجاج والإقناع باستخدام أدوات رياضية، لا سبيل إلى دحضها، فإن العرفان هو عمل يتحوَّل من مجال العقل إلى فضاء الروح، ويحتاج إلى تدخُّل المتخيَّل في حساسيَّته الصُّوفيَّة، وقد حفَّزت الأديان بمختلف أنواعها وأشكالها ومصادرها على تفاعل هذه الثُّنائيَّة لبلوغ مرحلة، تتمكَّن البشرية فيها من إيجاد الحلول لمشاكلها المستعصية، إذ حين يتوقَّف العلم عند حدود معيَّنة في ظرف معيَّن، لا يمكنه تجاوُزها لا بدَّ من الاستعانة بالخيال في السبيل نحو استحضار آليات العرفان، وبما أن فضاء العلم يستبعد الخيال في مساحات كثيرة من فعالياته فإنّه لن يتمكَّن من تجاوز الحدود المنطقية الإجرائية للمنجز العلمي، وهو عادةً ما يتوقَّف عند نقطة مُعيَّنة، تفرغ فيها النَّظريَّات من ذخيرتها العلمية الفاعلة في الميدان حتَّى وإن لم تنجح في حلِّ كلِّ المشكلات التي تحتاج إلى حلٍّ، وهنا لا بدَّ من تفعيل عنصر الخيال "العرفاني" لاقتحام ما لم تجرؤ النَّظريَّات على اقتحامه بسبب توقُّف وسائلها الإجرائية التَّقليديَّة عن البحث، والتَّوغُّل في مجاهيل، لا يمكن فَتْحها إلَّا بالحَدْس، واستخدام طاقات غير طبيعية، لإنجاز كشوفات باهرة، تجد الحلول الناجعة لما كان عَصِيَّاً على الحلِّ قبل حين.

لا شكَّ في أن العلم يبتكر ويخترع ويكتشف ما تحتاجه الحياة في ظلِّ ظروف مناسبة ومواتية وصالحة، تنهض غالباً على مقولة "الحاجة أُمُّ الاختراع"، إذ لا يفكِّر المبتكِر أو المخترِع أو المكتشِف بما يريد أن يبتكرَهُ أو يخترعَهُ أو يكتشفَهُ إلَّا حين تُلحُّ الحاجة على ذلك، بحيث يتحوَّل هذا المبتكِر والمخترِع والمكتشِف إلى مُخلِّصٍ ومنقذٍ، بعد أن ينجح في وضع حَدٍّ لمشكلة مستعصية، تُعيق حركة البشرية والحضارة إلى أمام، وقد يقود هذا إلى المضيِّ في سُبُلٍ أخرى، تتكشَّف وقت العمل نحو اختراع ما يُشبِعُ الحاجة الراهنة، ليعبرَ حدود

الحاجة، ويُسهِمَ في إنجازٍ غير مسبوق، بوسعه أن يحلَّ مشكلات مستقبلية بطريقة استباقية تنبُّؤيَّة.

تحرَّكت الطبيعة هذه المرَّة على نحوٍ مختلفٍ تماماً، ووضعت العلم في زاوية حرجة، فاجأتْ حِراكَهُ المعرفي وتِقَانَاتِهِ ومنجزاته وغروره، وبدأت بامتحان قدراته على التَّصدِّي والمقاومة، والبحث عن حَلٍّ لمقاومة عدوٍّ مجهولٍ، اسمه "كوفيد ١٩" يضرب الآن في الصميم على مستوى الإصابات والوفيات وتحطيم المعنويات، ويتجوَّل بحُرِّيَّة كافية في أكثر أصقاع العالَم تقدُّماً علمياً ومعرفياً ونُظُماً صحِّيَّة راقية، في قلب أوربا والولايات المتَّحدة الأميركية، وقبلها في الصين واليابان وكوريا الجنوبية، وبعدها

في العالَم كلِّه تقريباً بلا استثناء وبلا تمييز وبلا هوادة، فضرب بذلك مثلاً مضادّاً ومُحيِّراً على توحيد العالَم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً تحت شمس الموت اللّاهبة.

إنّ الصراع التَّقليديَّ المعروف منذُ بدء الخليقة بين الحضارة والطبيعة هو صراع ضروري لأسباب كثيرة، تتعلَّق بضرورات الحياة نفسها، ويمكن فَهْم ظهور الجائحات على مرِّ التاريخ بأنها نوع من دفاع الطبيعة عن نفسها، لفرض معادلة مناسبة لاستمرارية الحياة، فالطبيعة تدافع عن نفسها ضدَّ الحضارة كلَّما شعرت أنّ الحضارة تتغوَّلُ أكثر ممَّا يجب في تدمير عناصر الحياة الصافية والنظيفة في الطبيعة، فالحضارة دائماً تغتصب الفضاءَ والطبيعةَ، وتُقيم ناطحات السحاب والمشاريع الصِّناعيَّة العملاقة على أنقاضها، كي يتحقَّق لها ما تريد، وتعبر من فوق الممنوعات، وتستبيح الخضرة والماء والهواء النَّقيَّ، ولا تترك وراء عواصفها المدمِّرة سوى مزيد من التَّلوُّث والمجاعة والموت.

قد يتبادر إلى الذهن سؤال إشكاليٌّ هنا عن طفولة الطبيعة وشيخوختها، هل الطبيعة في طفولة دائمة أم أنها تشيخ أيضاً؟ وهل تُعدُّ الحضارة صاحبة اليد السوداء في الدَّفْع بالطبيعة نحو هذه الشيخوخة؟ وهل يمكن استخدام العلم لأجل تأجيل هذه الشيخوخة ما استطاعت وسائل المعرفة الحديثة والعلم الحديث إلى ذلك سبيلاً؟

يُجدِّد العلم بلا شكٍّ شبابه باستمرار على حساب شيخوخة الطبيعة، وربَّما يُخفق بعد فوات الأوان في تعمير ما خرَّبه من جسد الطبيعة، كي يضمن مزيداً من الشباب في حيواته وأدواته وإجراءاته، على النحو الذي يدفع الطبيعة، كي تثورَ وتضربَ إمبراطورية العلم في الصميم، وتشلَّ طاقة البرهان في أرجائها، فهندسة الطبيعة تقوم أساساً على معادلة متساوية الجناحَيْن، لا تقبل النقاش أو السِّجال أو التوافق أو التآمر أو إعادة التشكيل، وهي أنْ تُوفِّر لنُزلائها من البشر والحيوانات والنباتات المختلفة "وربَّما حتَّى الجمادات" ما يجعلها قابلة للحياة، وحين يختلُّ طرف من طَرَفَي المعادلة لا بدَّ من عملية جراحيَّة، تنطوي أحياناً على تضحيات كبيرة، لأجل الحفاظ على حياة أكبر لآخرين عالقين على شفا الموت.

يمكن وصف "الثروة" بوصفها أحد الأدوات اللّازمة لإدامة الشباب في مرافق الطبيعة المختلفة، وهي تتعرَّض الآن في ظلِّ "كورونا" للنفاد والإفلاس، ومن ثمَّ العودة إلى المربَّع الأوَّل الموصوف بـ "البدائية" الأولى، بلا علم ولا قوَّة ولا ثراء ولا بذخ ولا نفوذ ولا رفاهية، وصار اللجوء أخيراً إلى العرفان، وكأنه الحلُّ الوحيد حين يقول المسؤولون الكبار في إيطاليا مثلاً بأن حلول الأرض أخفقت، ولم تبقَ سوى حلول السماء، وفي ظلِّ هذه القناعة هل على العالَم المتقدِّم الآن أن يُعيدَ مقاربة معادلة الثراء والفقر الكونية، إذ قلَّة قليلة تملك جُلَّ ثروات العالَم وملايين يموتون من الفقر كلّ يوم، بل كلّ ساعة، بل كلّ دقيقة، بل كلّ ثانية؟.

هل بلغ توحُّشُ رأس المال وإيغاله في شهوة الكسب الشَّرِهِ من دون الالتفات إلى ما يمكن "أو ما يجب" أن يتَّصف به رأس المال هذا من إنسانيّة محتمَلَة؟ فالأرقام دائماً وأبداً هي التي تتحكَّم بسيرة رأس المال، ولا يُسمَح لغيرها مهما كان الدخول إلى باحتِهِ أو الاطِّلاع على حياته الدَّاخليَّة وأسراره، وأرقام رأس المال، بالنسبة إليه لها لون وطعم ورائحة، لا يراها ولا يتذوَّقها ولا يشمُّها مَنْ هو خارج محيط الفضاء الرَّأسماليِّ المحدود جدّاً.

يتلاشى في هذا المضمار مفهوم "العدل"، بوصفه أحد الحلول الضامنة لسيرورة الحياة وجمال الطبيعة وحيوية الحضارة وإنسانية البشر، لكنَّ هذا المفهوم للأسف يستحيل تطبيقه في ظلِّ أنظمة ومفاهيم ونظريات مادِّيَّة، لا تستعين بالروح في اقتراح الحلول المناسبة لمشكلات الكون، لأنه يصطدم بسؤال

الإنســـان، إذا ما كان هو الهدف والغاية أم أن المال والثروة والجاه وحبّ الســـيطرة والهيمنة والتَّفوُّق واحتكار الحقيقة هو
المطلوب؟ وهل انتفاضة العالَم اليوم ضدَّ "كوفيد ١٩" هي من أجل الإنسان أم من أجل الاقتصاد العالَميّ الآيل للسقوط في ظلِّ مديونية عالَميّة هائلة، تفوق كثيراً حجم الإنتاج؟
هذا الإنسان فيما مضى وحتَّى الآن يموت يومياً أكثر بعشرات المرَّات من موتى هذا الفايروس، لكنْ، لا أحد يكترث بذلك، ربَّما الانتفاضـــة اليوم بلغت هذا المبلغ، لأنّ الفايروس وصـل إلى الإنســـان الحاكم والإنسان الثَّريِّ والإنسان القويِّ والإنسان السلطة، وتعرَّضت النَّظريَّات والعلوم والمعارف وكلُّ أنشطة الحياة للتهديد بالفناء، ولقد تكشَّـفت أزمة كورونا في هذا المضـــمار عن اســـتراتيجية افتعال الغموض والتمويه والتناقض وانعدام اليقين وتضارب الأخبار، وصراع الأمل واليأس في دوَّامة مرعبة، لا رأس لها ولا أساس، وألحقت على هذا النحو كثيراً من الأذى النَّفْسيِّ والعصبيِّ في الناس غير المصابين بهذا الفايروس، فكيف هم المصـــابون به في ظلِّ ظروف صـحِّيَّة غير مناسـبة لكثير جدّاً من سُـكَّان العالَم لا يجدون أبسط شروط العناية الصِّحِّيَّة اللَّازمة بهم، على أمل شفائهم وإنقاذهم من خطر عنيد، يُحدِق بهم من الجهات كلِّها؟
رَكِبَ كثير من تجَّار الحروب والأزمات موجة الفايروس، ودفعوا باتِّجاه تيســير السُّـبُل للكَسْـب غير المشـروع، بإشـهار علامات الرعب والتهويل وتحطيم المعنويات وكسر الإرادات، والناس في ضـعف شديد حين وجدوا أنّ حياتهم يتهدَّدها خطر قريب، لا يعرفون كيف يدرأون جنونه، ويستبعدون احتمالات نَقْله إليهم من أقرب الناس، ولاسيَّما أنّ هذه الهجمة الفايروسـية العجيبة تمكَّنتْ من الكشـف عن سـقوط الزعامات الكبرى في السياســة الدّوليّة والإمبرياليّة العالَميّة، وغياب مفهوم البطل في الكثير من مرافق الحياة، والحاجة إلى ملء الفراغ الناشيء من هذا السقوط والغياب على النحو الذي غيَّر معادلات كثيرة، كانت إلى الأمس القريب أشبه بالمقدَّسات.
خلقت أزمة كورونا مشـــكلات كثيرة في جوانب الحياة المختلفة، ومنها مشـــكلة "المعنى" وقد تعرَّض لاختزال الحياة، ودفعها باتِّجاه اللَّاشـــيء، أو اســـتبدال اللّامعنى بالمعنى في طبقات كثيرة من جوهر المفهوم فاللَّامعنى على هذا النحو قد يســاوي الجنون، لأنّ العقل البشـــري تعوَّد على أن يحفظ وجوده بالمعنى العمليِّ الواضح القابل للفَحْص والإمساك والرؤية.
يمكن معاينة الحَجْر الصِّحِّيِّ/المنزليِّ، بوصفه عالَماً بالغ الهيمنة من السُّكُونيَّة والخوف والحَذَر والريبة والتَّحسُّب والانتظار والمَلَل والحرمان والفقدان والسجن والغياب، وتغيير العادات أو تكييفها أو تحويلها من منزلة إلى أخرى، ومن نطاق إلى آخر، وتصـاعد الحاجة للخدمات الصِّـحِّيَّة والغذائيّة والأمنية التي لم يكن يفكِّر فيها الإنســـان عندما كان حُرَّاً طليقاً، لأنّه كان يمرُّ بهذه التجربة أحياناً، من غير أن ينتبه لســـلطتها المدمِّرة، وقد انتبه الآن لحاجته الكبرى لها للدفاع عن وجوده جرَّاء التهديد الغامض الذي يتربَّص به، ويستهدفه بروح انتقامية غير مفهومة.
تنهض قضـية الحَجْر على ثنائية الحماية وفقدان الحُرِّيَّة، فَمَنْ يضـع نفسَـهُ في الحَجْر الصِّـحِّيِّ المنزليِّ يضـمن الحماية من انتقال الفايروس إلى جسمه، ويحقِّق بذلك الهدف المَرجوّ من هذه الفعالية الإنسـانية، لكنَّه، في الوقت نفســـه، يفقد حُرِّيَّته في التَّنقُّل والتَّنزُّه واللقاء بالآخرين التي كان ينعُم بها قبل ذلك، في معادلة قاسية، يدفع فيها كلُّ طرف ثمناً باهظاً لحساب فضاء الطرف الآخر، فلو تمرَّد المرء على الحَجْر في دفاع طبيعيٍّ عن حُرِّيَّته المستلَبة، سيدفع الثمن غالياً، إذا ما أصابه بالفايروس، فيندم على ذلك ندماً، قد يُكلِّفه حياته، وفي الوقت نفســه، عليه أن يتحمَّل ثمناً باهظاً للحصـول على حماية صـحِّيَّة، يظفر فيها بحياته وصـحِّته حين يخضـع للحَجْر، وبين طَرَفَي المعادلة لا بدَّ وأن يعيش الإنسـان صـراعاً مسـتمرَّاً،

يجد نفسه مُرغَماً عليه، ينقم فيه مرَّة على ما آلت إليه ظروف حَجْره، ويحمد الله مرَّة أخرى على أنّه لم يُصَب بهذه الجائحة القاتلة.

نشأت في ظلِّ هذه الأوضاع المأساويّة - طبِّيَّاً واقتصادياً واجتماعياً ونَفْسياً - ثورة إعادة تعريف الأشياء، ولاسيَّما المفاهيم المتعالية التي يمكنها استيعاب حركة الكون ما بعد كورونا وتسيير نظريات مختلفة على سكَّة الحياة الجديدة، يكون الإنسان فيها محور العناية، وليس رأس المال فقط، وسيختفي في هذه الحال مفهوم الحياة الباذخة وضمان طرائق الرَّسْم المادِّيِّ الهندسيّ للسعادة على الأصعدة كلِّها، حتَّى على صعيد الصناعة التي ستتَّجه نحو الحاجات الأساسية الضَّروريَّة، وبأقلِّ ما يمكن من البَذْخ الصّناعيِّ غير الضَّروريِّ، والاكتفاء با هو مُتاحٌ من السُّبُل لتحقيق مُتطلَّبات الشكل الضّروريِّ البسيط من الحياة.

تتَّجه الفعالية الثَّقافيَّة الآن نحو إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية، وتفعيل صورة جديدة للتفاعل والتواصل الجسديِّ بين البشر، فهل سيتغيَّر ذلك مع الحُبِّ والجنس أيضاً؟ هل ستُنتج الطريقة التَّواصليَّة الجديدة باستخدام تطبيقات السوشيال ميديا عن بُعد ثقافة جديدة، تُقلِّص كثيراً من النفقات، وتصبح العلاقة القديمة وجهاً لوجه بالحضور الجسديِّ الملموس شيئاً من الماضي؟ وهل سنشهد مفهوماً جديداً للجسد في علاقاته بالمحيط والأشياء والقِيَم والممارسات؟

أَحْدَثَ انتشارُ فايروس كورونا - من ضمن ما أحدث من عواصف اجتماعية وثقافية كبيرة في الممارسات الثَّقافيَّة والوجدانية - تغيُّراً في العادات والممارسات الدِّينيَّة التَّقليديَّة مثل هَجْر المساجد والكنائس، ثمَّ الاستغناء عن المدارس والجامعات والدوائر والمنتجعات والحدائق العامَّة والكافيهات والمطاعم، وصارت البيوت هي الملاجئ والملاذات التي تمَّ اكتشافها إرغاماً وإكراهاً، وليس اختياراً، في استراتيجية جديدة، تقوم على التعامل عن بُعد في كلِّ شيء، بحيث صار البُعد هو الأساس الصالح للعيش والحياة والمقدَّس، والقُرب هو المخيف والمرعب والمدنِّس، وقد سبق للمتصوِّفة أن قالوا "القُربُ حجابٌ"!

لا شكَّ في أنّ فعالية التعليم عن بُعد تُسهم في تقليل نفقات بناء المدارس وحركة الطَّلَبَة والمعلِّمين وما يرافقها من تفاصيل إجرائية، كانت سابقاً في عملية التعليم عن قُرب كثيرة ومعقَّدة، تستنزف كثيراً من المال والجهد، وهي اليوم بأدنى ما يمكن من النفقات بما يجعل نظريات التعليم القادمة في هذا المضمار أقلَّ كلفة وأيسرَ حركة وجهداً، إذا ما تحوَّلت مستقبلاً إلى دعوات، تطالب بتعزيز فكرة التَّعلُّم عن بُعد وبناء استراتيجيات تعليم جديدة أكثر شيوعاً وتبنِّياً وتطبيقاً.

لعلَّ استعراض الوضع الاجتماعي والثَّقافيِّ الكونيِّ الجديد بهذه الصورة الشائكة الرجراجة، وطَرْح فكرة العودة إلى الطبيعة، وإعادة إنتاجها على وفق نظرات عملية وإنسانية، تعطي لنظافة البيئة حصَّة أساسية، قد تؤول إلى مسارات حضارية مغايرة، تُنجِب لغة أخرى بمعجم لغويٍّ آخر، يستولد دلالات أخرى للدَّوالِّ، وتصنع معايير جديدة لمقاربة حركيات التعبير والتشكيل والتصوير، بما يجعل صوراً مثل الحَذَر الوجداني والعاطفي، وزمان الوصل وزمان التباعد، والمبالغة في النظافة إلى حَدِّ الهَوَس، وأشياء أخرى لا حصر لها، داخل قوس المساءلة والمحاسبة والتقويم، للوصول إلى عتبةِ كونٍ نظيفٍ على المستويات كافَّة، بوسعه الاستعداد مبكِّراً للتعاطي مع كوارث قادمة، هي في طريقها إليه، لا محالة.

موت العولمة وانبعاث الفردية

لكأنّ العالَم يسير نحو العدم

ممدوح فرَّاج النابي

ليست هي المرَّة الأولى التي تتعرَّض فيها البشرية لأوبئة فتَّاكة، إلى حَدِّ حدوث إبادة جماعيّة، فمدوَّنة التاريخ تُسجِّل حوادثَ كثيرة، تشير إلى فتكِ الأوبئة بالبشر، بدءاً من طاعون "الموت الأسود" (١٣٣١ - ١٣٥١) الذي كان أخطر كارثة، واجهتْها البشرية في القرن الرابع عشر، وأكثر الأوبئة فَتْكاً وقدرة على الانتقال والانتشار؛ إذ انتقل بسرعة من الصين إلى الهند وآسيا الوسطى حتَّى اجتاح أوروبا وشَمَال أفريقيا. وهناك جائحة الإنفلونزا الأولى عام ١٥٨٠، ثمَّ الكوليرا في القرن التاسع عشر، والإنفلونزا الإسبانية التي غمرت العالَم لمدَّة عامَيْن بدءاً بعام ١٩١٨، وأُصيب بها ٥٠٠ مليون إنسان، وتُوفِّي منهم من ٣٠ إلى ٥٠ مليوناً. وأيضاً ظهر وباء إنفلونزا الخنازير في المكسيك في مارس (آذار) ٢٠٠٩. وفايروس إيبولا عام ١٩٧٦ وتفشَّى في السودان، وحصد الفايروس أرواح أكثر من ١١ ألف شخص، وأصاب حوالي ٢٧ ألف شخص في أفريقيا.

وكذلك ظهر "فايروس سارس" وباء الالتهاب الرِّئويُّ اللَّانمطيُّ الحادُّ (سارس)، المعروف علمياً أيضاً بالمتلازمة التَّنفُّسيَّة الحادَّة، في نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٢ في مدينة فوشان بمقاطعة غوانجدونغ جنوبي الصين. وأصاب ٨ آلاف و٩٦ شخصاً، وتسبَّب في وفاة أكثر من ٧٧٤ شخصاً في العالَم، حوالي ٣٥٠ منهم في الصين، وأثار فايروس سارس موجة ذُعر عالَمية منذُ ظهوره في نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٢ حتَّى اختفائه في يوليو/ تمُّوز ٢٠٠٣.

المتأمِّل لوقائع هذه الكوارث يُلاحِظ ثلاثة أشياء مهمَّة في مسيرة الأوبئة؛ الأوَّل أن مصدر الأوبئة على اختلافها؛ محلِّيَّة أو عالَمية، هو الحيوانات والطيور والحشرات والفئران والبراغيث والخنازير والخفافيش. الملاحظة الثانية أن طُرُق التعامل مع هذه الأوبئة قديماً وحديثاً واحدة، فالمواجهة اقتصرت على عَزْل المصابين، وعَزْل المناطق التي يتفشَّى بها المرض حتَّى يتمَّ قَطْع بيئة التواصل معه، كنوع من حَدِّ انتشار المرض، وانتقاله من مكان إلى آخر. أمَّا الملاحظة الثالثة، فتتمثَّل في أن ضحايا هذه الأوبئة الأكثر تأثُّراً هم من الطبقات الاجتماعية الدنيا، وهو ما يشي بنَسَق مُضمَر يتمثَّل في تمتُّع "الطبقة المتفوِّقة"، بتعبير ديفيد روثكوف، بصلاحيات ومميِّزات، تكتب لهم النجاة على حساب الطبقات التي تخدمهم، وهو ما يتجلَّى بصورة مَرئيَّة واضحة، لا بانعزالهم في منتجعاتهم الفخمة الخاصَّة، وإنما في أنانيتهم وتخلِّيهم عن واجباتهم الاجتماعية، لمرؤوسيهم ونزعتهم البرجماتية في تبنِّي خيار التضحية بالعمَّال مقابل دوام العمل. وإن كان الأمر في حالة كورونا أو كوفيد - ١٩ قام بإعلان المساواة بين الطبقات الدنيا والمتفوِّقة في إمكانية الإصابة بالمرض.

ما بعد كورونا

السؤال الذي يجب أن يشغلَ الجميعَ هو: ماذا عن صورة العالَم ما بعد كورونا؟ وهو نقطة محورية في النقاشات الدائرة - الآن - حول مرحلة ما بعد كورونا! وإن كان معظم المفكِّرين والسياسيِّيْن ورجال الاقتصاد أجمع على أنّ عالَم ما بعد كورونا سيشهد تغيُّرات على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، وأيضاً السِّياسيِّ، فحسب تصريحاتهم "لقد تغيَّر العالَم ... وأن غداً لن يشبه اليوم" (الرئيس الفرنسي ماكرون)، أو أن "فايروس كورونا سيُغيِّر النظام العالَميّ إلى الأبد" (هنري كسينجر وزير الخارجية، ومستشار الأمن القومي الأميركي الأسبق) أو من قبيل أن "العالَم لن يستمرَّ كما كنَّا نعرفه، ولن يعود

إلى النظام الذي كان عليه قبل كورونا" (سلافوي جيجك) أو أنه "حَدَثٌ سيُحدِّدُ الحِقبة التَّاريخيَّة، وأن آثارَهُ ستستمرُّ لسنوات طويلة" (بيل جيتس).

فرضَ الفايروس مَنْعَ التَّجوُّل على نصف البشرية، وأَعاقَ حركة النصف الآخر، وهو ما يجب أن نُفكِّر فيه بشيء جِدِّيٍّ، كيف حَدَثَ هذا؟ أَ لم تكن هناك وسيلة وقائية، تمنع حدوث مثل هذا الجمود الذي أصاب الحياة، في ظلِّ ما سبَّبه الإجراء الاضطراري (فمعظم الدول لم تفعله إلَّا مُضطرَّة). وهو ما أنزل كوارث لا تتمثَّل في ركود، بل تُوقِف حركة التجارة والسياحة، وإنما في حدوث ارتباكات بين حركة المواطنين، وهو ما أعاد مفهوم العالقين إلى الصدارة من جديد.

هذه الكلمة كانت أكثر استخداماً في الحروب والخلافات السِّياسيَّة، الآن تَزحزَحَ المفهوم، ولم يعد يقتصر على هؤلاء العالقين على الحدود، بسبب الحروب، أو إضرابات موظَّفي الطيران، كما حَدَثَ في أكثر من دولة لأسباب اقتصادية أيضاً، وإنما صار لدينا عالقون بسبب الجائحة، كثير من الأفراد على اختلاف جنسياتهم فقدوا أعمالهم، أو كانوا يؤدُّون أغراضاً أخرى مثل السياحة أو العلاج أو حتَّى التعليم، واضطرُّوا إلى العودة، لكنَّ مَنْع السفر وإغلاق الحدود جعلهم عالقين، في ظلِّ تخوُّفات من تفشِّي المرض، ونقله إلى بلدانهم، ونظراً للاستغاثات حدثت انفراجات بتسهيل عودة العالقين، لكنْ، ما زالت المشكلة قائمة في بعض الدول.

ثمَّة إجماع على تغيُّر ما، لكنْ، ما كُنْهُ هذا التَّغيُّر، سواء على مستوى العلاقات السِّياسيَّة وتصارع القوى، أو على مستوى السياسات الاقتصادية، أو حتَّى في نُظُم العلاقات الاجتماعية وحلول مفاهيم جديدة، تتناسب مع السياق الجديد، كتفكيك المركزية الغربية التي ظلَّت مهيمنة لرَدْح طويل من الزمن، ولم يعهد للقوى الشَّرقيَّة الانتصار على القوى الغربية سوى في الحرب اليابانية الرُّوسيَّة عام ١٩٠٥، التي انتهت بانتصار اليابان ودَحْر الروس؟

وفي المقابل ثمَّة إجماع كبير من علماء النَّفْس، على أن الفايروس نفسه ضاعف من الخوف لدى الكثيرين، إضافة إلى تأثيرات الحَجْر الصِّحِّيِّ، التي هي عكس تكوين الإنسان، بوصفه كائناً اجتماعياً بطبعه وغير مؤهَّل للتعايش مع إجراءات التباعد الاجتماعي، وقد ضاعفت من "إحساس الناس بالوحدة والتَّوتُّر والقلق"، وهو ما ستكون له انعكاسات خطيرة على سلوكيات الإنسان نفسه في تعامله مع الآخرين بعد حالة الوحدة التي كان يعيش فيها.

أضف إلى ذلك التأثيرات النَّفْسيَّة على الذين فقدوا وظائفهم أو قلَّت دخولهم، ونتائج هذا على المحيطين بهم، في ضوء العَجْز عن تحقيق مطالبهم الأساسية، ولا أقول الرَّفاهيَة. خاصَّة أن ثمَّة تقاريرَ تُشير إلى ازدياد العنف المنزلي بين أفراد الأسرة الواحدة، وبالمِثْل زيادة نسبة الطلاق، بعد تفاقُم المشكلات نتيجة تواجُد الرجل داخل البيت باستمرار. وكلُّ هذا مؤشِّر خطير على تغيُّرات في سلوكيات البشر، وهو أمر بالغ الخطورة، فآثار كورونا لم تقف عند العلاقات الدّوليّة والاقتصاد، وإنما سيكون أثرها واضحاً في تشكيل إنسان ما بعد كورونا بكلِّ أزماته الصِّحِّيَّة والنَّفْسيَّة.

في الحقيقة مثلما أن الفايروس غير مَرئيٍّ، فإن ترتيبات ما بعد الجائحة أيضاً غير مَرئيَّة، خاصَّة أن الأزمة كما وصفها الأمين العامُّ للأمم المتَّحدة بقوله: "إن كوفيد - ١٩ هو أعظم اختبار واجهناه معاً منذُ تشكيل الأمم المتَّحدة"، وهو ما دفعه إلى تقديم خطَّة "لمعالجة الآثار الاجتماعية والاقتصادية المدمِّرة لكوفيد - ١٩".

طبيعة الإجابة عن تساؤلات ما بعد، في ضوء غياب الكثير من الحقائق، يضع المتأمِّل للمشهد رغبة في إعادة ترتيبه بعدما طرأ عليه من انكماش وانحسار، بعدما كان مُتَّسعاً، لا يحدُّه حَدٌّ، خاصَّة بعد

قرارات الانغلاق وغَلْق الحدود بين الدول بعضها بعضاً، في محاولة لمَنْع تفشِّي الوباء؛ في حَيْرة وقلق، لأن الصورة غائمة!

الصُّورة المرعبة التي خلقتْها الجائحة جعلت من كبار المفكِّرين يخرجون ويصرِّحون بتصريحات، لا تبعث إلى الاطمئنان، بقدر ما تشـير إلى "اللَّايقين"، كما ذكر إدغار موران، أو أن الفايروس سـيعمل على "إعادة اختراع الشُّيُوعيَّة"، كما ذكر سلافوي جيجك. في حين أن الألسني نعوم تشومسكي البالغ من العمر تسعين عاماً، حذَّر من "الكارثة المرعبة التي يجري إليها العالَم، والمضاعفات الاقتصادية والاجتماعية التي يتسبَّب بها الوباء على مستوى البشرية بأكملها. وما يتهدَّد البشر من خطرَيْن وجوديَّيْن وشيكَيْن، أوَّلهما تزايد تهديدات الحرب النَّوويَّة، وثانيها تزايد مخاطر الاحتباس الحراري الذي سيتسبَّب بكوارث بيئية على مستوى الكوكب". لذا فالتعامل مع الفايروس كما يقول: "يتطلَّب التَّحرُّك بما يشبه التعبئة العامَّة في زمن الحرب".

على الجانب الآخر، يلوم المفكِّر الأميركي وأستاذ الاقتصاد السِّياسيّ فرنسيس فوكوياما الدول الاستبدادية والدِّيمقراطيَّة على تعاملهما مع الأزمة، فالنظام القَمْعِيُّ في الصين مَنَعَ تدفُّق المعلومات المتعلِّقة بخطورة الوضع، أمَّا الدول والحكومات الدِّيمقراطيَّة، فتعاملت مع الوضع بشيء من التهوين، وأن الأمر تحت السيطرة. فوكوياما الذي جاءت الجائحة لتهدمَ نظريته عن نهاية التاريخ، يقع في موقع المُحذِّر فقط، دون أن يقدِّم أيَّ بدائل أو خريطة طريق لهذه الأزمة، باستثناء طموح مفاده "أن الدِّيمقراطيَّات ستكون أكثر قدرة على النجاة من الجائحة من الدِّكتاتوريَّات"، تصريحه يأتي كتأكيد على خسارته رهانه على أميركا، لأنها فَقَدَت الثقة بين

شعبها وحكوماتها على عكس ديمقراطيات أخرى مثل ألمانيا، نجحت نسبياً في التعامل مع الأزمة.

القلق الأكبر الذي خلقتْهُ أزمة الفايروس هو هذه الأطروحات التي لم تعد سوى قراءة واقعية للأزمة، دون استشراف لما بعدها. وهي المسألة الأكثر تعقيداً الآن، في ظلِّ تنافس شرس بين هذه الدول وخاصَّة الكبرى على الاستحواذ على العلاج، وهو ما يثير فزَّاعة من إمكانية أن يُولِّد دكتاتوريات جديدة مُقنَّعة بالدِّيمقراطيَّة، على عكس ما روَّج البعض من ظهور دكتاتوريات شُيُوعيَّة.

لنتَّفق أوَّلاً أن الأزمة بقدر ما كشفت عن هشاشة النُّخبة، وعدم قدرتها على استقراء المستقبل في ضوء هذه المتغيِّرات التي ربَّما كانت علاماتها التي تشير إلى تلك الدلالات التي نعيشها الآن، أنها كشفت في المقام الأوَّل عن عدائية هذه النُّخبة للأنظمة، فخروجهم لم يأتِ إلَّا للتنديد، وبيان أخطاء هذه الأنظمة على اختلاف أيديولوجياتها، ديمقراطية أو دكتاتورية، وكأن الوقت مناسب لتصفية مثل هذه الخلافات، بدلاً من الإعداد لمشروع على غرار مشروع مارشال الذي عُقد بعد الحرب العالَمية الثانية.

ففوكوياما يُخصِّص مقالته ليقول إن أميركا ممثَّلة في رئيسها الذي يبحث عن شعبية جديدة، للانتخابات القادمة، افتقد الثقة من شعبه في معالجة الأزمة، نظراً لسياسته التي تعتمد "القبلية العميقة". في حين أن تشومسكي خرج من كهفه، ليعيد صياغات قديمة عن احتمالية حروب جديدة، متناسياً أن الأزمة الجديدة سحبت من قادة القوى الكبرى الاهتمام بالخارج إلى الاهتمام بالداخل، وإعادة المفهوم القديم للدولة، باعتبارها "الحارس اللَّيليَّ" في ظلِّ أزمات متتابعة، ليس أوَّلها الاقتصاد، وما يعقبه من بطالة، وانتشار الفقر وخَلْق أزمات في أثناء تقديم المساعدات الغذائية، بل ما هو أخطر، بتوقُّف أكثر من ١٥ مليون طالب عن الدراسة، والنتائج الوخيمة المترتِّبة عن هذا التَّوقُّف.

جاءت التصريحات على عكس المأمول والمَرجُوِّ منهم، بما أثارتْهُ من قلق ومخاوف، بشأن المستقبل، كما تزيد من الخوف الذي تسرَّب إلى الجموع في ظلِّ ارتفاع معدَّلات الإصابات والوفيات، دون أن يعطفوا على هذه المخاوف بذِكْر البدائل والحلول التي تكون بمثابة طَوْق النجاة أو حتَّى الملجأ والملاذ

الذي يسعى الجميع إلى الاعتصام به، إذا تفاقم الأمر، بناء على تنبُّؤاتهم، وهو ما يشير فيما يشير إليه إلى غياب البوصلة أو الرؤية لدى هؤلاء النُّخبة، خاصَّة أن كتاباتهم السابقة كانت تشير إلى واقع جديد، غابت معالمه وسماته مع ظهور هذه الفاجعة.

وهو ما يُحفِّز بتساؤل خطير عن دور هؤلاء النُّخب في الأزمات؟ هل هو التبكيت والمعايرة أم البحث عن البديل؟ أين رهاناتهم بعوالم ما بعد الفاجعة أو ما بعد الكورونيالية حسب اصطلاح الدكتور شاكر عبد الحميد؟ لماذا كلُّ شيء غائم، بل وكأنّ العالَم "يسير نحو العدم الذي يقف على الأبواب" كما قال نيتشه في كتابه "إرادة القوَّة".

العالَم في خطر

بكلِّ بساطة نستطيع أن نقول إن "العالَم في خطر" إذا بدلَّنا مقولة رولان بارت عن "الأدب في خطر". وليس خطر العالَم في استمرار الجائحة، وقد يكون هذا صحيحاً، وإن كان لن يستمرَّ، فلكلِّ جائحة ضحاياها، كما أن ركام حوادث الماضي، وما مرَّ من كوارث طبيعية متعلِّقة بأوبئة فتَّاكة يقول: "إن العلم سينجح طال الوقت أو قصر في إيجاد حلول علمية وأدوية تَحدُّ من تفشِّي المرض".

لكن الخطر الحقيقي - في ظنِّي - هو في إدارة الأزمة على المستويات كافَّة دوليَّاً ومحلِّيّاً، بدءاً من السِّياسيِّيْن وأجهزة الدولة، إلى الاقتصاديِّيْن، وأيضاً الفنَّانين والمشاهير الذين تعاملوا مع الأزمة باستخفاف مُفضِّلين مصالحهم الشَّخصيَّة.

الجميع أَسقطتْهُم الأزمة، فإذا كانت الأزمة أظهرت عَجْز الأنظمة، ففي المقابل أظهرت عَجْز الرؤى وقصور الفكر عند أهل الفكر والاقتصاديِّيْن والمشاهير على السواء.

عرَّت الأزمةُ الكثيرَ من الأنظمة الحاكمة، وأبانت إخفاقها في أن تكون على قَدْر المسؤولية وقت الأزمة،

في حين كانت تدعو الناس بأن يكونوا على "قَدِّ المسؤولية" ببقائهم في البيت وَفْقَاً للعبارة المجازية المغلَّفة بمشاعر حميمية وخوف الأنظمة على رعاياها على نحو "خَلِّيْك في البيت" "Stay Home" أو "Evde Kal" أو ما يعادلها "Hayat Var Evde".

فالأزمة كشفت تردِّي البني التَّحتيَّة للمنظومة الصِّحِّيَّة، وقصور مواردها المالية والبشرية والمعرفية أحياناً؛ لا مستشفيات صالحة لاستقبال المرضى، ولا أجهزة حديثة قادرة على استكشاف الحالات الجديدة، ولا وعي صحِّيّاً لدى الشعوب بالتزام إجراءات السلامة الوقائية، إضافة إلى غياب السياسات البديلة لتفادي توقُّف التعليم ومنظومات العمل، فقط كان ثمَّة صراخ أشبه بالوَلْوَلَة على الميكنة والحوسبة والنظام الرَّقْمِيِّ ورَبْط منظومات التعليم بشبكات الإنترنت، فما إن جاءت الفرصة لاختبار هذه المقولات والتصديق العملي لها؛ حتَّى سقط الجميع في فوضى، نَتَجَتْ عنها تصريحات، لا تقلُّ عنها فوضى وبلبلة داخل الأسرة المصرية، على نحو ما فعلت تصريحات وزير التربية والتعليم في مصر، وهو الرجل الذي كان يتباهى بتحويل التعليم إلى تعليم رَقْميٍّ، كما كان يطالب في كلِّ حواراته وخطاباته.

السلطة الرَّعويَّة

كشفت الجائحة عن انتهازية السلطات، حيثُ سعت إلى استغلال الجائحة لتعزيز الكثير من سلطاتها التي فقدتْها من قبل، وهي تُعزِّز قبضتها الأمنية من ناحية، بسبب حالات التَّمرُّد والمعارضة التي أظهرتْها الشعوب للكثير من جرَّاء سياساتها التي لم تكن على قَدْر تطلُّعاتهم، فعندما طالبت وحثَّت مواطنيها بالبقاء في البيت، عزَّز هذا المطلب أو الإجراء قوَّة الدولة في فرض سطوتها، وهو ما أتبعتْهُ بإجراءات أكثر صرامة، تؤكِّد سلطويَّتها التي لا تتوانى في إظهارها وقتما تشاء، على نحو فرض قوانين الحَظْر.

فشـعارات مثل "خَلِّيْك في البيت" أو "كنْ على قَدِّ المسـؤولية"، بقَدْر ما تشـير مدلولاتهما الظَّاهريَّة إلى حِرْص أجهزة الدولة وشـفقتِها على فئات الشـعب، بتوجيههم إلى ما فيه صـالحهم بعدم الخروج، لما فيه من ضرر عليهم وعلى ذويهم، وهو الأمر الذي أظهر السلطة، بوصفها راعية.
فالعلاقة بين الراعي والرَّعيَّة عند ميشـيل فوكو يُطلق عليها "الاسـتعارة الرَّعويَّة"، وهي الحاضـرة في النصـوص القديمة، الإغريقية والعبرية والمسيحية، ولم تكن استعارة الراعي والقطيع منتشرة سوى في النصوص ذات المحتوى الدِّينيِّ في أبعاده العملية والسُّلُوكيَّة.
فالراعي وفق ما صـوَّرتْهُ الأديان الإسـلامية والمسـيحية أيضـاً "لا يعني، فقط، بحماية قطيعه، وتوفير شـروط نُمُوِّه وحياته، وإنما يطَّلع على أحوال كلِّ فرد في أدنى حركاته وسـلوكياته، وفي أعمق قراراته وأسـراره. فتنشـأ بذلك علاقة أخلاقية مركَّبة بين الراعي وكلّ فرد من القطيع، هي علاقة طاعة مطلقة، يُبديها الفرد تجاه الراعي الذي يحميه، ويُوفِّر له شـــروط أمنه وحياته، ولا يتوانى عن إدارة ســـلوكياته بتقويمها وتوجيهها نحو الطريق المستقيم وسياسة ضميره ونواياه بغية تصحيحها والحَدّ من نزواتها".
وبذلك عادت الســلطة الراعية وأجهزتها الأيديولوجية بتعبير ألتوســـير، دون أن يكون تدخُّلها مرادفاً للاستبدادية أو الشُّمُوليَّة، كما كان سابقاً، فثمَّة طاعة عمياء مقابل الحماية والأمن.
فمع افتقاد الحكومات للثقة من قبَل مواطنيها، أو زعزعتها على نحو ما في بعض البلاد، انسحبت صفة الراعي أو المســؤول عن رأس النظام، وجاءت الفرصــــة على طَبَق من ذهب (كما يقول المَثَلُ)؛ كي تستردَّ الدولةُ وظيفتَها عند الشعب "وظيفة الحارس اللَّيليِّ".
(Night guard model)
فبالمناشدة عبر هذه الشعارات التي تُبرِز حميميةً ما، باللجوء إلى البيت، بإعادتنا إلى "رُكننا في العالَم" بتعبير باشلار، أو ردّنا إلى "كوننا الأوَّل" الذي هو أشبه بـ "صورة الرَّحِم" لما تكتسبه البيوت من "أُلفة وحميمة"، أو لأنها "أماكن الحماية" التي نلجأ إليها عند الأزمات، كما يقول يوري لوتمان، اتَّكأت الدولة على ما يُبرِز حِرْصَــهَا وخوفَها على الرعية. لكنْ، بقَدْر ما يحمل الإشـــهار معاني حميمية، وحرصـــاً واهتماماً، ففي الوقت
ذاته، يكشف عن معنى آخر، يتمثَّل في تقييد الحُرِّيَّة، فالمحظورات والتعليمات والإرشادات صارت تحكم حركة الإنسان.
على الجانب الآخر، لم تُوفِّر الدولة سُـــبُل ما يكفي للبقاء في البيت، بل تخلَّت الكثير من الدول عن العمالة، وبالمِثْل سـرَّحت القطاعاتُ الخاصَّــة العمَّالَ، وأوقفت الأجور، وهناك مَنْ تحدَّث عن مشــاركة مجتمعية في تحمُّل الأضـرار، متناسـياً أن الطبقة العاملة لا تُشـارِكُهُ الأرباح في حالة المكاسـب. وبذلك فَقَدَ شعار "خَلِّيْك في البيت"، كمعادِل لحِرْص الدولة على مواطنيها، أهمِّيَّتَهُ في ظلِّ افتقاده لأيِّ ضمانات مُلزِمة، تُحرِّض على البقاء.
إحياء النزعة الفردية
كما كُرِّســـت الأزمة للفردية وعُلُوُّ نزعة الأنا، ليس على مســـتوى الأنظمة الحاكمة على اختلاف أيديولوجياتها، فالصـــين الشُّـــيُوعيَّة متَّهمة من قبَل العالَم أجمع، بأنها تآمرت على العالَم أجمع، بإخفاء الكارثة عند نشوئها، بل هناك مَنْ طالبَها بتعويضات عن الخسائر التي تسبَّبت فيها الجائحة (ألمانيا مثلاً وفق ما نشـــرتْهُ صـــحيفة ألمانية (بيلد https://www. dw. com/en/the-day-german-tabloid-bild-demands-china-pay-billions-in-coronavirus-damages/av-٥٣١٦٩٩٩٩)

ما أَسْـــمَتْهُ فاتورة أضـــرار كورونا، ١٦٠ مليار دولار، تدين بها الصـــين لنا بالفعل") والأنظمة الدِّيمقراطيَّة تخلَّت جميعها عن إيطاليا شريكهم في الاتِّحاد الأوروبي، والجائحة تعصف بمواطنيها، وهو ما دفع بمسؤولين إيطاليِّيْن بإنزال علم الاتِّحاد الأوروبي، واستبداله العَلَمَ الرُّوسيَّ مع العَلَم الصِّحِّيِّ.
وعلى فرضية أن هذه الصورة المتداوَلَة لمواطنين إيطاليِّيْن - وليست لمسؤولين رسميِّيْن - عبَّروا عن غضـبتهم من تخاذُل الاتِّحاد الأوروبي لهم، مقابل الدَّعْم الذي قدَّمَتْهُ روسـيا والصـين، ثمَّ كوبا وتركيا، ففي حَدِّ ذاتها تشـير صـراحة إلى حالة الإقصـاء والعُزلة التي صـارت عليها إيطاليا من الشـريك الأوروبي، كنوع من تخلِّي الشريك عن شريكه في وقت الأزمة العنصرية، حتَّى جاءت المساعدات من كوبا، بإرسال الفِرَق الطِّبِّيَّة بعد انهيار النظام الطِّبِّيِّ.
وهو ما ستترتَّب عليه نتائج وخيمة، تُقوِّض نظريات العولمة والسوق المفتوح، وتعزِّز من السياسـات الانعزالية والعزلة الدَّاخليَّة، وفي الوقت ذاته، تشـير إلى السـقوط الأخلاقي لأقنعةٍ، كانت - من قبلُ - تُعزِّزُ من التضـامن والتكامل على نحو ما كان يشـير مفهوم "الأسـرة الدّوليّة" الذي تمَّ اللعب به بعد اعتداءات الـــ ١١ من سبتمبر، لاستقطاب أكبر عدد في حربها على الإرهاب، ضدَّ مَنْ أَسْمَتْهُم "محور الشَّرِّ".
ومع الأسـف لم يكن مُتحقّقاً وسـط الأزمة، فجاء إسـقاط عَلَم الاتِّحاد الأوروبي كدالٍّ على هَدْم نَسَـقِهِ. وبالمِثْلِ ما أصاب مفاهيم الشراكة الاقتصادية والشراكة المجتمعية من تناقضات على مستوى الفعل.
وهو ما يشير إلى توغُّل الرَّأسماليَّة الجديدة أو النِّيُوليبراليَّة، بل تمَّ إحياء سياسات ميكافيلية، تبيح، من أجل المصلحة الفردية التضحية بالقطيع، استمراراً لدورة رأس المال، التي هوَّنت إلى حَدِّ التفريط في الإجراءات الوقائية، والحَدِّ من العمالة، التي أَقَرَّتْها الدول كنوع من حماية المواطنين، من إصـــابتهم بالمرض.
فالسوق في النظام الجديد الحاكم والمهيمن لم يعد موضوعاً خاضعاً للمعطيات الاجتماعية، بل صارت العقلانية الاقتصـادية هي المهيمنة، كما يقول ألان دولان في "نظام التفاهة". بأدقِّ تعبير "إنه المال، أيُّها الغبيُّ [İt's the econmy، stupid] على نحو ما جاء في شعار الحملة الرِّئاسيَّة لبيل كلينتون عام ١٩٩٢، والذي تحوَّل إلى "الاقتصاد الغبيِّ".
في الحقيقة رجال المال في عالَمنا العربي "الطبقة المتفوِّقة"، أو النِّيُوليبراليُّون الجُدُد أظهروا شـــراهة للمال، وتكالباً على جَمْعِهِ، دون الاعتبار للأضرار الناتجة لاستمرار العمالة في مصانعهم وشركاتهم، في ظلِّ الوضـع المتفاقم والتحذيرات من التَّجمُّعات. فجاءت تصـريحات أهمِّ رجلَي أعمال في مصـر؛ الأوَّل نجيب ســاويرس، بطلبه من الحكومة الســماح بالعمَّال إلى النزول إلى موقع العمل، وتخفيض رواتب العاملين إلى النصف. والثاني
حسين صبور الذي كشف عن وجه رأسماليٍّ نفعي، بقوله: "رَجَّعُوا الناس للشُّغل فوراً .. لمَّا شُويَّة يموتوا أحسن ما البلد تفلِّس"، مثيرة للاشمئزاز ومُخيِّبة لما هو مَرجوٌّ منهم في مثل هذه الأزمات. وهو ما أظهر رأسـمالية متوحِّشـة، ظهرت على نحو واضـح في تخلِّيهم عن دورهم المجتمعي، ومطالبتهم بتخفيض الرواتب، وتقاسم العُمَّال المشكلة مع أصحاب رأس المال على نحو ما صرَّح ساويرس نفسه بقوله: "إن النشاط السِّياحيَّ توقَّف تماماً، وفي مثل هذه الظروف، يجب تقاسم المشكلة مع العاملين"، متناسين أن هذه الإمبراطوريات الاقتصادية قامت على أكتاف وعَرَق جبين العَمَالة.
وبالنســبة إلى الشـــراكة المجتمعية، فقد أُلغيَت المواثيق وأعراف الجماعة كافَّة، فلم تعد كما قال أميل دوركايم إحدى سِماتها "التضامن الآلي"، وإنما هيمنة النزعة الفردية، والانفصال عن الجماعة درءاً من المخاطر، وفي المجتمعات الدِّينيَّة تكشف عن تناقُض الأفعال مع الشعارات الدِّينيَّة المرفوعة كَنَسَقٍ حامٍ

ومُهيمن للجماعة من قبيل: "إنما المؤمنون إخوة" (قرآن كريم)، و"مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" (حديث شريف)" أو حتَّى الأُمثُولات الشَّعبيَّة "يد الله مع الجماعة" و"الظِّفْر مَيخرجش من اللحم"، و"إيد واحدة متصقَّقش"، فكلُّ هذا تبدَّل، وبدلاً من إعلان قِيَم الإخاء والاحتواء في الأزمات، تمَّ استبدالها بالإقصاء والعنصرية على نحو إشارة دونالد ترامب للفايروس "بالفايروس الصِّينيِّ".

نفس الشيء فَعَلَهُ رئيس تحرير جريدة "بيلد" الألمانية جوليان ريتشلت الذي وجَّه رسالة غاضبة للرئيس الصِّينيِّ شي جينبينغ بعنوان "أنتَ تُعرِّض العالَم للخطر"، قائلاً: "أنتَ تحكم بالمراقبة. ولن تكون رئيساً من دون مراقبة، كان عليكَ أنتَ وحكومتكَ وعلماؤكَ أن تعلموا، منذُ مدَّة طويلة، أن فايروس كورونا مُعدٍ للغاية. لكنكَ أخفيتَ هذا الموضوع عن العالَم".

فالقوى الكبرى صارت مشغولة بنفسها، إلى حَدٍّ كبير، فتخلَّت - أوَّلاً - عن مسؤوليَّاتها، كما تجلَّى في شعار "أميركا أوَّلاً" التي رَفَعَهَا دونالد ترامب، مع تفاقم الأزمة بتهديده بالتَّخلِّي عن مسؤولياته والتزاماته بالانسحاب من دعم المنظَّمات التِّجاريَّة والأمن، والتهديد بوَقْف المساهمات المالية في دَعْم ميزانية منظَّمة الصِّحَّة العالَميَّة. وثانياً، قلَّصت تطلُّعاتها وقدراتها الاستعمارية؛ فبجانب انشغال الجيوش في المشاركة في عمليات مجابهة الوباء داخلياً، فإن انتشار الوباء داخل الجيوش، وخاصَّة على حاملات الطائرات، يَحُدُّ، بشكل كبير، من سطوتها العسكرية الخارجية.

فمن المتوقَّع أن تتقلَّص الأطماع الاستعمارية للقوى الكبرى لصعوبة تحقيقها. كما أنها قد صارت أكثر حاجة إلى التعاون لتحقيق نُمُوٍّ اقتصادي أفضل. كما أن الخيار العسكري في حَلِّ نزاعاتها، أو تحقيق أطماعها، قد صار أبعد ممَّا كان عليه في أيِّ وقت مضى. وإن كانت بعض التقارير تشير إلى أن الوَضْع رغم دعوة الأمين العامِّ للأمم المتَّحدة بوَقْف فتيل الحروب والنزاعات المسلَّحة؛ لأن ثمَّة عدوّاً حقيقياً يجب التَّصدِّي له على حَدِّ قوله: "فعالَمنا يواجه عدوّاً مشتركاً، يتمثَّل في فايروس كورونا الذي يهاجم الجميع بلا هوادة، ولا يأبه لأيِّ أصل عِرْقِيٍّ أو جنسية أو دِيْن"، لم يتغيَّر قليلاً.

ما أثاره الأمين العامُّ، وإن كان ينمُّ عن بادرة طيِّبة، ومخاوف كبيرة من تفاقم الأوضاع في هذه المناطق النِّزاعيَّة، لاقى استجاباتٍ، لم ترقَ إلى طموح الأمين العامِّ، فطبقاً لتقرير نُشِرَ في الإندبندنت العربية تحت عنوان "الحروب في زمن كورونا" يقول التقرير: إنه "لم تتحرَّك بؤر النزاع كثيراً نحو سلامٍ ملموسٍ، وفي أربع نقاط من العالَم فقط جرت أحاديث لا يُعوَّل عليها كثيراً عن رغبة في التسوية والسلام. الحوثيُّون في اليمن (خرِّيجو المدرسة الإيرانية في التلاعب بالمواقف والإعلام) أبدوا ردوداً، عَدَّها مبعوث غوتيريش، مارتن غريفيث "إيجابية"، وأبدت "قوَّات الدفاع الكاميرونية الجنوبية" دَعْمَهَا لوقف النار في بلدها، استجابة إلى نداء الأمين العام، وهو ما أعلنَهُ الحزب الشُّيوعيُّ المتمرِّد على سلطات الفيليبين، وكذلك قوَّات سوريا الدِّيمقراطيَّة التي أيّدت فكرة وَقْف إطلاق النار، وتعهَّدت بتجنُّب التَّحرُّكات العسكرية في شمال شرقي سوريا. فالوضع في بعض بؤر النزاع لم يملْ إلى السِّلْم كُلِّيَّة. على كلِّ حال، فهذه الاستجابات تعكس ردَّة فعل وتأثيراً قوياً لكورونا في تقليص الصراعات.

كانت تداعيات الأزمة كفيلة بأن تُعرِّي هشاشة الأنظمة، سواء في معالجتها للأزمة أو تناقض أيديولوجياتها. ومن ثمَّ لا يمكن إنكار أن ثمَّة خارطة جديدة، تُعيد تشكيل العالَم، خلافاً للتَّكتُّلات السابقة، سيكون هذه المرَّة

محورها صراع الكبار مع الكبار وفق تقرير لـ "بي بس سي" في الأوَّل من أبريل ٢٠٢٠، حيثُ ذكر أن الأزمة ستُمكِّن من تحقيق نقاط هائلة على سُلَّم السيطرة. وهو ما ستتبدَّل معه الكثير من التحالفات، وظهور تكتُّلات اقتصادية وسياسية جديدة.

هل يمكن لنا أن نقول إن جائحة كورونا أو كوفيد - ١٩ المســـتجدِّ هو بمثابة قَتْل (أو موت) للعولمة، وَفْقَاً لما أثارتْهُ التقارير الاقتصــادية عن آثار الجائحة على الاقتصــاد العالَمي. ثمَّة تأكيدات على أن عالَم ما بعد كورونا، هو عالَم شــديد الخصـــوصـــية، تبرز فيه الأنانية، بعدما كانت المبادرات الجماعية هي السائدة، والتي خضعت جميعها تحت مظلَّة العولمة.

خلقت الجائحة ظواهر جديدة، من شـــأنها أن تبدِّد الســلام الاجتماعي والمعايشـــة بين المواطنين، فثمَّة رُهَاب من الصِّينيِّيْن أو ما يُعرَف بـــ"الزِّينُوفُوبيا" الخوف من الغُرباء، في كثير من دول العالَم، صار أشبه بالعداء أو العنف ضدَّ الصِّينيِّيْن بل حتَّى للثقافة الصِّينيَّة. وهذا الخوف من الصِّينيِّيْن انتشر ليس فقط في أميركا أو أوروبا، بل إن حالات من العنف تجاههم والتَّنمُّر عليهم سُـــجِّلَت في لبنان والأردن ومصر.

وهذا العداء تحوَّل إلى عنصرية، كما في موقف الرئيس الأميركي الذي يستخدم في تصريحاته تعبير "الفايروس الصِّـينيّ" بكلِّ ما يحمل من اتِّهام وعداء للطرف الآخر. بل والأدهى أن العنصـرية سُـجِّلَت داخل الصين ضدَّ سُكَّان ووهان من الصِّينيِّيْن أنفسهم.

الصِّـدام مع الآخر والسَّـعي إلى إقصـــائه صـــار هو الشـــائع، كما حَدَثَ في دولة الكويت مع العَمَالَة الأجنبية، وهو ما أَكَّدتْهُ تصـــريحات الممثِّلة حياة الفهد، برَفْضـــها وجود المصـــريِّيْن العاملين هناك، وضرورة ترحيلهم إلى بلادهم أو بتعبيرها "أخرجُوهم من أرضنا، ولو إلى الصحراء وقاية من انتشار كورونا. إحنا مَلِّينا خلاص، وما عندنا مستشفيات، وعلى شنو ديارهم ما تِبِيْهُم، وإحنا نبتلش فيهم .. إحنا وصـــلْنا لمرحلة إنّنا مَلِّينا خلاص، اطلعهم واقطهم برًّا والله، واقطهم بالبرّ .. أكلوا الخير، ولعبوا واستأنسوا، بس يروحون".

كما أن المواطن نفسه صار لديه عداء (تنمُّر) لكلِّ مَنْ يعمل في المجال الطِّبِّيِّ. وهناك تقارير تفيد بأن مواطنين في فرنسا أبلغوا مدير العقار الذي يسكنون فيه، برفضهم تواجد إحدى الممرِّضات العاملات في مســـتشـــفى العَزْل، خشـــية من نقلها الفايروس للسُّـــكَّان، فالتَّنُّمرُ تجاوز الاعتراضـــات إلى العنف بالمضـــايقات أو بالاحتكاك غير المباشـــرة عن طريق إحداث علامات على ســيَّاراتهم في الجراجات، كرسائل مُشفَّرة في عدم قبولهم معهم، كنوع من التبعيد!

وفي مصر، وصل العنف إلى رفض أبناء إحدى المصابات بكورونا استلام جثَّتها عند وفاتها. ويدخل في إطار العنف رفض المواطنين في إحدى القرى المصـــرية دفن طبيبة ماتت متأثِّرة بكورونا. وهو ما يعكس تناقضـاً مع الميراث الدِّينيِّ الداعي لاحترام حُرمة الموت، وذِكْر محاسن الموتى، وبين رَفْضـهم الاقتراب منهم أو حتَّى دَفْنهم على نحو يتَّفق مع التكريم لهم.

كما حَدَثَ في الحادي عشـــر من أبريل ٢٠٢٠ في قرية شـــبرا البهو بمحافظة الدّقهليّة حين تجمهر الأهالي لمَنْع دَفْن جثَّة طبيبة، توفِّيت بمستشـفى العَزْل في الإسـماعيلية بعد إصـابتها بفايروس كورونا، خوفاً من العدوى، على الرغم ممَّا قاله الأطبَّاء من أن جثث الموتى لا تكون مُعدِية هكذا كما يظنُّون، وإن العدوى تنتقل فقط من الرذاذ المتناثر من أفواه الأحياء وأنوفهم فقط، هنا غرابة ترتبط بالموت والحياة، ليس بالمعنى البيولوجي فقط، بل بجوانب حياتنا اليومية وعلاقاتنا الاجتماعية كافَّةً أيضـــاً، تلك التي تتحوَّل من خلالها عاداتنا إلى أقانيم، تحجب الحقيقة.

اشتراكية المرض

على الرغم من الآثار السَّـلبيَّة التي أظهرتْها الأزمة إلى أن ثمَّة إيجابية ماثلة فيما يمكن تسـميته بـــــ "اشـتراكية المرض" فالطَّبقيَّة التي كانت سـائدة فيما قبل مَحَتْهَا هذه الجائحة، ولم يقتصـر المرض على الطبقات الأدنى، بل أصابَ الطبقات العليا، كما ساوى بين المرؤسين والرؤساء، في سابقة لم تحدث من

قبل، فرأينا رئيس وزراء بريطانيا بوريس جونســـون يدخل الحَظْر والعَزْل بعدما أصـــابتْهُ الجائحة، وبالمِثْل حَدَثَ مع المستشارة الألمانية
أنجيلا ميركل، حيثُ أصبح الفقيرُ والغنيُّ معرَّضَيْن بنَفْس الدرجة لهذا الوباء الذى أصبح عابراً للطبقات الاجتماعية بكلِّ درجاتها وتصنيفاتها (بي بي سي، الـ٢٨ من مارس ٢٠٢٠). هذا الوَضْع قد جعل الجميع متساوين من حيثُ العَجْز أمام مواجهة هذا الوباء.

الأديان حُصن الطمأنينة

لو رَبَطْنا ما يحدث الآن بعد انتشـــار فايروس كورونا وحاجة العوز إلى مخلِّص، والالتجاء إلى الله، طبعاً دون إهمال العِلْم، بعد أن ســادت الفلســفات الوَضْــعيَّة الجديدة والتَّيَّارات العلمانيَّة في الأوســاط الثَّقافيَّة، فنتج عن هذا أفكار من قبيل "خســـوف الله واحتجابه" كما عند مارتن بوبر، تماشـــياً مع حالة تغييب الدِّيْن التي أقرَّتْها هذه الفلسفات، وهو ما كان ميرسيا إلياد يسير عكسه، حيثُ كان يُبحِر في تاريخ الأديان والشـــرق القديم، والحديث والثقافة الهرمســـيَّة. فالدِّيْن عند إلياد يقع "في أُسِّ الوعي البشـــري، بوصلَتُهُ لاكتشاف الحقائق الوجودية والكينونيَّة".

فلنتأمَّلْ كيف استطاعت هذه الأزمة أو الجائحة أن تكشف "النواة المركزية للدِّيْن المنوي" كما وصفها ميرســـيا إلياد، والتي هي موجودة في "الميكانيزم العقلي"، وإن كانت هذه المرَّة لا تحتاج إلى مؤرِّخي الأديان للبحث في هذا الميكانيزم، فقد كانت الأزمة وتبعاتها كفيلة بالكشـــف عن وجودها بعدما غابت حلول الأرض، ولجأ الجميع إلى حلول السماء أو ساروا ناشدين "طُرُق الرَّبِّ" لو استعرْنا عنوان رواية شادي لويس، بعد أن كان "كبرياء الأنا الحديث" بعبارة الفيلسوف الفرنسي لوك فيري المستمَدّ من أفكار كانطيَّة خاصَّــة بنَقْد كلِّ يقين ونَبْذه، يحيط بكلِّ شــيء، وأن يُلغي كلَّ تبعية إزاء الخارج، في حين أنه في الحقيقة غير قادر على التَّحرُّر من كلِّ الأغلال المادِّيَّة والمعنوية، وها هو الآن بكلِّ ما يملك من تِقْنِيَّات وعلم وتكنولوجيا غير قادر على أن يصدَّ هجوم هذا الفايروس القاتل. فلجأ إلى ما كان يرفضــه من قبل شاهراً مقولات مثل "موت الله" و"اللَّاإيمان" و"اللَّامبالة الدِّينيَّة" .. وغيرها، كان غرضـها تنحية سُلطة القوى الغيبية أو الظَّلاميَّة الدِّينيَّة، لصالح العقل النَّقْدي وأنوار العلم.

تأمَّلْ مقولة البابا فرنســـيس الثالث بابا الفاتيكان: "نُناجيكَ، يا ربُّ، من بحرٍ هائجٍ. اِلْتَفِتْ إلينا. يا ربُّ، ولا تتركْنا في خضمِّ العاصفة، وقلْ لنا من جديد لا تخافُوا، لنُلقي عليكَ جميعَ هُمُومِنا، لأنكَ تعتني بنا". وبالمِثْل مقولة شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطَّيِّب في رسالته للعالَم بشأن كورونا، حيثُ جاء فيها: " .. يا أرحمَ الراحمين، ويا ظهرَ اللَّاجئين، ويا جارَ المســـتجيرين، يا أمانَ الخائفين، يا غياثَ المســـتغيثين، يا كاشفَ الضُّـرِّ، ويا دافعَ البلوى، نسـألُكَ أن تكشـفَ عنَّا من البلاء ما نعلمُ وما لا نعلم وما أنتَ به أعلم، إنكَ أنتَ الأعزُّ الأكرم". وبالمِثْل من مسـؤولين، أَعْيَتْهُم الحيلة، كما فعل رئيس وزراء إيطاليا جوسـيبي كونتي حين قال "لقد انتهت جميع الحُلول على وجه الأرض، الحلُّ متروك للســـماء". دون أن ننســـى صورة المُعالَج الذي خرج من مستشفى أميركي بعد ارتفاع أعداد الموتى وضِيق المستشفى بهم، فخرج إلى الشـــارع المجاور رافعاً يَدَيْه إلى الســماء دون أن ينبس بكلمة. هل كانت هذه الجائحة تأكيداً (ولنقل تذكيراً) لـــــ/ بوجود خالق لهذا الكون، وأن "بقدرة الأديان خَلْق الاطمئنان للمؤمنين بها" كما كان يؤمن ميرسـيا إلياد، ومن شـدَّة إيمانه كان يرى "أن أزمة الإنســان المعاصــر ســببها هو غياب الدَّيْن عن أُفق الإنســان"، دون أن يكون مقصـدُهُ في دعوته إلى التَّحرُّر من التِّقْنِيَّات الحديثة وإفرازاتها. أَ لَا نحتاج بعد هذه الفاجعة إلى رينسـانس أو بعث من جديد لقِيَم وأخلاقيات وسـياسـات، تسـعى أوَّل ما تسـعى إلى مَحوِ هذه الأخلاقيات الغريبة التي تولَّدت عقب الأزمة، وثانياً إلى بعث روح جديدة، أشـــبه بالميلاد الجديد، تكون قادرة على العطاء والاحتواء أم ســـيكون هذا البعث أشـــبه بالميلاد الكاذب؟ الغد هو الذي يجيب،

المطلوب فقط أن ننتظرَ، ولكنْ، ليس كأبطال مسرحية "في انتظار جودو" ننتظر دون ضَجَرٍ أو احتجاجٍ حتَّى لو كنَّا لا نعرف ماذا ننتظر؟

نُخب حائرة ومرتبكة

مَنْ يعيد بناء الثقة والأمل؟

هيثم حسين

هل تكون جائحة كورونا بمثابة زلزال لشبونة معاصر للفكر والفلسفة، تُعيد ترتيب أوراق الفلاسفة واهتماماتهم وانشغالاتهم، وتفرض عليهم أسئلة مثيرة عن الراهن والمستقبل، وتضع الفكر في مواجهة مع التاريخ والمستقبل معاً، لفَهْم الواقع، وتخطِّيه بما أمكن من تطويع قدراته، وترويض نقائضه، وفَهْم مشكلاته ..

فكما ألهم زلزال لشبونة الذي حَدَثَ عام ١٧٥٥، والذي يُعدُّ من أكثر الزلازل تدميراً في التاريخ، فلاسفة عصر التنوير لمناقشة تطوُّرات رئيسة في الفلسفة الدّينيَّة، وفتح المجال لتطوير الفلسفة، لتساهم بالمعالجة في فَهْم الحالة البرزخية التي سادت حينها، فإن جائحة كورونا يمكن أن تصبح زلزالَ لشبونة معاصراً، وذلك بما تمثِّله من تحدٍّ فلسفي وعلمي وإنساني، وما يمكن أن تخطَّه من بداية جديدة في عالَم الفكر والفلسفة والسياسة والاقتصاد والعلوم والبيولوجيا، ومختلف مناحي الحياة الأخرى.

أجبر وباء كورونا الذي يعتبر اختباراً وجودياً، وامتحاناً مصيرياً للبشرية، جميعَ الناس، في كلِّ أرجاء المعمورة، على مواجهة أسئلة عميقة حول الوجود البشري، أسئلة سبق أن حاول الفلاسفة السابقون تقديم رؤاهم وتصوُّراتهم وآرائهم عنها بسُبُل مختلفة.

ساد نوع من الاختلاف في التعاطي والمقاربة للجائحة وتأثيراتها من قِبَل الفلاسفة المعاصرين الذين حاول كلٌّ منهم تفكيكها ومعالجتها وتناوُلها تبعاً لأدواته الفلسفية، وتوجُّهاته الفكرية، سواء كانت منتمية إلى هذا الاتِّجاه أو ذاك ..

أعادت جائحة كورونا طَرْحَ الكثير من الأسئلة التي تتجدَّد عبر التاريخ، أسئلة نَفْسيَّة وسياسية وأخلاقية ووجودية أساسية، تحرَّك الفلاسفة لتقديم أطروحاتهم عنها، ومقترحاتهم لتخطِّيها، وكَشَفَ الواقع المستجدُّ أن البشرية تشهد تحوُّلاً تاريخياً، وتمرُّ بمنعطف خطير، حيثُ يتبلور تصوُّر جديد على وَقْع الأزمة المجتاحة، ينطلق من الصِّيَغ الموجودة، ويبني عليها، يلغي قيوداً، ويضع أخرى، تناسب الشكل الجديد الذي يمضي في تسارُع إليه، والذي ما يزال محطَّ أسئلة وتشكيك ومقاربة وتأويل ..

جدَّدت الجائحة تعريفات سادت لزمن طويل، عن الذات والآخر، عن الهوية في عالَم مضطرب، وكيف أن الآخر لم يعد الجحيم هنا، بل بات الشريك في مواجهة آخر أخطر، آخر غير مَرئيٍّ، شبحيٍّ يطوف في الأرض، ويفتك بالبشر، بدَّد الأنانية، ورتَّب مفهومَي الأثرة والإيثار، الآخر أصبح الخطر، ولكنه ليس الخطر بمعناه السابق فقط، بل بمعنى مضاف، الفيروس المستجدُّ أصبح الآخر، والآخر المستجدُّ الحامل للفيروس أصبح تهديداً كذلك ضمناً، باعتباره حاملَ فيروس محتملاً، ولا يجدي أيُّ هروب منه، أو تنكيل به، بل لا بدَّ من مواجهته لتلافي الخطر المُحدِق بالجميع.

تتجلَّى إحدى طُرُق التفكير في الوباء من حيثُ قدرته على توحيد البشرية لمحاربة تهديد خارجي، يكشف للجميع ضعفهم، ويُبقيهم في قلق متجدِّد، ويُجبرهم على تضافر جهودهم في جميع أنحاء العالَم لمعالجة هذا المرض، عسى أن يكون هناك اكتشاف قريب لإيقافه، وهذا ممَّا يحيي بعض الأمل بانتعاش

الوحدة الإنسـانية، لكنه، من ناحية أخرى، يُضمِر خطر تشكيل وحدات متباعدة، تتجسَّد في "نحن"، و"هم"، من دون تجسير الفجوة بينهما.
صدرت أطروحات تدور في فلك الحَيْرة والتَّخبُّط والارتباك، لكنْ، من الأهمِّيَّة بمكان التشديد على فكرة أنّ الوباء أرغمَ الناس على إعادة التفكير في أنفسهم، وفي وجودهم نفسه، وكيف أنّه لا بديل أمام الحضارات من التكافل لتحقيق التكامل، وتوحيد القوى والجهود والدراسات والأبحاث، من أجل إنقاذ الكوكب الذي يبقى الجميع شركاء فيه.
صَمَتَ عدد كبير من النخب الأوروبية على الكوارث التي تقع في منطقتنا، غضُّوا الطّرفَ عنها، وكأنّهم اعتبروا أنّ الحروب التي تُهلِك ملايين البشر هي مشكاتنا ومأساتنا، وعلينا التَّخلُّص منها بطريقتنا، ولكن
ذلك لا يعفيهم من المسؤولية الأخلاقية، ومن مسؤولية تعرية النظام العالَمي المساهم بتأجيج تلك الحروب والصراعات التي ولَّدت ملايين المهاجرين الذين توجَّهوا صوب القارَّة الأوروبية، حيثُ يمكن أن يكون فردوسهم المتخيَّل ..
شَهِدَ البحر المتوسِّط غَرَقَ عشرات الألوف في السنوات القليلة الماضية، لكن ذلك صار يمرُّ مرور الكرام في نشرات الأخبار، أصبحت أرقام الضحايا خبراً بسيطاً، لا يلفت العناية، ولا يسترعي الاهتمام في وسائل الإعلام، أصبح اللَّاجئون ملعونين، وكأنّهم سبب المصائب التي تقع في الدول التي وصلوا إليها، وَجَدَ فيهم اليمين واليسار، هنا وهناك، ذريعة للتَّملُّص من مسؤولياته، وإلقائها على كاهلهم، باعتبار أنّ شيطنة الآخر قد تخلق سبباً وجيهاً للإقناع، والالتفاف على الواقع ..
الكارثة الراهنة جعلت الجميع لاجئين في بيوتهم، يعانون في الحَجْر، ويبتدعون أساليب التعايش مع العَزْل المفروض، وكثيرون من الناس لم يتمكَّنوا من استيعاب فكرة البقاء في ظلِّ الحَجْر، شعروا بغربة في بيوتهم، اكتأب قسم، وعانى آخر، وظلَّ قسم، يبتدع لنفسه سُبُلَ تطويع الغربة التي تُداهِمُهُ في بيته وبين أهله ..
اللَّاجئون يعيشون حالة العُزْلة والحَجْر والغُرْبة المزمِنة في حِلِّهم وترحالهم، يعيشون محنة الوباء الذي تسبَّب به الدِّيكتاتوريَّات لهم، وألقت بهم الحروب على قوارع الطُّرُقات في مُدُن غريبة، وكانت الوحدة تنهش أرواحهم، وهم وسط حشود مزدحمة من الناس في الحالات الطَّبيعيَّة، ولعلَّ الوباء يكون فرصة للآخرين، كي يفكِّروا بهم، ويتماهوا معهم، وعسى أن يتفهَّموا حالات الاغتراب والإحباط والتَّشرُّد والاستيحاش التي تحاصرهم منذُ سنوات، وتسجن أرواحهم في سجون قاهرة مُهلِكَة.
كورونا حوَّل الجميع إلَّا لاجئين، وإن كان ذلك بصفة مؤقَّتة .. لكنَّ الشعور سيدوم طويلاً، عساه يساهم بإعادة بناء الأمل من جديد، بأنّ معاناة المضطهدين والمسحوقين والمظلومين واللَّاجئين ستحظى باهتمام أكبر، باعتبار أنّ الإحساس بها يفرض إحساساً بالمسؤولية إزاءها، لتبديدها والتخفيف من وطأتها القاهرة.
أعاد الفلاسفة المعاصرون في ظلِّ الأزمة الناجمة عن اجتياح الوباء للعالَم طرحَ أسئلة عن الثقافة الاستهلاكية التي رسَّخها النظام الرَّأسماليُّ، وكيف تمَّ تصدير الاستهلاك كميزة العصر، حيثُ السرعة في التَّلقُّف والإلقاء، في الإنتاج والاستهلاك، بعيداً عن أيَّة ديمومة مفترَضَة، بل تصوير أيَّة سياسات تنموية، أو سلوكيات تروم الاستدامة، على أنها بعيدة عن روح العصر، وغير متوافقة مع أساليب السوق السريعة، وعجلتها الدائرة، التي تطحن الجميع في مضمار الاستهلاك السريع.
كما أعاد الفلاسفة والمفكِّرون وَضْع العولمة على مشرحة النَّقْد والتحليل والتفكيك، وجدَّدوا مُساءَلاتهم للنظام العالَمي الذي ينبني على أفكار العولمة، ويغذِّيها، بحيث إن الحدود التي أطاحت عادت للواجهة

بشراسة أكبر، وفرضت الانغلاق والانعزال من منطلق الحماية والوقاية، وبدَّدت فكرة الوصاية العولمية من قبَل القطب الأوحد الذي بدا مهزوزاً بدوره، ومرتبِكاً في مواجهة الأزمة التي خَلْخَلَت استراتيجياته، وكشفت هشاشتها التي كانت إحدى تجلِّيات سيادة ثقافة الاستهلاك بدورها.

فرضت الجائحة سُبُلاً جديدة للبحث عن آليات مبتكرة للتَّصدِّي لها، وأَوجبَتْ توحيد الجهود لإدارة الأزمة العالَمية، ولم تُفسح أيَّ مجال للتَّشفِّي بالآخر، لأنها ساوت بين الجميع في حربها عليهم، وتهديدها لهم، وأصبح الاختبار الحقيقي في إدارة الأزمة متركِّزاً على أهمِّيَّة الوعي بقيمة التعاون العالَمي، وكيف أن وحدة المصير الإنساني ينبغي أن تكون في الصدارة، لأنّ الكوكب الأرضي بات على هيئة سفينة معرَّضة لخطر الغَرَق، ومساعي إنقاذه تقع على عاتق الجميع، ذلك أن من شأن الغرق أن يُودِي بالجميع.

بات الناس يُدرِكُون في هذه الجائحة مدى أهمِّيَّة الرعاية والقلق والاهتمام، وفي الوقت نفسه، باتوا يُدرِكُون مدى تصميم النظام السائد بالكامل للاستهلاك والإنتاج من أجل الحفاظ على هذه الحلقة التي لا نهاية لها، وذلك بالتزامن مع إدراكِهِم مدى هشاشة النظام الرَّأسماليِّ الذي تمَّ تكريس قِيَمِهِ بطريقة تراكمُيَّة سريعة، لم تفسح مجالاً كبيراً للمراجعة والمساءلة والتَّدبُّر والتقييم، بل اجتاح بقوَّة، ليفرض آلياته، وجاءت هذه الجائحة لتُنذِر بضرورة إعادة التفكير في التسلسل الهَرَمي الذي أفرزه هذا النظام العالَمي.

يتبدَّى من الأهمِّيَّة بمكان، التأكيد على فكرة أن الناس، هنا وهناك، وعلى الرغم من العزلة المفروضة على حركتهم الطَّبيعيَّة، خاصَّة في الحَجْر الصِّحِّيِّ، إلَّا أنهم يعرفون بأن وحدة الحال تجمع بينهم، وأنّهم يواجهون الحالة الإنسانية والنَّفْسيَّة معاً، وبما أن وحدة الحال تكون الرابط المشترك بين الجميع، فإنها تفرض تلقائياً التفكير بوحدة المصير البشري الذي يبدو مهدَّداً، والذي يحتاج إلى تضافر الجهود من أجل إنقاذ الحياة الإنسانية، بعيداً عن أيَّة صراعات أو تناحرات أو خلافات أو عداوات أو اتِّهامات متبادلة بتخليق الفيروس أو التعتيم على انتشاره بداية، وبخاصَّة الاتِّهامات التي يُطلقها الرئيس الأميركي دونالد ترامب ضدَّ الصين.

ليس هنالك من شكٍّ بأن الأزمة العامَّة تفرض مسؤولية مشتركة للناس تجاه بعضهم بعضاً، فليس هناك أحد في أيِّ مكان محصَّن ضدَّ الوباء، ومن هنا يكون في رفض العمل مع الآخرين لمَنْع انتشار الفيروس تملُّص من المسؤولية الأخلاقية والإنسانية، ويحمل مخاطر يمكن أن تؤدِّي إلى تفاقم الوَضْع للجميع، بحيث يكون الجميع سواسية في التَّعرُّض للخطر والتهديد، ويكون في التعاون إجبارياً من أجل إنقاذ الذات والآخر.

كورونا يدشِّن بداية تغيير عالَمي، ومن المأمول ألَّا يكون القرار الأخير فيه للشَّعبويِّيْن والعنصريِّيْن الذين يجدون زخماً فيه، يمكن أن يُنعِشَ آمالهم بالانغلاق على الذات، واستعداء الآخر أكثر فأكثر ..

كلُّ شيء يتغيَّر في عالَمنا .. ومن ضمنها آليات الإنتاج والاستهلاك، سُبُل التفكير، دروب التخطيط للمواجهة .. التغيير يمضي بسرعة، ومن الضَّروريِّ، والمفيد ألَّا يطحن بعجلته النُّخب وصُنَّاع الرأي من الأدباء والفلاسفة والمفكِّرين، الذين يُفترَض بهم عدم إفساح المجال لصُنَّاع القرار فقط لتوجيه دفَّة التغيير نحو الوجهة التي يريدون، والتي تحفظ مصالحهم ..

من الواجب التأكيد على فكرة أنّ العالَم ملك للجميع، والأرض سفينة تُبحِر بنا معاً، ولا يمكن أن يستهتر أحد بسلامتها، لأنّ الغرض مصير الجميع معاً .. المشتركات أكثر ممَّا يزعم الشَّعبويُّون، ولا بديل عن التضامن للخلاص.

يبقى السؤال الأهمُّ في يومنا هذا: مَنْ يعيد بناء الثقة والأمل؟

بؤس الفلسفة في زمن كورونا

حميد زناز

ماذا عسى للفيلسوف أن يقول لنا ونحن نعيش أزمة وبائية تُجبرنا على المكوث في بيوتنا وتجنُّب بني جِلْدَتِنا؟ بديهي أن تكون كلمة العلماء المتخصِّصين والأطبَّاء هي العليا، فهم وحدهم القادرون على تقديم إجابات علمية وعملية لمعاصريهم في كيفية الرَّدِّ على اعتداءات الفايروس الفتَّاك. أمَّا لدى الفلاسفة، فنجد القليل من الإجابات والكثير من الأسئلة والنقاشات الشاملة التي قد تقدِّم إضاءات مفيدة، ليس عن المأزق الوبائي الذي تعيشه الإنسانية فحسب، وإنما تكشف النقاب عمَّا يعتمل في أعماق بعض المفكِّرين المعاصرين، عن بعض نزوعاتهم المَخفيَّة، كي لا أقول المكبوتة منذُ مدَّة، في انتظار فرصة البوح، وبعضهم يتحيَّن الفرص والكوارث، ليُثبتَ صحَّة أطروحاته وتنبُّؤاته.

كعادته يصبُّ المفكِّر وعالَم اللِّسانيَّات الأميركي ناعوم تشومسكي جام غضبه على الرَّأسماليَّة النِّيُوليبراليَّة التي لم تقمْ بالإجراءات الاستباقية اللَّازمة، على الرغم من أن الوباء كان متوقَّعاً، وخاصَّة منذُ وباء سارس عام ٢٠٠٣، فهذا النظام الرَّأسماليُّ المتوحِّش حسب تشوموسكي لا يهمُّه مَنْع أيِّ كارثة مستقبلية، لأن ذلك المَنْع غير مُربِح اقتصادياً. ولا يتردَّد المفكِّر العجوز في القول بأن المنطق الرَّأسماليَّ يتعامل مع الكوارث تعاملاً تجارياً. وينسى المفكِّر اليساري الإشارة ولو من بعيد إلى مسؤولية الحزب الشُّيُوعيِّ الصِّينيِّ الكبيرة في انتشار الوباء!

ويذهب سلافوى جيجيك نَفْس المذهب حينما يرى في وباء كورونا التجسيد الواضح والبرهان الدامغ على عَجْز "عولمة السوق" وعبث الشَّعبويَّة القومية وإخفاقها الذريع. وكأنَّ كلَّ شيء كان جاهزاً في ذهنه، فقد نشر الفيلسوف كتاباً حول كورونا مع بداية الأزمة الصِّحِّيَّة العالَمية تحت عنوان "جائحة، كوفيد - ١٩ يهز العالَم"، مُجدِّداً حَلَّهُ السِّحْرِيَّ القديم/الجديد المتمثِّل في إعادة هيكلة النظام الشُّيُوعيِّ، باعتباره الحَلَّ الوحيد لمشكل العالَم. وإن كان حديث الفيلسوف السّلوفينيّ عن الدروس الإيكولوجية التي يجب أن نستخلصها من هذا الوباء معقولاً، بل ضرورة، فحديثه عن خُلُوِّ حياتنا المعاصرة من المعنى يبقى حديثاً عامَّاً بعيداً عن الواقع، إذ لا شيء يدلُّ على أن الرَّأسماليَّة هي المسؤولة عن فقدان ذلك المعنى الشامل المفترَض للحياة. فهل كان للحياة في يوم من الأيَّام معنى محدَّداً بين كلِّ البشر قديماً أو حديثاً؟ وبعيداً عن المعنى العامِّ الذي يريد جيجيك فَرْضَهُ على الناس، فلكلِّ إنسان الحُرِّيَّة في إعطاء المعنى الذي يريد لحياته.

أمَّا الفيلسوف الإيطالي جورجيو أغامبين، فقد وَجَدَ في وباء كورونا والحَجْرِ الحادِّ المفروضِ على المواطنين الإيطاليِّيْن فرصة للتأكيد على نظريته عن الحالة الاستثنائية التي اشتهر بها منذُ ظهور كتابه "حالة الاستثناء" سنة ٢٠٠٣. لقد بدأت الحكومات، حسبه، في تعويد الناس على العيش تحت الظروف الاستثنائية، إلى درجة، غدا فيها الاستثناء قاعدة، حالة طبيعية. ومن هنا فقدت المجتمعات حُرِّيَّتها، وانهزمت أمام السلطة، وتعوَّدت على العيش في حالة طوارئ دائمة مضحِّية بالحُرِّيَّة، من أجل الظَّفَر بالأمن، ولكنَّها تعيش في خوف وعدم أمن أيضاً. ويبدو واضحاً أن جورجيو أغامبين يريد إخضاع الواقع لنظريَّته من مقاله المنشور مع بداية أزمة كوفيد - ١٩في راديكاليَّته ومبالغاته، وخاصَّة حينما يتَّهم السلطات بخَلْق مناخ من الذعر، ويعتبر أنها تستخدم الحالات الاستثنائية، لتُبرِّر تعطيل القوانين، وانتهاج الحُكْم المطلق.

وعلى عكس أغلبية المفكِّرين، يُهوِّن الفيلسوف الفرنسي أندري كومت سبونفيل من هول الكارثة الوبائية مذكِّراً بمقولة، أصبحت شعبية من كثرة ما يُكرِّرها الفرنسيون في أحاديثهم اليومية "الموت

جزء من الحياة". فكأنه وفجأة يكتشف الناس أنهم فانون، يلاحظ الفيلسوف، كان الإنسان فانياً قبل كورونا، وسيظلُّ كذلك بعدها. ويستغرب سبونفيل من التهويل الذي يمارسه السِّياسيُّون والإعلاميون، في حين أن هذا الفايروس لا يُخلِّف سوى ١ أو ٢ في المئة من الوفيات لدى المصابين، وأن أغلبنا لا يموت بسبب كوفيد - ١٩ وأنها ليست نهاية العالَم.

ويتساءل الرجل عمَّا إذا كان موت ٢٠٠٠٠ بسبب كوفيد - ١٩ أخطر من هلاك ١٥٠٠٠٠ بسبب السرطان. ويضيف سؤالاً غريباً: لماذا يتوجَّب عليَّ الحِدَاد على ضحايا الفايروس ومعدَّل عمرهم ٨١ سنة؟ و٩٥ في المئة منهم قد تجاوزوا السِّتِّين؟ أنا قلق على مستقبل أبنائي أكثر من على صحَّة رجل مثلي في السَّبعينيَّات من عُمُره. ويحذِّرنا من جعل الصِّحَّة القيمة العليا لوجودنا. فما قيمة الحياة دون صحَّة الأبدان؟ صَدَقَ

الفيلسوف اللطيف إميل سيوران حينما يقول ماذا أفعل بالمرض والألم، فأنا لستُ شاعراً؟

وينتهز الباحث الفرنسي والفيلسوف بيار زاوي الفرصة، ليُصفِّي حساباته مع خصومه معتبراً وباء كورونا الكاسح ضربة لتعجرُف العبر- إنسانيِّيْن أو المتفائلين المؤمنين بالعلم إيماناً متطرِّفاً. فعلى عكس ما يدَّعون، يقول الفيلسوف، فالإنسان ليس قوياً كما يتصوَّرون وحياته عُرضة للعَطَب، ولا يمكن للتِّكنولوجيا أو التَّقدُّم حمايته من الألم والموت. وأن الإنسان الإله الذي يبشِّر به هؤلاء لا يزال بعيد التحقيق. ومن حسن الحظِّ أن ضعف الإنسان أو هشاشته ليس نقصاً أو عدم اكتمال فقط، وهي أيضاً حساسية وشِعْر وقدرة الإنسانية على حنان لا يُضاهى. وما يتجاهلُهُ الفيلسوف بيار زاوي هو هدف العبر- إنسانيِّيْن ذاته الذي هو محاولة تجاوز ضعف الإنسان وتعرُّضه الدائم للفايروسات والأمراض. فَمَنْ من البشر اليوم لا يرغب في التَّحصُّن تكنولوجياً ضدَّ كوفيد - ١٩ أو غيره من الأوبئة، ليحتفظ بالشِّعْر والحساسية والحنان؟

ولم تنتظر جين غودال العالِمَة البريطانية الشهيرة في علم الرئيسيات والبيئة طويلاً، بل ناقشت الأزمة الوبائية يوم الـ ٢٢ من يناير ٢٠٢٠ في منتدى دافوس الاقتصادي العالَمي، حيثُ حذَّرت البشر من التمادي في احتقار الطبيعة، وعدم احترامنا للحيوانات التي يجب أن نتقاسم معها كوكبنا في سلام، لا أن نمارس صيد الحيوانات، ونتاجر بها في الأسواق في أفريقيا وآسيا، وتجنّب تربية الحيوانات بطريقة مركَّزة، وتجميع ملايين الحيوانات. وتلك هي أسباب ظهور وانتشار الفايروسات وآخرها كوفيد - ١٩، حسبها. وأكَّدت صاحبة الـ ٨٦ ربيعاً أن الوقت قد حان لنتعلَّم من أخطائنا، ونتجنَّب كوارث المستقبل. وهي أطروحة أصبحت جزءاً من الثقافة العامَّة الأوروبية ومنتشرة حتَّى بين تلامذة المدارس الابتدائية في كلِّ بلدان الغرب الأوروبي. ولكن السؤال المغيَّب في دوائر الفكر هو كيف يمكن نَشْر هذا الوعي الإيكولوجي في كامل بقاع كوكبنا مع الأخذ بعين الاعتبار مسألة المجاعة في العالَم وكيفية حماية البيئة من الجوع المتعاظم في مناطق كثيرة من العالَم، وخاصَّة بين سُكَّان القارَّة السمراء؟ هل يجب التذكير دائماً بوجود ٧٣٦ مليوناً في حالة فَقْر قصوى في العالَم لا يتعدَّى دَخْل الواحد منهم أقلّ من دولارَيْن في اليوم، من بينهم ٤١٣ مليوناً، يعيشون جنوب الصحراء؟

أمَّا آلان باديو اليساري العجوز، فمازال يكرِّر تلك القوالب الجاهزة العتيقة كالدولة البورجوازية والصراع الطَّبقيِّ في تفسيره لكلِّ صغيرة وكبيرة تحدث في هذا العالَم. فالدولة في فرنسا بورجوازية في نظره، ولكنها لا تجهرُ بانحيازها الكُلِّيِّ للطبقة البورجوازية، وإنما تُظهِر تكتيكياً بعضَ اهتمام بالمصلحة العامَّة مع احتفاظها الاستراتيجي مستقبلاً بمصالح طبقية. ويدعو الفيلسوف إلى استغلال فرصة الوباء في العمل على التفكير في إيجاد بديل لهذا النظام البورجوازي مؤكِّداً أنه من السذاجة انتظار تأثُّر الرَّأسماليَّة المعاصرة جِدِّيَّاً بهذا الوباء. وإنما ينبغي العمل العابر للبلدان من أجل خَلْق سياسة

جديدة، تفرض تقدُّماً أمميَّاً مرتبطاً مع مرحلة الشُّـيُوعيَّة الثالثة، بعد مرحلة النشـأة العظيمة، ثمَّ مرحلة الهزيمـة في تجربتهـا الدّولتيّـة. آلان باديو المؤمن بـالدّيـالكتيك التَّـاريخيِّ لا يرى التـاريخ المخـالف لأيديولوجيته، ويفكِّر كما أن جدار برلين لا يزال واقفاً.

وما يثير الانتباه والدهشـة معاً كمِّيَّة المقالات التي نُشـرت منذُ بداية الجائحة حول رواية الطاعون للفيلسوف ألبير كامو المنشورة منذُ ٧٣ سنة، في حين أن لا علاقة لمضمون الرواية بما يجري اليوم مع فايروس كورونا، إذ كان كامو يتحدَّث رمزياً عن فايروس فتَّاك أيضـاً، هو النَّازيَّة والشُّـمُوليَّات بصـفة عامَّة كالصـين مصـدِّرة الفايروس اليوم، وروسـيا وإيران اللَّتَيْن ترتكبان المجازر في سـوريا ومعظم الأنظمة العربية ... فهل العودة إلى "الطاعون" تعبير عن نضوب الخيال والفكر في أوروبا؟

كورونا وثقافة المُخَيَّم الفلسطيني

عنصرية وحرب عالَمية ثالثة

المتوكِّل طه

يبدو أنّ ما وَرَدَ في كتاب "عين الظلام"، في مايو ١٩٨١، للكاتب الأميركي دين كونتز لم يكن صـدفةً! فصـفحات الكتاب تؤكِّد على أن ثمَّة "فايروسـاً" سيُصـيب الجهازَ التَّنفُّسـيَّ للإنسـان، وسينتشـر في العام ٢٠٢٠!

ولدى الاطِّلاع على العدد ١٦٨٤ من مجلَّة "سـيِّدتي" الخليجية في العام ٢٠١٣ سـنكتشـف أن هذا الفايروس موجودٌ حينها، وكان قد أصـاب عدداً من الناس في ذلك العام! عداكَ عن فيلم "كونتيجن"، وأوجه التشـابه بين سـيناريو هذا الفيلم المكتوب قبل عشـر سـنوات والأحداث الحقيقية لتفشِّـي فايروس كورونا حالياً ... تماماً ... فما الحكاية؟ وكيف لنا أن نُقارِب كلَّ هذا مع ما يجري من رُعبٍ وهَلعٍ في العالَم؟

أُرجِّح القول القائل بأن ما يجري هو حرب عالَمية ثالثة بين أقطاب الكوكب المتصـارعين على النفوذ، وبالذات بين الولايات المتَّحدة الأميركية والصـين، وإلَّا كيف لفايروس أن يهزمَ العالَم كلَّه؟ وهل كلُّ ما وصـلتْ إليه البشـرية من تقدُّم علميٍّ انهار، فجأة، ولم يعد قادراً على المواجهة؟ وهل أصـبح الإنسـان، المتغوِّل تِقْنِيَّاً، هشَّاً وعاجزاً إلى هذا الحَدِّ المُحرِج؟

أظنُّ أنّ وراء الأَكَمةِ ما وراءها، وأن ثمَّة ترتيباً جديداً يُعَدُّ لدول العالَم، وأن كلَّ ما يجري الآن من انتشـار مُفزِع للوباء ما هو إلَّا جزء من سـيناريو صـناعة "التصـديق"، عبر التهويل والإعلام، بهدف تمرير سـياقات كبرى وجديدة، تفترع العالَمَ، وتعيدُ تقسـيم كعكتَهُ على الكبار. وهذا لا ينفي خطورة الفايروس، بقَدْر ما يؤكِّد على جِدِّيَّة المؤامرة، لتصديقها والخضوع لها.

على صـعيدٍ آخر، يُطلُّ علينا بعض القادة "العنصـريِّيْن" الذين يطالبون بعَزْل المخيَّمات الفلسـطينية وغيرها ... باعتبارها بؤرة "شرٍّ وعَدْوى" تنبغي محاصرتها! الأمر الذي يُوقِظ الأسف والغضب على مثل هذه التَّفوُّهات غير الأخلاقية ... وكأن الفلسـطينيَّ أو أيَّ لاجئ ... هو المنذور الدائم لإلقائه في البحر، كحمولة زائدة عن الحاجة!

وأُذكِّر هنا بـــ "المخيَّم" باعتباره كلمة فلسـطينية بامتياز، لها إيقاعها وتداعياتها الثقيلة، ومدلولاتها المتناقضــة! والمخيَّم ـ كوحدة اجتماعية واقتصـادية وسـياسـية، وبالتالي أصـبحت ذات ملامح ثقافية ـ ينبغي دائماً أن يتصـدَّرَ الكلام، ويأخذَ الكلامَ كلَّه. فالمخيَّم كإفراز ونتيجة للنكبة والنكسـة أصـبح هو المعوَّل عليه بعد العام ١٩٤٨، بمعنى، وقعت على أبنائه وأجياله المتعاقبة أن يتحمَّلوا ويحملوا الرسالة،

وأن يجعلوا الشعلة مضاءة وعالية. ووقع المخيَّم - نتيجة لذلك - بين شَفْرات المطلق وشَفْرات النِّسبيِّ، ما بين متطلَّبات الثورة وفضائها وبين متطلَّبات الواقع وضِيْقه.

المخيَّم الذي يقع في منطقة الرماد في كلِّ شـــيء، جغرافياً - بكونه قريباً من المدينة، ولكنه ليس منها - وثقافياً - باعتباره غريباً عن النســيج الاجتماعي، وممنوعاً من الاندماج فيه - واقتصـــادياً - باعتبار أن موارده تأتي جاهزة، وهو ممنوع من الانخراط في الدورة الإنتاجية - وسـياسـياً - باعتباره ممنوعاً من المشـــاركة والتمثيل والانتخاب - كلُّ ذلك جعل من المخيَّم ينقســـم على ذاته، ويدخل في متاهات من التعريف وإعادة التعريف، الثورة كانت حلّاً، ولكنها ليست كلَّ الحلول، وخاصَّة بعد انكفائها.

المخيَّم - وهو وَضْـــع اســـتثنائي في تطوُّر المجتمعات وســـلوكها - منقســـمٌ على ذاته، لأنه موزَّع بين الانتماءات وموزَّع بين الولاءات وموزَّع بين الأمكنة، ومرَّة أخرى، المنفى ليس مكاناً وحســـب، المنفى تجربة مهيضـــة وقاسـية - وفي الوقت الذي يُجبر فيه اللَّاجئ على تعريف نفســه بقوَّة وتطرُّف، فإنه أيّ المنفى - قادر على إجبار أو إقناع اللَّاجئ بفقدان هويته أو التَّخلِّي عنها طواعية. المنفى قاسٍ وقاطع كحَدِّ السيف، والمخيَّم - باعتباره ليس أفراداً، وإنما وحدة اجتماعية وسياسية خاصَّـة - أُجبر الفلسطيني اللَّاجئ - كرهاً أو طواعية - على أن يحدّد انتماءاته وخياراته. ولكنْ، وبذات الوقت، فإن القضـــية الفلســطينية ليســت قضـــيتنا فقط، وعليه، فإن المخيَّم يتعرَّض لكثير من الإغراءات أو الإجراءات أو الآليات التي تزيد من عدم قدرته على التحديد أو حتَّى الاختيار، وخاصَّـــة بعد أن انكفأ المَدُّ الثَّوريُّ والقومي، ولا نقول انهزم.

المخيَّم الصـامد، مخزون الثورة الاسـتراتيجي، حامل المشـعل وشـاهد المرحلة ومعلِّم الأجيال، ومعلِّم الأيَّام أيضـاً، الذي طوَّر له لغة خاصَّـة ومصطلحات خاصَّـة، وقسَّم فئاته، وأعاد رَبْط ما انقطع، وسمَّى الأشـــياء من جديد، وأرغم المدينة، ومن ثمَّ القريب والغريب على الاعتراف به، والتعامل معه، هذا المخيَّم كان لزاماً عليه أن يصطدم بما حوله، شاء أم لم يشأ، الثورة خيار صعب، وهي خيار مجنون، ولا عقلاني أيضـاً، الثورة وجدان، والثورة لا حسـابات منطقية فيها - ومتى كانت كذلك يوماً؟ - وعندما اختار المخيَّم اصطدم بما حوله سريعاً، ومن هنا تعلَّم المخيَّم أن يكون متوجِّساً وشَكَّاكاً، ولا يثق، وإذا كان المخيَّم أرضية خصبة وطبيعية للمشـاعر القوية ضدَّ الاحتلال، فإنه طوَّر أيضـاً مشـاعر متناقضـة تجاه المحيط الذي يحيا فيه المخيَّم المعزول والممنوع والفقير، والذي يحيا بمنطقة الرماد في كلِّ شـــيء، طوَّر عقلية خاصَّة، هي عقلية اللَّاجئ، وهي عقلية متوجِّسة وشَكَّاكة وقريبة من الإيمان المطلق دائماً.

عقلية اللَّاجئ ليســت فيها تســويات كثيرة، وهي أقلُّ جدلاً وأقلُّ رغبة في الكلام، هي عقلية تحيا على حافَّة القبر، ليس أسـوأ من المنفى، وليس أسوأ من النكران، وليس أسـوأ من الفقر، المخيَّم لم يعد يزعج الاحتلال فقط. المخيَّم قنبلة سياسية، صحيح إلى حَدٍّ كبير، ولكنه أيضاً قنبلة اجتماعية. إن أذكى الأنظمة التي تحاول الســيطرة أو تذويب أو دَمْج المخيَّم أو تحويله من نار تحرق إلى نار يُطبخ عليها لم تصـــل إلى نجاح أكيد ونهائي. مرَّة أخرى، المخيَّم لم يعد يُزعِج الاحتلال فقط، ومن هنا، فإن حَلَّ القضـــية الفلســطينية هي أولوية عربية، ليس فقط من منطلقات ســياســية وأخلاقية وأمنية، وإنما من منطلقات اجتماعية صرفة. ولا أقصد هنا في الحديث أن يتحرَّك المخيَّم كلَّه باتِّجاه معيَّن، بل يكفي أن يكون هناك شــخصٌ ناتئٌ واحد، ليُدمِّر المخيَّم أو ليثيرَ المحيط ويُدمِّره. ولا أريد أن أسـترسـل في الأمثلة التي تؤكِّد الكلام إلى حَدٍّ كبير، أو على الأقلِّ لا تنفيه.

يجب الاعتراف بقوَّة وصرامة أن المخيَّم مشكلة اجتماعية وصحِّيَّة، وحتَّى لا نُفهَم خطأ - بنِيَّة حَسَنَة أو غير حَسَنَة - فإن المخيَّم يجب أن يزول ويختفي عن الوجود، لأن سُكَّانه يجب - وهنا أكتب "يجب" بخطٍّ كبير، وألفظها بملء الفم - أن يعودوا إلى ديارهم وأوطانهم التي هُجِّروا منها، هذا هو واجب الناس

الآن، وواجب الأجيال المقبلة أيضـــاً. ومَنْ ينســـى هذا الحقَّ أو يُفرِّط فيه، فإنه، عملياً، يقبل أن يأتي الأثيوبي أو الرُّوسيُّ الغريب إلى فلسطين، ويأخذ كامل الحقوق، فيما يُحرِّم على امرأة فلسطينية أن تعود إلى وطنها، لتعيش مع زوجها وأطفالها.

اقرؤوا قانون العودة الإســـرائيلي للعام ١٩٥٢ و١٩٧٢ والتعديلات التي أُجرِيَت عليه في الثَّمانينيَّات والتِّسـعينيَّات، لتروا مدى العنصـرية ومدى الاسـتعداد القانوني لمَنْع العرب الفلسـطينيِّيْن من البقاء في أوطانهم - عداكَ عمَّا يُدعى قانون "يهوديّة الدولة". ولكنْ، وبعد تأكيد هذا الحقِّ بما لا لبسَ فيه، فالمخيَّم هو الذي يحيا اليومي والنِّسبيّ ومتطلَّبات الحياة اليومية من أَكْل وشُرْب وتعليم وصحَّة وعمل وتأمينات اجتماعية وصحِّيَّة وأشكال سلوك متغيِّرة ومرتجلة.

هذا المخيَّم الذي يعيش على المطلق، ولكنه مضـــطرٌّ إلى التعامل مع النِّســبيِّ، يتحوَّل شــيئاً فشــيئاً - وخاصَّـــة بعد اتِّفاق أوســلو وتغيُّر العالَم ونجاح العولمة وانكفاء الثورات وتراجع الشـــعارات وخفوت الأصـوات عن العودة أو مضـامينها الحقيقية - فإن المخيَّم يتحوَّل إلى مشـكلة وعبء حقيقي، ليس على السـلطة الوطنية وحسـب، وإنما على الأنظمة التي تعيش فيها تلك المخيَّمات. لا يمكن حَسْـم المخيَّم في نهاية الأمر. عقلية اللَّاجئ الذي يحيا على الأحلام، ويضطرُّ إلى البحث عن لقمة الخبز، سيُطوِّر سلوكاً غير متوقَّع، هذا الكلام يعني ببساطة أنّ إسرائيل وغير إسرائيل مُجبَرون على حَلِّ القضية الفلسطينية، فـالهزيمـة حتَّى وإن توالـت لن تؤدّي إلى خَلْق علاقـة غراميـة مع المحتلّ، والفقر والنكران لن يُحوِّلا المجروحين إلى قدِّيســين، يدعون إلى محبَّة العدوِّ الذي نقدِّم له الخَدَّ الأيمن، ليصــفعه. ومهما بدا الكلام قاسياً، ولكنني أرجو أن يُفهَم بواقعيته وأهدافه البعيدة، فأنا عملياً أُلوِّح بالقدرات التي رأينا بعضـها، وتلك التي لم نشاهد بعد، والتي يمكن للمخيَّم أن يجترحها ما لم تُحلّ القضية الفلسطينية.

وبعيداً عن فذلكات الأكاديميِّيْن ورغبتهم في الوصف والتبويب والفهرسة، ومن ثمَّ الاستخلاصات، فإن المخيَّمات، التي تصبح عناوين للبلاد والثورة والحنين، تتحوَّل بفعل الزمن إلى مواطنين من درجة أقلّ، ويحصــلون على حقوق وواجبات أقلّ، أي أن جُرح الطَّرْد يضـــاف إليه جرح النكران والتهميش، وكأنّ حالة اللجوء هي حالة مشـبوهة أو مُدانَة أصـلاً، إن وضـعاً كهذا - وإن اسـتمرَّ بشـكل أو بآخر - وإن تمَّ استيعابه بشكل أو بآخر - وإنْ تمَّ - تدجينه بشكل أو بآخر - لا يمكن له أن يستمرَّ.

إن بيت الصـفيح ليس أفضـل حالاً من خيمة ١٩٤٨، وإن معونات وكالة الغوث التي تتناقص سـنة بعد سنة، لن تكون بديلاً عن أحلام عريضـة، وإن التطامن أو السكون أو الخضـوع لأوامر المحيط وقوانينه لن تســود إلى الأبد، خاصَّـــة إذا توالت عمليات التنازل والتطبيع المجَّانيِّ وقبول إســرائيل بالكامل دون إيجاد حَلٍّ لأكثر من ستَّة ملايين فلسطيني موزَّعين ما بين بيوت صفيحية أو خرائب بعيدة أو مجاهل لا يصل إليها الطريق.

وكلَّما تقدَّمْنا في الزمن، فإن مشكلة المخيَّم - متعدِّدة المستويات ومعقَّدة التَّجلِّيات - تزداد وتتفاقم، ليست فقط بسبب الآلية الخاصَّـة بتطوُّر المخيَّم وتعدُّد خياراته، وإنما أيضـاً - وبذات الدرجة من القوَّة - بسبب أزمة أو أزمات الأنظمة التي تعيش ضمن حدودها تلك المخيَّمات.

إنّ الأنظمة التي تعيش أزمات مختلفة تتعمَّق يوماً بعد يوم، وهي أزمات اقتصـــادية وسـياسـية، ولبنان تعطينا مثالاً مناسباً فيما يمكن للمقدّمات والنتائج أن تكون. إن تجسُّد السلطة الوطنية في الضِّفَّة والقطاع - أو في الضِّفَّة فقط في هذه الأثناء - لم يساعد حتَّى اللحظة في حَلِّ ضـائقة المخيَّم، بل على العكس من ذلك، إذ إن تجسُّـــد الســـلطة الوطنية بدا وكأنه حَلٌّ نهائيٌّ لموضـــوع المخيَّم، ومن هنا، ازدادت حِدَّة الموضـــوع، وزاد ضـــغطه الشـــديد على الوعي والوجدان. فهل ينتظر سُـكَّان المخيَّمات منفى أبدياً أم تجنيسـاً أم توطيناً أم تعويضـاً أم عودة مجزوءة؟ هذه الأسـئلة لم تكن في الماضــي، وهي الآن حاضـرة

بقوَّة، الأمر الذي يزيد من حدَّة وتطرُّف المســـألة، ونحن هنا نتحدَّث عن عقلية اللَّاجئ - واللَّاجئ ليس مهاجراً، ولا مغامراً، ولا مســتوطناً -، وقلنا إنها عقلية تطرُّف أكثر منها عقلية مهادنة، وعقلية تُبدي ما لا تُعلن، وإن تهديد المخيَّم بخيارات متعدِّدة ومختلفة ضـــمن أزمات متلاحقة وضـــغوطات من جهات متعدِّدة، كلُّ ذلك يدفع الأمر إلى عُنق الزجاجة. وإذا كانت النكبة ومن بعدها النكســة ومن بعدها الهزائم والأزمات، ثمَّ التفتيت والانقسام، قد أضـرَّت بالمخيَّم، فضُـرب وعُذِّب وحُوصـر، فإننا الآن على أبواب مرحلة جديدة، تُقْبَل فيها إســـرائيل، وتنشـــأ معها العلاقات، فيما يغرق المخيَّم بوَحْله أكثر فأكثر، إذنْ، فالأمر شديد، شديد، وعلينا الانتباه.

دِيستُوبيا

العالَم ما بعد الكورونا

فارس الذَّهبيّ

ها هو العقد الثالث من القرن العشرين قد بدأ، وها هي أشدُّ نبوءات المتشائمين تتحقَّق، لقد دخل البشر في حلقة مُفرَغة، مظلِمة، أغلب الظَّنِّ أنها من صُنْع أيديهم، إن لم تكن في مختبرات العالَم السِّرِّيِّ، فإنها بسبب تهوُّرهم وتسلُّطهم على مكنونات ومقدّرات الأرض.

لقد حجز آلاف الملايين من البشـــر في بيوتهم، في غرفهم، ممنوعون من لَمْسِ بعضـــهم أو لَمْسِ أيِّ شيء، ودون أن يسمحَ لهم بالخروج إلَّا لقضاء أشدِّ الحاجات ضرورة، متمترسون أمام التلفزيونات، أو الحواسـيب، يتلقَّون ما يُرسـلُهُ لهم الأخ الأكبر، من تسـلية أو معلومات أو أوامر، هل تنبَّأ بذلك الكاتب البريطاني الشـهير جورج أورويل، حينما تحدَّث عن زمن سـيأتي وسـيكون العالَم معزولاً عن بعضـه، والفسـحة الوحيدة لتلقِّي الآخر هي من شـاشــة، يتحكَّم بها أعوان الأخ الأكبر، للدِّكتاتور المسـيطر الذي يحكم العـالَم على اختلاف أعراقهم ومُســـمَّياتهم، الأكل في موعد، والعمل في موعد، النوم والترفيه والرغبة، كلُّ شـــيء في موعده. في يوم وليلة تحوَّل العالَم من قرية صــغيرة تجمع الكلَّ، إلى عشــرات ملايين الوحدات الملتصـــقة ببعضـــها البعض، والمنعزلة عن بعضـــها بُعْد القمر عن الأرض. العولمة تتفكَّك، العولمة وَهْم، التجارة الحُرَّة ستُستَبْدَلُ حمائيةً قاتلةً.

يقول أحد المحلِّلين على شـــاشـــة التلفزيون بأن هنالك طفرة عالَمية في معدَّلات السـياحة حصـلت في العقدَيْن الأخيرَيْن، ومَرَدُّ هذه الطفرة هو أن الطبقة الوسطى الصِّينيَّة قد أصبحت قادرة على شراء تذكرة طيران والذهاب إلى باريس أو لندن أو مدريد. لقد احتلَّ الصِّـــينيُّون العالَم، هم أكثر مَنْ يســـتفيد من التجارة الحُرَّة، ومن الدِّيمقراطيَّة، رغم أن بلدهم دكتاتوري، هل ســيســتمرُّ هذا الأمر، هنالك أحد ما لا يرغب بأن يبقى العالَم منفتحاً، ولا يرغب بأن يخرج شــعبه من القُمْقُم، ويعود ليرويَ لمَنْ لم يخرج بعد كيف هو حال الدنيا خارج المعمل الضـخم المترامي الأطراف في الصـين، وبالمناسـبة في الصـين أكبر نقابة للعمَّال في العالَم، وأكبر شـريحة عمَّالية في تاريخ الأمم، ومع أن الشُّـيُوعيَّة تحكمها إلَّا أن العمَّال مُضطَهَدِين هناك.

الأخ الأكبر ظهر في العالَم الدِّيمقراطيِّ وهو يطلُّ برأســه كلّ مساء في مؤتمر صــحفي، ليُنبِئ الناس ويُعلِّمهم كيف يغســـلون أيديهم، وكيف يصـــافحون حســـب الصـــيغة الجديدة، وكيف ينامون، وكيف يتسـوَّقون، وكيف يطبخون .. وتتداعى الأسـئلة! هل سـيسـتمرُّ المسـرح، يا سـيِّدي الأخ الأكبر فيما بعد الوباء؟ هل ستستمرُّ السينما، الفنون الاحتفالات والمهرجانات؟

يصمت الأخ الأكبر طويلاً، ولكنه يجيب بهدوء: كلُّ شـيء على الإنترنت مباح، شـرط ألَّا تتجمهروا. ممنوع التجمهر حتَّى ولو كان من أجل سماع خطبي ..
بعد الوباء من الممكن أن نبنيَ الجدار الرابع للمسرح، فحسب ما نَظَّرَ المنظِّرون للمسرح، فإن المسرح ذو ثلاثة جدران، وأمَّا الجدار الرابع، فهو مُتخيَّل، وَهْمي، وهو ينتصـب بين الجمهور فهو العلبة الإيطالية، أو الخشبة المسرحية، ولكننا من الآن فصاعداً، لن نسمح بأن يكون هذا الجدار متخيَّلاً، قد تتقافز الفيروسـات، من الخشـبة نحو الجمهور أو من الجمهور نحو الخشـبة، وهذا أمر مرفوض، لذا يمكننا بناء الجدار من زجاج، كي نكون رحماء، لا تقلقوا، يمكنكم مشـاهدة كلِّ شـيء، لكنْ، دون الإحساس بالممثِّل، بجسده، ببخور المسرحية، أو زهور بستان كرز تشيخوف، أو رائحة الدماء تفوح من مسرحية " تيتوس أندرنيكوس" لشكسبير.
سنبني الجدار، أَ لم نقل لكم، ابنوا الجدران، مع المكسيك، مع الفلسطينيِّيْن، مع الشرق، مع أفريقيا؟! لكنكم لم تستمعوا، وها نحن سنبني معكم الجدران البلُّوريَّة، كي يحميَ كلُّ طرف نفسه.
أمَّا بالنسبة إلى العروض الموسيقية، فلا مشكلة، يمكن لكلِّ مشاهد أن يجلس قبالة الجدار الزُّجاجيِّ، ويضع سمَّاعاتٍ، تُستخدَم لمرَّة واحدة في أُذنَيْه، ويستمتع بباليه فيجارو لموزارت، ولكن صوت ضحكه سيُكتَم تحت الكِمَامَة، فالرذاذ سيتطاير، وتنتشر العدوى.
هذا بالنسـبة إلينا، أمَّا بالنسـبة إلى مَنْ لا يملك ثمن تذكرة الأوبرا الجديدة، فيجب عليه أن يجلس في البيت،
وينتظر أوامر الأخ الأكبر، أو ينتظر أخباراً عن فَقْد أحبَّائه (بوريس جونسـون)، أو عن الحرب التي تخوضها البشرية في العالَم (ماكرون) أو عن الحرب الكونية الجديدة (ترامب) .. أو عن أرض السعادة (الصين)، في كلِّ مكان ينتشر الأخ الأكبر، أو نسخ منه، في روسيا الأخ الأكبر هو أشبه بالماتريوشكا، إخوة متداخلون في قلب بعضـهم البعض، بينما في سـوريا يبدو الأخ الأكبر أشـدَّ وضـوحاً، من قبَل الكورونا.
لن يقفَ مَدُّ السيطرة على ذلك فقط، بل ربَّما سيصل الأمر حَدَّ الجنس والحُبِّ، ولمَ لا؟! فالجنس سيُقنَّنُ، ليعودَ بغرض التكاثر فقط، ومَنْ يغامر بحثاً عن المتعة، سـينبغي عليه أن يتحمَّل منفرداً نتائج رغباته الحسِّيَّة الجسدية.
ربَّما لن يكون وَضْـع العالَم ها هنا في أيَّامنا هذه، وربَّما تكون هي بروفة لما سـيأتينا مسـتقبلاً، إن استمرَّينا بسياسات انتهاك الكوكب، وبدلاً من الكوفيد١٩، سيكون بعد عشر سنين ربَّما هناك كوفيد ٢٠، أو كوفيد ٣٠ أو كوفيد ٥٠، الأمر برُمَّته رهن إشارة الأخ الأكبر، وما يريده، ومَنْ يستطيع الجدال بشأن وباء يجتاح البشـرية، القوانين عُلِّقَتْ، والشـرائع أُوْقِفَتْ، وظهرت قوانين الطوارئ في أشـدِّ دول العالَم تمسُّـكاً بالدِّيمقراطيَّة، الأخ الأكبر هو مَنْ يحدِّد أين ومتى وكيف يوجد الكوفيد، الذي نجح في اختباره الأوَّل، ومَنْ يظنُّ أنه لم يكن هناك مَنْ يراقب ويُسـجِّل ويُدوِّن ويُحلِّل نتائج وتفاصـيل الجائحة منذُ اليوم الأوَّل وحتَّى يومنا، فسـيكون مُغرقاً في الخطأ، (فكلُّ شـيء مُعَدٌّ لنا، فلماذا تطيل التفاوض، يا ملك الانتظار؟) حسب محمود درويش ..
كلُّ شيء مُعَدٌّ ومُجهَّزٌ ومُهَنْدَسٌ لنا، ونحن لا نملك إلَّا أن نقول نعم، بَشَرٌ بقوَّة فيروس، وحضارة بعُمُر مجهري، لن تقوى على مواجهة ذاتها، "اعرفْ نفسَـكَ" قالها الإغريق على سـابك معبد دلف العُلوي، ونحن لم نعرف شـيئاً، لا عن أنفسـنا، ولا عن ما حولنا، وهل تعلمون ما الذي يحدث لمَنْ لا يعرف نفسـه؟! دائماً نتحدَّث حسـب الميثيولوجيا الإغريقية. مَنْ لا يلتزم بنصـيحة معبد دلف سـيفعلُ الأفاعيلَ

بنفسه، ربَّما حسب أوديب، سيتزوَّج أُمَّه، ويَقتل أباهُ، وسيتلوه السقوط التّراجيديُّ للبطل، هل تعرفون أحداً فعل هذا؟! ربَّما هو إنسان القرن العشرين.

كلُّ الفنون، المسرح والفلسفة والفكر والشِّعْر والقوانين والعمارة والنحت والأديان، لم ولن تستطيع الوقوف لحظة أمام الوحش القادم من داخلنا، الوحش المنفلِت منَّا، ربَّما نستطيع اقتحام المريخ، ولكن أعماق النَّفْس البشرية ستبقى لُغزَنا الذي سيقضي علينا، ولن تُحَلَّ معضلة الخلود، ما لم يتمَّ فتح قفل النَّفْس البشرية، هَوَس السيطرة على الآخر، على الكوكب، على المجرَّة، هَوَس التَّحكُّم بالشعوب وبالأمم، لا يمكن أن يكون بعيداً عن فيروس الكورونا، فالمجرم يحوم دائماً حول مكان جريمته، والفيروس والسيطرة والتَّحكُّم يحومون حول البشرية على الدوام، سيكون كلُّ شيء في مكانه، حتَّى الأمراض، دجَّنَّاها، استخدمْناها.

ولكنْ، وسط كلِّ هذا التشاؤم، لا بدَّ من بصيص ضوء، فالكرة الأرضية تنفَّست لعشر سنوات قادمة، بفضل انشغال البشرية بمعركتها مع الفيروس، ربَّما هذا ما سيكون عليه حال القرن القادم، بَشَرٌ بالمليارات، مَحجُورُون على الدوام في أماكن سُكناهم، غير مسموح لهم بالحركة، والتَّجوُّل، ومَنْ يفعل يموت، ليس من الأخ الأكبر، وإنما من الفيروس طبعاً، عالَم بلا حركة، سيعيش الكوكب، وسيلتزم البشر بجُحُورِهِم.

وما البشرية إلَّا قطيعٌ ضخمٌ من مخلوقات ذئبية حيوانية وشبه حيوانية، تسير مُتجاوِرَة مُتراصَّة، في درب مُوحِش لا نهاية له، في ذلك القطيع وعبر تلك الرحلة يحدث كلُّ شيء، في البدء، التهمَ قطيعُ الذئاب نفسَهُ حينما جاع، ولكن الرحلة الطويلة والتعايش جعل تلك المخلوقات تخفِّف الوطء، وبدأت تُعَقْلِنُ مسيرها اللَّامنتهي، ذئاب تسير في درب لامنتهي، ربَّما هو توصيف أشدُّ دقَّة، هنالك ذئب يقود، وذئاب تتبع، وأخرى تتبع مَنْ يتبع، وهكذا في بنية عنقودية ضخمة، وضعت تلك الذئاب قوانينها، ونظَّمت بينها الشرائع، ولكنْ، عند أيِّ خَلَل، سترجع الذئاب لذئبيَّتها، وتعاود اقتناص بعضها. وستبقى تسير وتسير وتسير، بحثاً عن شيء تلتهمه في جوع لانهائي، وفي اللحظة التي ستتوقَّف فيها القافلة، ستكون نهاية العِرْق، ونهاية النوع ..

وهكذا ستكون قافة ذئاب تسير، وعيون تراقب من جُحُور الخوف والمرض والعَجْز. إنه عالَم الكورونا.

الجائحة والقربان

من نَظَرِيَّة المؤامرة إلى نَظَرِيَّة المقامرة

مخلص الصغير

كَشَفَ فيروس كورونا عن انحطاط أخلاقيٍّ كبير في تدبير الجائحة، وعن اندحار مُرعِب للقِيَم الإنسانية. فقد انغلقت الدول على نفسها، واستحالت إلى جُزُر معزولة، وهي تبحث عن خلاصها الفردي، متجاهلة أن مواجهة الفيروس تقتضي تضامناً دولياً واسع النطاق حتَّى بتْنا نسمع، أحياناً، عن اعتراض طائرات وسفن محمَّلة بأدوية وكِمَامَات، من قِبَل بعض الدول التي أحيَت أمامنا حكايات القراصنة وقطَّاع الطُّرُق في العصور المظلمة. جرى تبادل الاتِّهامات بين الدول الكبرى، بدل تنسيق التعاون وتبادل الإمكانيات والخبرات. تنكَّرت أكبر قوَّة في العالَم لمنظَّمة الصِّحَّة العالَمية، وغاب التنسيق الدولي بخصوص البحث العلمي المستعجل عن لَقَاح للفيروس، واستنزفت الأنظمة الصِّحِّيَّة طاقتها، وباتت على وشك الانهيار ... أصبحت دول جديدة على عتبة الفقر، بينما ينتظر أن تصير الفقيرة أشدَّ فقراً، في غياب أيَّة مساعدات أو مبادرات إنسانية ممكنة في المستقبل. مثلما تصاعدت

موجات العنصرية والتمييز تجاه هؤلاء وهؤلاء، من طاعنين في السِّنِّ، ومهاجرين ولاجئين ... قامت آلاف الشركات والمصانع بتسريح ملايين العمَّال، عبر العالَم، بما فيها تلك التي لم تتوقَّف عن الإنتاج، وقامت أخرى بتخفيض رواتب المستخدمين إلى النصف أحياناً ... وبهذا، يكون النظام النِّيُوليبرالي قد أعلن عن إفلاسه الأخلاقي، وبتْنا في حاجة إلى نظام إنساني جديد، وإلى نَقْد كُلِّيٍّ للعولمة المتوحِّشة، مع الشروع في مراجعات فكرية عميقة وشاملة لنمط العيش على كوكب الأرض، عبر إعادة ترتيب الأولويات، والقَطْع مع الثقافات الاستهلاكية والسَّطحيَّة، وذلك من أجل عولمة إنسانية بديلة، وحياة كريمة ومُستَدَامَة في بيئة مُستَدَامَة.

نَظَرِيَّة المقامرة

إذا كانت نَظَرِيَّة المؤامرة أطروحة شيطانية، تبعث على الارتياب، فإن ما نُسمِّيها "نَظَرِيَّة المقامرة" لا تدع لنا مجالاً للشَّكِّ في أن تأخُّر فرض الحَجْر الصِّحِّيِّ، ثمَّ الإسراع إلى كَسْر قيود هذا الحَجْر أمام فيروس كورونا، بدعوى الحفاظ على دورة الحياة الاقتصادية، كلُّ ذلك من شأنه أن يُعرِّض العالَم للهلاك. وقد أبان هذا التَّسرُّع نحو فَتْح الأسواق عن جَشَعِ الأنظمة الرَّأسماليَّة في سباقها نحو "التَّسلُّع"، على غرار سباقها نحو التَّسلُّح، والحرب واحدة. على أن أفظع ما يمكن أن يُقدِم عليه المسؤولون اليوم هو تقديم المواطنين قرباناً لإله المال الذي تدين له السياسات اللِّيبراليَّة المتوحِّشة، والدَّفْع بهم إلى معترك الموت، وجعلهم وجهاً لوجه أمام الفيروس السَّفَّاح الذي تسرَّب إلى رئة البشرية، وكاد يخنق أنفاسنا أجمعين.

أولى المفارقات التي استوقفتْنا في هذا السياق هي أن آخر الدول التي فرضت الحَجْر الصِّحِّيَّ، بعد أن دَاهَمَهَا الوباء، وفَتَكَ بها، صارت في طليعة الدول التي دعت إلى رَفْع هذه التدابير الاحترازية، وهو ما يُنذِر بالكارثة. ذلك أن الوباء اللعين قد يعود من جديد، وربَّما يصير أشدَّ فتكاً ودماراً ووحشية. يتعلَّق الأمر بأكبر قوَّة في العالَم، أَلَا وهي الولايات المتَّحدة الأمريكية، التي أبانت عن استهتار مفرِط، وإن كان الرئيس دونالد ترامب قد تهرَّب من مسؤولية رفع الحَجْر الصِّحِّيِّ، وفوَّض لرؤساء الولايات الخمسين سلطة اتِّخاذ هذا القرار. وأرباب المصالح الاقتصادية الكبرى التي تتحكَّم في هؤلاء وهؤلاء، قد تدفعهم دَفْعاً إلى رَفْع الحَجْر في وقت سابق لأوانه، لتُواصِل كورونا حَصْدَ الأرواح، وتقديمها على شكل فدية لتحرير الاقتصاد من الكساد. تذكِّرنا هذه المقامرة بخطَّة جهنَّميَّة أخرى، جرى الترويج لها، انطلاقاً من إنجلترا، وهي استراتيجية "مناعة القطيع"، التي اقترحت أن نسمح للفيروس بالانتشار، إلى أن تتشكَّل لدينا المناعة الجماعية ضدَّه. لكنْ، سرعان ما تراجعت الثقة في هذه الاستراتيجية بعدما كَشَفَ الفيروس عن قدرات خارقة لتطوير نفسه، بينما نحن لا نعلم كم رأساً من هذا القطيع وَجَبَ تقديمه فدية وقرباناً لإنقاذ النظام العالَمي الجديد من الانهيار.

ثمَّ سرعان ما داهم الفيروس الولايات المتَّحدة الأمريكية في النصف الثاني من شهر أبريل، وبداية شهر ماي، حين أتى على عدد كبير من الضحايا، حتَّى صارت الولايات المتحدة الأمريكية أكثر الدول تضرُّراً على الإطلاق. أمَّا في أوروبا، فقد دفع التراجع النِّسبيُّ لعدد الوفيات إلى التفكير في رفع الحَجْر الصِّحِّيِّ، والتسريع بذلك، في ما يشبه مجازفة غير محسوبة العواقب. وفي مقابل ذلك، لا أحد من المسؤولين الرَّسميِّيْن في قطبَي النظام العالَمي الجديد (أوروبا وأمريكا) حذَّر من عودة ثانية للوباء، ومن هزَّة ارتدادية، قد تضرب من جديد.

نهاية الإنسان

لا شكَّ أن أغلبنا قد انتابه الإحساس بأجواء القيامة، في الأيَّام الأولى من فرض الحَجْر الصِّحِّيِّ. لكننا لا نريد أن نتحدَّث عن نهاية الإنسان بهذا المعنى، ولا بالمعنى الذي طرحه فرانسيس فوكوياما، قبل ثلاثين

عاماً. ولكنْ، بالمعنى الذي أورده المفكِّر الأمريكي من أصـــل ياباني في مقاله الأخير، بتاريخ ٣٠ مارس، منتقِداً ما أسماه "عناد ترامب"، الذي بقي مُصرَّاً على أن الوباء في الولايات المتَّحدة يظلُّ تحت السـيطرة، وسـينتهي عمَّا قريب. ومن خلال هذا الوعد الزائف، خسـرت الولايات المتَّحدة الأمريكية "شـهرَيْن ثمينَيْن"، كما يقول فوكوياما، كانا كافيَيْن لتعويض النَّقْص الحادِّ في الإمدادات والمعدَّات الطِّبِّيَّة الكافية، وتفادي الخسائر البشرية الفادحة التي تكبَّدتْها أمريكا، فما هو إلَّا شهر واحد حتَّى صارت أكبر دولة تضـرَّرت من الجائحة. والأمر نفسه بالنسبة إلى إيطاليا وإسبانيا وإنجلترا، وكذا في فرنسا، التي فَضَحَ الوباءُ افتقادَها إلى الإمكانيات الطِّبِّيَّة الكفيلة بمواجهة الوباء.

مقابل القول بموت الإنسـان، أَمْكَنَ الحديثُ في هذا السـياق الموبوء عن تغييب قِيَم الإنسـانية في تدبير الجائحة. لقد تحوَّلت البشـرية في نَظَر الغرب إلى قطيع وقربان ورعية تخضـع لإله المال، وتقع تحت تصـرُّفه، وله أن يُضـحِّي بنصفها؛ ليس من أجل النصف الآخر، وإنما من أجل استمراريته وربوبيته. والتضـحية هنا أُضـحيَّة وفدية وقربان أيضـاً. وبهذا، صـرْنا أمام معجم "حيواني"، انتفت معه أيَّة نزعة إنسانية أو قيمة أخلاقية في النَّظَر إلى المصير البشري المشترك.

مثل هذا الموقف اللَّاإنسـاني كَشَفَتْ عنه السَّياسيَّات الغربية، من خلال تدبيرها لجائحة كورونا، أيضـاً، حين تركت المئات لمصـيرهم في دُوْر العَجَزَة، والأمر نفسـه بالنسـبة إلى اللَّاجئين في الجزر اليونانية، كما توقَّفت عند ذلك المفكِّرة الألمانية كارولين إيمكه. أو حين يتسـاءل مفكِّر ألماني آخر، هو فيلسـوف النَّظريَّة التَّواصـليَّة يورغان هابرماس، عن فظاعة أن تُقرِّر جهة ما تقديم العلاج لشـخص، وتَرْك آخر للموت، بسبب الاكتظاظ الذي عرفتْهُ المستشفيات، على نحو ما حَدَثَ في إيطاليا وإسبانيا وغيرهما. هذا فضلاً عن الدَّفْع بعدد من الأطبَّاء والممرِّضين إلى غُرف الإنعاش، وهم يواجهون المصابين بلا كِمَامَات ... بينما ارتدى الكثير من الساسة أقنعةَ المدافعين عن الصالح العامِّ.

هذا التَّنكُّرُ لكبار السِّنِّ، الذين صنعُوا الغرب نفسه، وبنوا مجد الغرب على أكتافهم، منذُ منتصف القرن الماضـي، يوازيه التَّنكُّر للَّاجئين والمهاجرين، الذين ساهموا في ذلك أيضـاً، ويُزكِّيه الموقف العنصـري منهم، والذي يُتوقَّع أن يتصـاعد في عالَم ما بعد كورونا، بسـبب الأزمة الاقتصـادية والمالية التي سـتضـرب أوروبا وأمريكا، كما لم يحدث من قبل. وسـيكون المهاجرون واللَّاجئون القادمون من دول الجنوب في مقدّمة ضـحايا هذه السياسات العنصـرية واللَّاإنسـانية. وهو ما من شـأنه أن يُفاقِمَ الهُوَّة بين الشَّـمال والجنوب الذي يعتمد على تحويلات العاملين المقيمين في الخارج، كما تعيش ملايين الأُسَـر من الإعانات التي تتلقَّاها من ذويها في الغرب. وتلك العنصـرية هي التي طَفَتْ على السـطح من جديد، ارتباطا بالظَّرفيَّة الحالية، حين اقترح طبيبان فرنسـيان، مثلاً، تجريب لَقَاح في إفريقيا، لمعرفة مدى فعاليَّته ضدَّ كوفيد ١٩، إلى غير ذلك من تجلِّيات هذه النظرة الغَيْريَّة الشُّـوفينيَّة. وكان الرئيس الفرنسـي إيمانويل ماكرون قد جَرَّ على نفسه وابلاً من الانتقادات واسعة النطاق في الفترة نفسها، لمَّا صـرَّح بأنه تَبَاحَثَ مع رئيس منظَّمة الصِّـحَّة العالَمية بعض المبادرات التي يجب اتِّخاذها تجاه قارَّة إفريقيا، ارتباطاً بالجهود المبذولة لمكافحة فيروس كورونا.

لسنا هنا أمام انهيار اقتصادي، بسبب جائحة كورونا، بل نحن أمام انهيار أخلاقي، تهاوت معه مقولات وشعارات حقوق الإنسـان الاقتصـادية والاجتماعية والمَدَنيَّة. ما يُسمِّيه المفكِّر الفرنسـي ميشيل أونفري "انحطاط الغرب"، بسبب السياسـة النِّيُوليبراليَّة الجشـعة التي أخفقت في تدبير جائحة كورونا، على حَدِّ قوله. وهو ما جعل مفكِّراً آخر هو سـلافوي جيجيك يُسـارِع إلى تأليف أوَّل كتاب حول الجائحة، بعنوان "كوفيد - ١٩ .. الفيروس الذي هزَّ العالَم"، تنبَّأ فيه بنهاية النظام الرَّأسـمـاليِّ، داعياً إلى أهمِّيَّة إحياء شُـيُوعيةٍ من نوعٍ جديد(*). ويبدو أن أوَّل مَنْ يجب أن يسـتفيدَ من درس جيجيك هذا هو جيجيك نفسـه،

والذي كان، إلى وقت قريب، في طليعة المناهضـــين للّاجئين إلى أوروبا. أمَّا المؤرِّخ الأمريكي مايك ديفيس، فقد ألَّف هو الآخر كتاباً بعنوان "تسلُّل الوحش"، صَدَرَ عن "أور بوكس"، في نيويورك، صنَّف فيه كوفيد ١٩ وأنفلونزا الطيور ضمن ما أسماها "أوبئة الرَّأسماليَّة"(**). وبينما ينتقد المؤرِّخ الأمريكي إيغال ترامب في التَّغنِّي "نَظَرِيَّة المؤامرة"،
إلى درجة تسمية كوفيد ٢٠١٩ بـــــ "الوباء الصِّـينيِّ"، فهو يدعو إلى ضـرورة أن تكشـف السـياسـات الأمريكية عن تضـــامن داخلي وخارجي مع المتضـــرِّرين من الوباء، صـــحِّيَّاً واقتصـــادياً، في المجتمع الأمريكي، كما في المجتمعات الإفريقية والآسيوية الفقيرة.
من هنا، سـيصـبح المجال الصِّـحِّيِّ مركز انشـغال الأنظمة والقوى السِّـياسـيَّة في المسـتقبل، ومدار اهتمامها. سيتمُّ تخصيص ميزانيات أكبر لتوفير الحاجيات الصِّحِّيَّة، ولتشجيع البحث العلمي في المراكز والمختبرات الطِّبِّيَّة، على حساب القطاعات الأخرى. سينتصـر السباق نحو البنيات والمعدَّات الصِّحِّيَّة على حساب السباق نحو التَّسلُّح وغيره، وذلك من أجل مواجهة هذا العدوِّ اللَّامرئيِّ، الذي أعلن الحرب على البشرية من جانب واحد. سيخوض العالَم معركة الصراع الصِّحِّيِّ، وهو صراع من أجل البقاء، ما دام هذا الوباء يتهدَّد الوجود الإنساني ومصيره فوق كوكب الأرض.
عودة الاستبداد
الدعوة إلى التَّقيُّد بالحَجْر الصِّـحِّيِّ حفاظاً على سـلامة الناس لا تُشَـرعِن للاسـتبداد، ولا تأذن لأيِّ نظام بأن يتَّخذ من الظَّرفيَّة الحالية مُسوِّغاً لتقييد الحُرِّيَّات، وسَلْبها. ذلك أن حالة الاستثناء هنا هي بقاء الناس في بيوتهم للضـــرورة، من أجل ســلامة الجميع، وإلَّا فإن حُرِّيَّة التنقل مضـــمونة للجميع، بينما لا مبرِّر لأيِّ قَمْع أو مَسَـــاس بالحُرِّيَّات تحت طائل حالة الاســـتثناء. لأجل ذلك، فإن تقييد حُرِّيَّة التَّنقُّل، باعتباره قراراً محدوداً، في الزمان والمكان، ضـــمن الظَّرفيَّة الحالية، يقتضـــي عدم التطاول على الحُرِّيَّات الأخرى، من قبيل حُرِّيَّة التعبير وغيرها من الحُرِّيَّات المَدَنيَّة والحُرِّيَّات العامَّة. كما تســـمح وســـائط التواصـل الجديدة بكلِّ أشـكال الاحتجاج ضـدَّ السـياسـات وإدانة الممارسـات اللَّاإنسـانية والانتهاكات الجسيمة.
من هنا، تبدو مخاوف المفكِّر الإيطالي جورجيو أغامبين مبالغاً فيها، حين نبَّه إلى مخاطر "عســـكرة الفضـاء العمومي"، في زمن الجائحة، محذِّراً من تقييد حُرِّيَّة المواطنين وحركتهم. هذا الطَّرْح الذي جَرَّ على مؤلِّف كتاب "حالة الاسـتثناء، أو الإنسـان المسـتباح" انتقادات كثيرة، سـرعان ما يقع في مفارقة أخرى، تتمثَّل في تقديم حقِّ الإنسان في حُرِّيَّة الحركة والتَّنقُّل على حقٍّ أسمى، هو الحقُّ في الحياة. كما أن التزام الحَجْر الصِّـحِّيِّ لا يُصـادِرُ الحقوق الأخرى، ومنها الحقُّ في العمل، ولو عن بُعْد، والحقُّ في الحصـول على المعلومة، والحقُّ في تداوُلها، في الفضـاءات العمومية الافتراضـية الرحبة، والتي تسـعُ الجميع، وتسمح بتدافُع الأفكار والطروحات، وتجاذُب الرؤى والتَّصوُّرات.
يمكن أن نتوقَّف ههنا عند طابع السِّـرِّيَّة الذي فرضـتْهُ الحكومة الفرنسـية على تدبير الأزمة الوبائية، والتي جرَّت عليها سيلاً من الانتقادات للحكومة، تراجعت معه شعبية الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون ورئيس وزرائه إدوار فيليب، وشارفت على الحضيض. كما نستحضر هنا قضية اهتزَّ على إثرها الرأي العامُّ في المغرب، بعد تسـريب مشـروع قانون يتعلَّق باسـتعمال شـبكات التواصـل الاجتماعي والبثِّ المفتوح والشـبكات المماثلة. المشـروع الذي مرَّ من المجلس الحكومي المغربي، نصَّ على سـلسـلة من العقوبات الزَّجريَّة، من بينها الحَبْس من ســتَّة أشـــهر إلى خمس ســـنوات، وغرامة من ١٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ درهم، في حقِّ "مَنْ قام بالدعوة إلى مقاطعة بعض المنتجات أو الخدمات، وعلى مَنْ قام بالتحريض على سَـحْب الأموال من مؤسَّـسـات الائتمان". الأمر الذي لقي اسـتنكاراً كبيراً، واعتبره

المراقبون والمتتبِّعون بمثابة ردٍّ فعل استبدادي في حقِّ حملات مقاطعة بعض المنتوجات التابعة لجهات معيَّنة، كانت قد انطلقت منذُ سَنَتَيْن.

يُنبِّهُنا ميشيل فوكو في "المراقبة والعقاب" إلى أن الدولة الاستبدادية في العصور الوسطى وَجَدَت في الطاعون سانحة لاستتباب التَّسلُّط، ولفَرْض مزيد من العَسْكَرَة على المدينة والناس، عبر فرض حالة الطوارئ، وحَظْر التَّجوُّل. لكنَّ دول اليوم هي أوَّل مَنْ تسعى إلى رَفْع هذا الحَجْر، لأنها قائمة على اقتصاد السوق، وعلى حركة المبادلات التِّجاريَّة عبر العالَم. كما أن ثمَّة فضاء عمومياً جديداً، يلتقي فيه المواطنون من مختلف الثقافات، وهو فضاء افتراضي حُرٌّ، مع أنه ليس بمنأى عن المراقبة والعقاب أيضاً.

العائدون من الموت

بعد مرور جائحة كورونا، سنكون أشبه بالعائدين من الموت. وسيكون المواطنون في مختلف الدول أشدَّ شراسة وهم يدافعون عن حقِّهم في الحياة. ولن يتراجع أحد إلى الوراء، ولن يخاف من الموت نفسه، وقد قابلَهُ بالأمس، وجهاً لوجه، في أيَّام كورونا. من هنا، فإن الدول التي ستحاول فَرْض هيمنتها والتطاول على الحُرِّيَّات الفردية والجماعية، والعودة إلى الاستبداد والتَّحكُّم، إنما تُعرِّض نفسها لخطر احتجاج، يتهدَّد وجودها. ستكون الدول الأكثر ذكاء هي تلك التي تستعيد أدوارها التَّاريخيَّة، من خلال الإشراف على القطاعات الأكثر حيوية والأكثر تعلُّقاً بالحياة، وفي مقدّمتها الصِّحَّة والتعليم والثقافة المتنوِّرة والابتكار والبحث العلمي، فضلاً عن المجال البيئي الذي يرتبط بمصير الأرض، ومصير الإنسان فوقها، في مواجهة كلِّ الأوبئة والتهديدات المحدِقة به. ثمَّ هنالك قضايا تغيُّر المناخ والريح الشِّرِّيرة المرافقة لانبعاثات ثاني أكسيد الكربون واستنزاف الثروات الطَّبيعيَّة وغيرها ... الأمر الذي يقتضي حماية البيئة أوَّلاً، بدلاً من حماية الاقتصاد، إذ لا يمكن أن نُضحِّي بالبلاد والعباد، من أجل إنقاذ الاقتصاد، ولا يمكن أن نُقايضَ بأرواح البشر. وبدلاً من الدَّفْع بالقوَّات العمومية من أجل توفير الأمن العمومي، وَجَبَ الدَّفْع بالأطبَّاء والممرِّضين وعلماء الأوبئة، ومختبرات البحث الطِّبِّيِّ، من أجل توفير الأمن الصِّحِّيِّ، كما حَدَثَ الآن في زمن كورونا. مثلما وَجَبَ، مستقبلاً، وبشكل مُلحٍّ، توفير الأمن الغذائي في أزمنة انتشار الأوبئة، وما بعدها، ودَعْم وتشجيع البحث العلمي والدراسات الفكرية القائمة على النَّقْد والاختلاف، وإشاعة ثقافة الاعتراف بالآخر، وإشاعة قِيَم التضامن والمساواة، والنهوض بأنظمة الرعاية الاجتماعية لدى مختلف الفئات الاجتماعية. وهنا، لا بدَّ من التفكير في طبقة اجتماعية جديدة صاعدة، في مقابل طبقة العاملين، وهي طبقة العاطلين عن العمل، التي بدأت قاعدتها تتَّسع، وصارت في حاجة إلى سياسات جديدة، تُمكِّنها من ضمانات العيش الكريم.

لقد أشرف العالَم على حافَّة الإفلاس الأخلاقي، وكشفت جائحة كورونا عن انتفاء الحسِّ الإنساني في الممارسة السِّياسيَّة بصدد مواجهة الوباء. صار الهاجس هو الحفاظ على التوازنات الاقتصادية، وعلى معدَّلات النُّمُوِّ، وعلى أسعار العملات والنفط والذهب، وقيمة الإيرادات الضَّريبيَّة، والخوف من تدهور العائدات الخارجية ... طغى منطق الربح على المنطق ذاته، وعلى العقل، وعلى مَنْ فقدوه.

فاتح ماي ٢٠٢٠

ملاحظة على هامش كورونا:

حُرِّر هذا المقال يوم فاتح ماي ٢٠٢٠، وهو أوَّل يوم لم يخرج فيه العمَّال للاحتفال بعيدهم الأممي، واليوم نفسه الذي فَقَدَ فيه الملايين عَمَلَهُم عبر العالَم.

حوار فكري

سفينة النُّخبة

حاتم الصكر

١

إذا كان أبناء نوح - كما يذكِّرنا نوري الجرَّاح في مقاله - قد فرُّوا إلى الجبال التي ظنُّوا أنها تعصمَهم من الطوفان، وذهبت السفينة بدونهم، فإن أبناء نوح اليوم أو أحفاده بالأحرى بحاجة لحَلٍّ آخر غير عُزلة آبائهم في الجبال. فتلك العزلة لا تعني النجاة. إنها مؤجَّلة بانتظار سفينة أخرى قد تلوح في الأُفق. ولكنها تدور حائرة في متاهة من مياه وفراغ، كسفينة ماركيز في "الحُبُّ في زمن الكوليرا"، هناك حيثُ لم يبقَ سوى اجترا ر الذكريات ولقاء الحبيبَيْن بعد شيخوختهما، ذلك اللقاء المعروف مصيره سلفاً .. فالعالَم يعترف بعَجْزه عن حرب هذا العدوِّ الخفيِّ.

لقد سقط رهان المراهنين على تلك الدِّيموقراطيَّات الغربية ومثالياتها ومنجزها المادِّيّ .. نتذكَّر بشماتة كبيرة فرانسيس فوكوياما وحماسته للدِّيمقراطيَّات الغربية - الأمريكية خاصَّة، كونه مواطناً أمريكياً بالولادة، يُنظِّر من بعيد لثقافة اليابان بلد ذويه، كبُعْدها الجغرافي، فليس من حَلٍّ في ثقافتها أو حاضرها. فهو في كتابه الجَدَليِّ "نهاية التاريخ ومصير الإنسان" ١٩٩٢ كان في ذروة حماسه للدِّيمقراطيَّة كحَلٍّ لما في العالَم من أزمات، وما تنتظره من كوارث. في أطروحته عن نهاية التاريخ بقيام تلك النُّظُم الرَّأسماليَّة الدِّيمقراطيَّة يراهن فوكوياما على أن "الأُمَّة ستنتهي بكوارث مثل تشرنوبل، وتجفيف بحر آرال، إذا ما ظلَّت بدون قيادة سياسية وطنية، تُكرِّس مواردها لحماية البيئة، وبدون الحُرِّيَّة التي تحدُّ من سلوك الشركات والمشروعات، ومن تلوُّث البيئة. وذلك ما تضمنه النُّظُم السِّياسيَّة الدِّيمقراطيَّة في اعتقاده". لم تكن ثمَّة جائحة كارثية حين كَتَبَ فوكوياما ما كَتَبَ. كانت ثمَّة "كوارث" بشرية صُغرى ممثَّلة بالحروب التي تُدبِّرها الدول الكبرى وأنظمتها الدِّيمقراطيَّة اللِّيبراليَّة. أمَّا وقد وقعت جائحة كورونا وإن كانت بدايتها في "دكتاتورية" الصين، فإن مصداقية رهانه على الدِّيمقراطيَّات الغربية قد انهارت. فحين وصلها الوباء لم تجد ما تفعله رغم قول فوكوياما "إنها مجهَّزة أفضل تجهيز للتعامل مع العدد المتزايد من الحاجات التي نشأت نتيجة عملية التصنيع."

وها قد وقعت الكوارث المحرجة والتَّعجيزيَّة. فهل يعني ذلك أن تلك الدِّيمقراطيَّات كانت هشَّة أم أنها لا تملك ما أسنده إليها فوكوياما، ليُبرِّر اعتبار قيامها (نهاية التاريخ)؟

٢

ينادي مقال نوري الجرَّاح مناطق أخرى في الغرب المتكتِّل أنظمةً وفكراً وحضارة، فيفكّ عنه فكره، ويُلحِقه بالشعوب المتضرِّرة، لا بالأنظمة والسياسات. وحسناً فعل، رغم أنه يبدأ سطر مقاله الأوَّل متشكِّكاً "هل أفلس الفكر، ولم يعد مفكِّرو العصر وفلاسفته بقادرين على تجديد أطروحاتهم للإجابة عن أسئلة العصر، وتوليد أسئلة جديدة، تجيب عن السؤال الكبير، وتوابعه من الأسئلة الناجمة عن وباء، دَهَمَ الأرض، وبات جائحة الجوائح؟". نقرأ ذلك ونحن لم نبرح العنوان الجانبي المتسائل عن كيفية تفكير الفلاسفة وهم وراء القضبان. وهو تساؤل يحمل صيغة مخفَّفة وتبريرية لغيابهم أو اتِّصاف خطابهم بما وصفه الجرَّاح في مقاله من حَيْرة، وضمنياً بالاستيهامات الفلسفية والخطابات الشِّعْرِيَّة.

يعطينا خطاب المقال التَّساؤليِّ الانطباعَ بأنه غير مُتيقِّن. إنه يضجُّ بالأسئلة الحارقة، والرعب غير المعلَن باسمه، ولكنْ، بمفردات الخطاب. إن كورونا (جائحة الجوائح) هي أُمُّ الجوائح إذاً. ولا ينتهي المقال إلَّا بسؤال أيضاً: "هل تكون هذه الجائحة فرصة لإعادة اكتشاف الذات في الآخر؟". هكذا تأطَّرت

المقالة بسؤالَيْن في البدء والخاتمة، بعد سؤال أكبر إثارة تضمَّنه العنوان الفرعي "كيف يفكِّر الفلاسفة بينما البشرية وراء القضبان؟". وهذا ترميز للحَيْرة التي اعترف الجرَّاح أنها أصابت المفكِّرين. في الواقع إن الخاتمة فُتِحَتْ، ولم تُغْلَق، أنتجتْ أسئلة تتناسل من السؤال عن إمكان اكتشاف الذات في الآخر. وهو سؤال معرفي، ينقل السِّجال إلى جهة أبعد. فكأن ما جرى من عَجْز فكريٍّ قد حَصَلَ بسبب غياب اكتشاف الذات مشروطة بأن تكون عبر الآخر. وفي هذا التباس كبير. فالآخر؟ (أيُّ آخر؟ وما خصائصه؟) سيبحث أيضاً عن ذاته وآخرِه، وسوف تتصادم الذوات في طريق البحث وتتقاطع. إنها غير مسلَّحة بما يكفي من الأدوات لمهمَّة الاكتشاف، فضلاً عن نقل هذا السؤال إلى

النُّخبة التي تعيش صدمة كبرى لسقوط مقترح العولمة، ليس لأن الاتِّحاد الأوربي يترنَّح أو أن الدول تتكفِئ في حروب اقتصادية ومحاور واستقطابات وصراع ثقافات، بل لأن الكوكب الواحد مرتبِك ومتشظٍّ. يعجب الناس حين يسمعون عن حروب الكِمَامَات، وقرصنتُها في البحر، والمزايدة عليها، والمضاربة بأسعارها، لتتحوَّل من مكان محتاج إلى آخر.

لقد أضحت العزلة اليوم أضيق ممَّا أُتيح لأبناء نوح. هنك جبل أو جبال. وفضاء مفتوح. أمَّا عزلة الجائحة، فضيِّقة، تعيد ثنائية المكان الباشلاري وجمالياته المزعجة. فالبيت - المَحْجَر ضيِّق نَفْسيَّاً ومكانيَّاً، يقابله غياب المتَّسع: العالَم الذي تراجع ليغدو منظَراً من النافذة أو مشهداً مصوَّراً أو مادَّة إلكترونية أو ذكرى. المَحْجَرُ يلتهم صورة العالَم. رمزياً يُلقى فيه الإنسان عرضةً لما يحمله الخوف والتَّرقُّب من دلالات، وواقعياً تحيط به الجدران بتكرارها اليومي، والضَّخِّ الإعلامي الذي لا يهبُ بوادر نجاة.

٣

"ولكنْ، هل يمكن لهذه الجائحة أن تُغيِّر عميقاً وجذرياً في سياسات الدول وبرامجها ومشروعاتها الكبرى؟" يتساءل الجرَّاح.

والإجابة حاصلة على الأرض. السياسات الآن فيها تسامح قائم على النفاق. دول تخلَّصت من معضلاتها مع خصومها الخارجيِّيْن بوَقْف النار معهم. دول كثيرة تخلَّصت من نزيلي سجونها بالإفراج المشروط أو العفو. خصوم يناشدون بعضهم للعون، ويعرضون خدماتهم. لكنْ، هذه ليست ملامح سياسات في طور التغيير. إنها طُرُق للبقاء. ظرفية، وتسودها البراغماتية كفعل أخلاقي.

ولا أحسب أن بالإمكان (تغيير السياسات والبرامج والمشروعات) في الآن الراهن، ولا في المدى المنظور، لأن الأولويات تتراتب بحسب الظَّرْف، ولا يبدو في الأُفق ما يسمح بشكل ما للتغيير. ولكنَّ الجميع مقتنعون أن ما بعد الجائحة لن يكون كما هو قبلها. ستولي الدول أهمِّيَّة أكبر للبيئة والرعاية الصِّحِّيَّة والصناعات الدَّوائيَّة، وتزيد تخصيصات البحوث والدراسات العلمية، بعكس ما جرى من إهمال لها، وتقليص لمواردها. هي تغييرات في البنى الفوقية، لا العميقة والممهِّدة لحوار حول توقُّعات المستقبل وأسئلة الوجود.

دول كبرى كأمريكا لا تعترف باتِّفاقيات البيئة، وكالصين لا تُلبِّي نداءات مكافحة الغازات المنبعثة من مصانعها. لا نظنُّ أنها ستستجيب بيُسْر للمَطْلَب المُلحِّ بتغيير المشروعات والبرامج، بل حتَّى السباق التَّسلُّحيّ المحموم.

كفاح مطوَّل ينتظر المتنادين للتَّجمُّع النّخبويّ أشبه بماراثون .. تتخلَّله العوائق.

٤

"خطابات المفكِّرين عبَّرت عن شيء كثير من الحَيْرة المُضمَرة". ذاك تشخيص صائب، يفتح مناظرة مُجدِية مع "المفكِّر" الذي يحسُّ الجرَّاح أننا بحاجة لصوته، دون أن نعرف حدود المفكِّر ومزاياه المؤهِّلة، ليُعطيَ رأياً أو بدائل للهيمنة المتوحِّشة للدول الكبرى.

وما تلك الحَيْرة المضمَرة أو التي خرجت إلى العَلَن إلَّا دليل ضراوة الصدمة التي خلَّفتْها الجائحة.

مفكِّر مثل نعوم تشومسكي خرج بمقاله الشهير الذي أثار ردود أفعال كثيرة، منها ما ورد في مقال الجرَّاح. شهادة مضادَّة. هكذا وصف الجرَّاح مقالة تشومسكي مستعيداً مواقفه السِّياسيَّة والفكرية من الإمبريالية ومظاهرها وتجلِّياتها. ولكنْ، لم يشر إلى اختزال تشومسكي الجائحة بأنها "الأزمة المدمِّرة للحضارة الغربية" .. وهو تشخيص صائب تماماً. وأكثر ما نخشاه هو أن الشعوب التي تعاني الجائحة معاشياً وحياتياً وصحِّيَّاً، بما ليس لديها من قوَّة ستصبُّ غضبها، لا على الأنظمة والسياسات الغربية المُخفقة تجاه الوباء، بل بالتشكيك بالحضارة الغربية ذاتها. وهذا ليس في مصلحة الفكر ولا التغيير. فالغرب ليس الأنظمة والسياسات وحسب.

يتجاوز تشومسكي خوفه وهو بعقود عُمُره التسعة، ولا يعلن هَلَعَهُ الشَّخصيَّ كونه ممَّنْ ينصحُهم المختصُّون بالعزلة الأشدِّ، بل ليُجرِّد حساب الجائحة واستحقاقاتها ومُسبِّبيها وأسبابها غير الطِّبِّيَّة. وذلك لا يُرضي الجرَّاح وفريق من المفكِّرين الذين لا يرون الوقت مناسباً للحساب، رغم أن مسلسل الأخطاء والسياسات الأنانية والاستغلالية مُستمرٌّ. ما الحلُّ إذاً؟ تأجيل المراجعة ونفيها مع أولاد نوح في جبالهم التي هربوا إليها؟

لقد أعلن تشومسكي في مقاله عن تشاؤمه من كارثة أكبر في حياتنا بعد كورونا. إنها غياب الدِّيمقراطيَّة، لأن الحُكَّام صاروا يتصرَّفون كدِكتاتوريِّيْن، يريدون لخطابهم الشَّعبويِّ أن يحلَّ محلَّ الحقائق. ويذكِّرنا بالخَطَرَيْن الماثلَيْن: الحرب النَّوويَّة المحتملة والاحتباس الحراري، فضلاً عن الخيارات التي يتوقَّعها بعد الجائحة، وكلُّها لا تُشجِّع على التفاؤل. لكنه في قرة كأنما يستبطن مقترح الجرَّاح حول التَّجمُّع النّخبويِّ العالَمي من المفكِّرين، فيقول مُشكِّكاً (في الوقت الذي تزداد فيه المسافة الاجتماعية في إجراءات العَزْل المنزليِّ والحَجْر الصِّحِّيِّ والتباعد الاجتماعي بين ملايين البشر في البلد الواحد، أو بين مليارات الأشخاص عبر العالَم، كيف يمكن الحديث عن خَلْق حركة اجتماعية نشطة، لتواجهَ ما نعيشه اليوم أو ما هو مقبلٌ وقريبٌ جدّاً من تهديدات وجودية؟) هذا التكوين الاجتماعي يصحُّ اقتراحاً، تحفُّ به الاحتمالات، وسط العزلة أو القضبان، كما في عنوان مقال الجرَّاح. ولكن اقتراح التَّجمَّع النّخبويِّ عابر للعزلة رمزياً ومكانياً، فهو لقاء مفكِّرين، والفكر لا تحدُّه العُزلة أو القضبان.

إن الحلَّ عند الجرَّاح ليس في "مماحكة الإمبريالية عبر الفكر المعارض، بل خَلْق صيغ جديدة لتَواصُل ممكن، فكري أممي نخبوي، يتحوَّل لاحقاً إلى مرجعية فكرية وأخلاقية، توازي القوَّة الغاشمة اقتصادياً وعسكرياً." مطلب لا أراه هيِّناً، فللإمبريالية سُفُنُها التي تنتظر، وليس لدى المفكِّرين والمعارضين سوى كلماتهم.

إذاً، فالجرَّاح يعود لما طَلَبَ منَّا نسيانه مؤقَّتاً، وترتيب الأولويات، ليكون اللقاء النّخبويّ مقترحاً ناجعاً.

الحلُّ كما يراه الجرَّاح "ليس بخطابات شِعْريَّة أو استيهامات فلسفية"، بل باتِّفاق نخبوي لمثقَّفي العالَم، وهذه الدعوة ضرورية الآن وذات جدوى، شرط ألَّا تتحوَّل إلى تجمُّع مَظْهَرِيٍّ أو رَسْميٍّ، تعبث به الأهواء والانتماءات. فالخطر كبير، والبشرية كلُّها على محكِّ الاستجابة، والفكر في مقدّمة مناطق المواجهة.

٥ (مشاهد قد لا تغادر الذاكرة البشرية)

مرضى بالوباء تُنزَع عنهم الأجهزة يأساً، ليستخدمَها مَرضى أكثر أملاً.

التَّخلُّص من آلاف الدجاج بالذَّبْح المبكِّر في مَسْلَخ.
مُزارِع في ولاية أمريكية يسكب الحليب في مزرعته بماكنة السَّقي، ليتخلَّص من منتوجه من الحليب.
ملايين الورود تُقدَّم عَلَفَاً للحيوان، أو يتمُّ إتلافها لكساد سُوقها.
لا وقت للأزهار حتَّى لتزيين شـواهد القبور، فقد صـار الموتى بلا قبور، كما في نبوءة سـارتر المسرحية. ثمَّة مقابر جماعية واسعة كمتاهة في جزر نائية. لا يحضر الدفن حتَّى الأُسرة، ولا أحد يقول وداعاً.
ناقلات في عرض البحر تتحوَّل إلى خزَّانات لحفْظ النفط، بدل نَقْله للمستهلكين غير المحتاجين له.
قنوات تَستحْدِث ألعاباً تافهةً لإزجاء الوقت في البيوت خلال العزلة (لقتل الوقت) ..
فائضُ وقتٍ ووَرْدٌ ونفطٌ وحليبٌ ودجاجٌ .. وأرواحٌ أيضـاً، فالتَّوحُّش يبلغ مداه. أرواح أيضـاً. أرقامها تدعو للفزع .. قبل أن أكتب هذه الأسـطر ظهر في الجدول اليومي لحركة الوباء الرَّقْم ثلاثة ملايين مصاب حول العالَم. ثلاثة ملايين قلب توجَّس من الموت، واقترب منه، إن لم يغبْ فعلاً. هكذا بالأصفار السِّـتَّة المخيفة. والموتى؟ الإحصـاءات اليومية التي صـار الرَّقْم ١٥٠٠ من الموتى في أربع وعشـرين ساعة رَقْماً يدعو عاقدي مؤتمرات الإحاطة اليومية للتباهي .. لأنه أقلُّ بمائة عن موتى الأمس ..
لا حرب تعدل هذه التي نشهدها، والتي لا يبدو أن لها نهاية حتَّى الآن ..
ولا كتاب يمكن أن يكون سفينة نجاة.
ثمَّة التَّرقُّب والتقاء المفكِّرين واصطفافهم حول الواقعة؛ لتأطيرها فكرياً، وتبصُّر دلالاتها وتحدِّياتها.
العتمة هائلة خلف الجدران وأمامها .. وراء قضبان العزلة وخارجها.
والضوء الذي كان ترامب يكرِّر أنه يراه في آخر النفق لم يبدُ منه بصيصٌ حتَّى.

الحَدَثُ والذات في الآخر في زمان كرونا

أزراج عمر

سـأغطِّي في ما يلي عنقوداً من من الأطروحات التي أثارها وماتزال يُثيرها حَدَثُ "كرونا" الذي يُعوَّل عليه "افتراضـياً" أن يُعيدَ الإنسـان المعاصـر في الغرب، وفي فضـاءات العالَم الأخرى، إلى ذاته، ليُفكِّر فيها باعتبارها الآخر، وذلك في ظلِّ مواصـلة الأنا الأوروبية / الغربية لاختزال نفسـها في آلة سيطرتها التي تتغذَّى من غزواتها العسـكرية والصـراعات الأيديولوجية التي تعقد بها التفاهم البشـري، وتتنزع على التَّوسُّـع الدّراماتيكيّ للهُوَّة السـحيقة الفاصـلة بين عالَم الشَّمال الغنيِّ لحَدِّ التخمة وبين عالَم الجنوب المُفقَر لحَدِّ العَرَاء المرعب.
أشـرع أوَّلاً بالتذكير أنني سـأناقش قضـية علاقة الذات والآخر المعقَّدة بين الغرب وغيره على ضـوء بعض الأسـئلة التي طرحها الشـاعر نوري الجرَّاح في مقاله المنشـور بجريدة " العرب " الدّوليّة في ٢٠٢٠/٠٤/١٩م تحت عنوان " أبناء نوح وطوفان الوباء"، وهي: هل أفلس الفكر؟ وهل هناك "وزن للفكر الغربي في المعادلة الإنسـانية الراهنة" و"ما مدى قدرته على خَلْق جبهة مضـادَّة للسـياسـات اللِّيبراليَّة الجديدة المغامرة بالمصير الإنساني على كامل الكوكب الأرضي"؟
قبل الانطلاق أريد أن أسـتهلَّ بالتَّوقُّف عند مفهومَيْن أسـاسـيَّيْن، ترتبط بهما مناقشـتي، وهما مفهوم "الحَدَث" في علاقته باكتسـاح فيروس كرونا لجغرافيات العالَم، وللمصـير البشـري على هذا الكوكب الأرضي ومفهوم " الآخر " في علاقته بالذات.
الحَدَث:

أبدأ بهذا السؤال: هل كرونا "حَدَثٌ - Event"؟ وماذا يعني هذا المصطلح الذي شغل وما يزال يشغل الفكر الفلسفي المعاصر؟ وكيف نسحبه من النقاش الفلسفي التَّجريديِّ والمحض إلى فَهْم واقع علاقة أنا الأوروبي / الغربي بالآخر غير الغربي في لحظة هَجْمَة فيروس كرونا المهدِّد للمصير البشري برُمَّته؟

من المفترَض أن الاستخدام الفلسفي لمصطلح الحَدَث في أواخر القرن العشرين كدالٍّ فلسفي (Signifier) يُعيده مؤرِّخو الأفكار إلى جَاك دِرِّيْدَا، وخاصَّة في محاضرته التي ألقاها في أميركا بعنوان "البنية، العلامة، واللعب في خطاب العلوم الإنسانية"، وأكسبتْهُ الشهرة خارج فرنسا منذُ ذلك الوقت.

ففي تلك المحاضرة قال دِرِّيْدَا وهو في معرض سَبْره النَّقْدي للبنيوية بأن يُسمِّيه بالحَدَث هو "شيء ما قد وَقَعَ في تاريخ مفهوم البنية"، وفي هذا السياق قال بأنه في هذا "المعنى، فإن هذا الحَدَثَ سيكون له الشكل الخارجي للقطيعة"، ويعني دِرِّيْدَا بكلامه هذا أن الحَدَثَ هو الخلخلة التي تُسبِّبها القطيعة مع تاريخ الميتافيزيقا الذي يعتبره مثل تاريخ الغرب الذي يصفه في كتابه هوامش الفلسفة بأنه "الأسطورة البيضاء التي تُعيد جَمْعَ وعكس ثقافة الغرب: الإنسان الأبيض الذي ينظر إلى أسطورته، الأسطورة الهندو - أو لاوروبية، ولوغوسه، أي أسطورية رطانته، كشكل كونيٍّ لذلك الذي ما يزال يتمنَّى أن يدعوه بالعقل." وهنا ندرك أن الحَدَثَ بهذا المعنى في تقدير جَاك دِرِّيْدَا هو المساءلة المزحزحة للمركز سواء داخل فضاء البنية سواء كانت نصَّاً أو فكراً أو ثقافة أو موقفاً، وفي سياق نَقْد دِرِّيْدَا لمركزية البنية يلفت انتباهنا إلى التقاليد الميتافيزيقية الغربية كانت من قبلُ تُعيد إنتاج نفسها على نحو نرجسي، وتقوم فقط باستبدال "مركز بمركز آخر" على نحو دائري، إنه يمكن لنا أن نسحب تنظير دِرِّيْدَا ونَقْده هذا إلى نَقْد احتكار الغربية للمركزية سواء كانت عسكرية أو اقتصادية أو ثقافية أو تكنولوجية، ولقد حَدَثَ فعلاً على صعيد الواقع بشكل مفرط جدَّاً في عدَّة مراحل تاريخية، وخلال تأسيس الغرب للأبعاد المؤسَّساتية الأساسية لحداثته منذُ بدايات القرن السابع عشر، ومروراً بذروة العصر الكولونيالي بكلِّ تنوُّعاته حتَّى مرحلة ما بعد الكولونيالية غير المنتهية، والتي تميَّزت وما تزال تتميَّز باحتكار هذا الغرب لمختلف وسائل وأشكال الهيمنة المادِّيَّة والرَّمزيَّة على مستوى جميع الأصعدة. ويلاحظ أنه في كلِّ هذه المراحل التَّاريخيَّة، فإن المركزية الغربية لم تتخلَّ عن تمركزها النَّرجسيِّ الاستبعادي، حيثُ لم يشارك الغربُ البلدانَ الأطراف، أي التخوم الجغرافية للآخر غير الغربي / الأوروبي في هندسة عمليات "فصل الزمان عن الفضاء، وتطوير آليات التفكيك، والاستحواذ الانعكاسي للمعرفة" التي يعتبرها المفكِّر البريطاني أنثوني غيدنز المصادر الأساسية لحركة الحداثة، بوصفاتها الأوروبية / الغربية.

في هذا الصدد نجد المفكِّر والناقد الثَّقافيَّ سلافوج جيجيك يستعمل عبارة مغرية لتعريف مفهوم الحَدَث واصفاً إيَّاه بأنه "النتيجة التي تبدو أنها تتجاوز أسبابها - وأن فضاء الحَدَث هو ما يُفتَتَح بواسطة الهُوَّة التي تفصل النتيجة عن أسبابها."

إذا طبَّقْنا مُعطى هذا التعريف لمفهوم الحَدَث على واقع العلاقات الدّوليّة الراهنة في ظلِّ العولمة وخطابها الرَّأسماليَّة الغربية وتفريعاتها القزمية البشعة في العالَم الثالث، وفي صلبه الشرق الأوسط والفضاء المغاربي برُمَّتهما، فإننا نحصل على مشهد، تبدو فيه النتائج الوخيمة لحَدَث العولمة الرَّأسماليَّة المتمثِّلة في تقسيم العالَم إلى دول الغرب المركزية المسيطرة اقتصادياً وسياسياً، تجاوزت الأسباب المتمثِّلة في الطموحات الرُّومانسيَّة في الرِّبْح المالي، ويتمثَّل هذا التجاوُز في عدَّة مناحي، منها دخول الاقتصاد العالَمي في أزمات متكرِّرة فضلاً عن تحويل الدولة الوطنية التي كانت في يوم من الأيَّام عنواناً كبيراً للحداثة الغربية إلى مجرَّد حارس باهت للتناقضات الطَّبقيَّة، ليس بيَدَيْه السلطة التي أصبحت تتمتَّع بها الشركات الخاصَّة العملاقة والعابرة للقارَّات وللاقتصاديات المحلِّيَّة سواء في شَمَال

الكرة الأرضية أو في جنوبها، وأكثر من ذلك، فإن نتائج العولمة الرَّأسماليَّة بشقَّيْها الاقتصادي والثَّقافيِّ قد تجاوزت أسبابها، ويتمثَّل ذلك في إفراز صراع الهويات وتعدُّدها في مختلف المراكز الغربية جرَّاء الهجرات من الجنوب إلى الشَّمال، حيثُ أصبح المجتمع الفرنسي مثلاً ليس بالمجتمع الفرنكو - اللَّاتينيِّ الذي كان في عهد بودلير أو مونتيسكيو، بل تحوَّل إلى فسيفساء عِرْقِي وإِثْنِي، يصعب تطبيق المفاهيم القديمة للهوية عليه، في الوقت الذي نجد فيه هويات مهجَّنة مكوَّنة من أنسجة فرنسية وأفريقية وكاريبية عربية وبربرية شَمَالية أفريقية، وهلمَّ جرًّا، لا شكَّ أن لحَدَث الكولونيالية تأثير فاعل في إفراز هذه النتائج، ولكنْ، لا يمكن فصل كلٍّ هذا عن تأثير حَدَث العولمة في طبعتها الرَّأسماليَّة الأوروبية / الغربية.
أمَّا آلان باديو، الفيلسوف الفرنسي، فيرى حسب تأويل كلٍّ من جستان كليمنز، وأليفر فيلثم أن الأحداث تحدث "بدون أسباب تُعزَى إليها مباشرة، وهي تُربِك نظام الوضعيات القائمة"، وفي هذا السياق، يلاحِظ هذان الدارسان أيضاً أن تحليلات المفكِّر باديو تفضي بنا إلى فَهْم، وهو أنه " إذا اتُّخِذَت القرارات من طرف الأفراد لحَلِّ تبعات مثل هذه الأحداث، فإن وضعيات جديدة تبرز كنتيجة لعملهم."
وهكذا نرى أنَ هذه التحديدات للدَّالِّ signifier المَدعوِّ بالحَدَث تنطبق تماماً على كرونا كَحَدَثٍ ضاربٍ في العالَم بأسره، حيثُ إنه يتميَّز بكونه يتوفَّر على عناصر الوصفة التي يتحدَّد بواسطتها مفهوم الحَدَث، لكونه حَدَثاً مُفاجِئاً، وشبحياً، وخارقاً لحدود الأوطان ولحُرَّاس الجمارك، وأكثر من ذلك، فقد تمكَّن حَدَثُ كرونا من إرباك الذكاء العلمي الذي كان الغرب يفخر بأنه هو مَنْ يملك أسرار مفاتيحه، والقدرة الكُلِّيَّة على ترويضه، والتَّحكُّم فيه. وهكذا أثبتت لحظة كرونا المربِكة عَجْز الغرب / أوروبا على احتواء هذا الوباء، وتحديد ثمَّ تفكيك بنيته، والإسراع في إيجاد مصل وقائي ضدَّه أو دواء يُوقِف تهديده العنيف للإنسان بالموت العبثي بشكل نهائي، وفي العالَم كلِّه.
في هذا السياق نتذكَّر سؤال الشاعر نوري الجرَّاح الذي طرحه في مقاله المذكور آنفاً، وهو "هل أفلس الفكر؟"، وفي المقدّمة الفكر الغربي طبعاً؟ لا شكَّ أن عَجْز العلم في الغرب عن إدراك مخاطر تلويث البيئة، وعسكرة الفضاء، وإنهاك الثروات الباطنية هو في صميم أزمة الفكر الإنساني بشكل عامٍّ، والفكر الغربي بشكل خاصٍّ. ويمكن القول تبعاً لمثل هذا التحليل والتقييم أن العَجْز لا ينبغي أن يُختَزَلَ في المجالات التِّقْنِيَّة أو الصَّيدلانيَّة أو الطِّبِّيَّة فقط، وإنما ينبغي أن يُدرَكَ باعتباره عَجْزاً أخلاقياً وعَجْزاً عن فَهْم تشابك العلاقة المصيرية بين الإنسان والبيئة. بدون أدنى ريب، فإن حَدَثَ كرونا قد ورَّط وما يزال يورِّط الفكر الغربي في "الحَيْرة" التي يشير إليها الشاعر الجرَّاح، وأكثر من ذلك، فإن هذا الحَدَثَ قد أوقَعَ وما يزال يُوقِعُ هذا الفكر في سلسلة من الأحكام التَّعسُّفيَّة المُسبَّقة جرَّاء اعتباره لفيروس كرونا مجرَّد لعنة صينية صفراء حيناً، أو تسرُّباً جرثومياً من معامل صُنع الفيروسات القاتلة في "ووهان" الصِّينيَّة، لا علاقة للغرب به حيناً آخر، أو نتاجاً لما تُروِّج له آلة الدعاية الغربية باتِّهام الصينيِّيْن بافتراس جيوش الخفافيش، ممَّا تسبَّب في حدوث وباء فيروس كرونا طوراً أخرى.
إن مثل هذه الأحكام تحيي مَّرة أخرى نمطية التَّمثُّلات الكولونيالية الغربية الكلاسيكية التي كرَّست خطاب تشويه الآخر الأسيوي أو الأفريقي، حيثُ لا يخفى على عاقل أن مثل هذه التنميطات التي تُحشد راهنا ترمي في الواقع، وربَّما بدون وعي إلى التغطية على عَجْز الفكر الغربي في ممارسة كافَّة أشكال النَّقْد الذَّاتيِّ للنتائج
السَّيِّئة الذِّكْر للعولمة الرَّأسماليَّة التي كرَّسها الغرب، لفرض علاقات القوَّة والهيمنة، وللممارسات المدمِّرة للبيئة فضلاً عن إصرار الغرب إنتاج وتجريب أسلحة الدمار الشامل الجرثومية والنَّوويَّة فضلاً عن تورُّط الغرب في التسخين الدائم لطبول سباق التَّسلُّح الجرثومي والنَّوويِّ علماً أن هذا النوع من الأسلحة الفتَّاكة قد استعملتْها الآلة الكولونيالية الأوروبية / الغربية ضدَّ الطبيعة وضدَّ الإنسان في

الحروب التي فرضت على فضاءات بلدان العالَم الثالث خاصَّة. ولقد نتج عن كلِّ هذا الاغتراب الأخلاقي للسياسات الغربية التَّوسُّعيَّة ولجزء من الفكر الغربي التَّسلُّطيِّ، حيثُ أصبحت فرضيات وأطروحات هذا هذا الفكر مضـادَّة الطبيعة المشـتركة في الكوكب الأرضـي والفضـاء الكوني الخارجي، وللوعود التي وعدت بها الإنسـانية بها مواثيق التنوير الأوروبي، بما في ذلك وعد ماغنا كارتا بإنجلترا والثورة الفرنسية بفرنسا والثورة الأمريكية بالولايات المتَّحدة. وهنا ينبغي أن نستعيد بعض صور الماضي، لكي نفهم حاضر البشرية، وعلاقة الذات بالآخر التي سندقِّق فيها فيما بعد.

ففي عام ١٢١٥م وعدت في وثيقة ماغنا كارتا بالحُرِّيَّات والدِّيمقراطيَّة وحقوق الإنسـان، ولكن هذه الوثيقة تعرَّضت للخيانة من أحفاد مؤسِّسي دستورها، وتمثَّلت تلك الخيانة في استعمار في الهند مثلاً، بدأ من عام ١٦١٢ م، وانتهت بتقسيمه، ومن ثمَّ تواصلت احتلالات الإنجليز لبلدان أخرى في المعمورة؟ وهل سوف لن تتكرَّر الخيانة التي ارتكبتْها الثورة الفرنسية (١٨٤٨م) المعروفة بمبادئها وشعارات (الإخاء والحُرِّيَّة والعدالة)، بسبب مفاجأة فرنسا للعالَم جرَّاء طَمْسها فوراً لتلك المبادئ، حيثُ واصلت استعمارها للجزائر الذي بدأ في عام ١٨٣٠م، ومن ثمَّ واصلت سياسات وممارسات الاستعباد في منطقة الكاريبي بعد ٤٧ سـنة من حدوث تلك الثورة الفرنسـية؟ ومَن الذي يضـمن أن يُوقِف حَدَثُ كرونا النكوص مجدَّداً إلى ما كانت عليه البشـرية من صـراعات واستغلال وسيطرة قبل عاصـفة كرونا؟ وبمعنى آخر، هل سـنشـهد قطيعة راديكالية Rupture بين راهن علاقات القوَّة في عالَمنا المعاصـر وبين ما يُفتَرَض أن تكون عليه العلاقات بين البشر في مرحلة ما بعد كرونا؟ وهل ستكون توقُّعات هذا المفكِّر أو ذاك السِّياسيِّ أو ذلك الفيلسوف في الفضاء الغربي مجرَّد هوَامات؟ لكي نجيبَ على مثل هذه الأسئلة يجدر بنا أوَّلاً أن نزيحَ الستار عن بانورة تمثُّلات الفكر الغربي لذاته، وللآخر أوَّلاً.

هل نلتقي وجهاً لوجه

عن وباء كورونا المستجدّ

مصطفى الحدَّاد

إن فيروس كورونا فيروس حقيقي، لكن العدوى الناجمة عنه عدوى إيديولوجية. لقد أوشـك العطس اليوم أو السـعال أن يصـبح عملاً إرهابياً كامل الأركان، كما قال أحد النابهين. فبمجرَّد ما تبيَّن أن الفيروس لا ينوي الاستقرار في مدينة وُوهان الصِّينيَّة، حيثُ ظهر أوَّل مرَّة، بل يتهيَّأ لاكتساح العالَم بأسره، انطلقت عدوى التأويلات القريبة والبعيدة لما يمكن أن يصبح عليه العالَم، ولما يمكن أن ينتظر سُكَّانَ هذا العالَم، ليس على مستوى صحَّة أبدانهم فحسب، بل على مستوى مصير أرواحهم أيضاً.

***

ينبغي لنا ابتداء، ونحن نتحدَّث عن كائنات مثل الفيروسـات والباكتيريا والجِينات، أن نحذر نزعة التشـبيه بالإنسـان التي نلجأ إليها حين نتعامل معها، كما لو أنها كائنات عاقلة. فالفيروس أو الباكتيريا، المسبِّبة لما استقرَّ الرأي على تسميته بـ "المرض"، لا تتوخَّى أو تقصد الإضرار بالإنسان، تماماً كما أن الجِينات من جهتها لا تتكاتف أو تتعاون عن قَصْد أيضاً، لتعمل من أجل صالح هذا الإنسان. الأمر ربَّما مُخيِّب للآمال. لكن الواقع هو هذا: لا شأن للطبيعة ولطُرُق اشتغالها بمصير الإنسان كما يتصوَّره هو. إنها باختصـار لاهية ولا مبالية إزاءه. الإنسـان لا يعدو أن يكون نوعاً من بين أنواع أخرى كثيرة تعيش على كوكب الأرض. يمكن لهذا النوع أن ينقرض ويصير نَسْيَاً مَنْسِيَّاً، من دون أن يرفَّ للطبيعة جفن.

بيد أننا لا نسـتطيع ونحن نتحدَّث عن اشـتغال الطبيعة أن نتلافى النزعة التَّشـبيهيَّة على الرغم من مخاطرها. لا نستطيع أن نتحدَّث عن هذا الاشتغال إلَّا ضمن مقولات القَصْدِيَّة (Intentionality) التي تتحكَّم في خطابنا كلِّه، فنسـند إلى الفيروسـات اعتقادات ورغبات وميولاً ... إلخ، بل وندرجها أطرافاً فاعلة في المؤامرات أيضـاً. لهذا يجب أن نصنِّف حديثنا عنها ضمن المجاز، لا ضمن الحقيقة، ضمن الإيديولوجيا بالمعنى العامِّ، لا ضمن العلم. فعندما نقول عن الفيروس إنه يستخدم أجساد أولئك الذين يصيبهم، فيُحَوِّلُ بعض خلاياها، لكي يتكاثر إلى آلة طبع، يستعملها لإنتاج نسخ منه، فنسند إليه مقاصد واعتقادات ورغبات وقدرات على تحقيقها، كما نلاحظ ذلك في أحاديث الأطبَّاء عنه، عندما نقول ذلك لا نكون في الحقيقة إلَّا أمام إسقاطات، نلجأ إليها عندما نصطنع إزاء هذا الكائن ما سمَّاه دانيال دينيت بـ "الموقف أو الاستراتيجية القَصْدِيَّة" (انظرْ دينيت ١٩٨٧: ١٥). فنحن كائنات، لا نطمئنُّ في حديثنا عن الكائنات الأخرى، وحتَّى عن الأشياء، إلَّا إذا وسعنا إحالة الضمير "نحن" وأدرجنا معنا فيه هذه الكائنات وهذه الأشياء إلى هذا الحَدِّ أو ذاك. من هذه الزاوية، إذنْ، تكون للفيروسات اعتقادات ورغبات وخطط للمناورة والتَّخفِّي وحِيَل للإفلات، إلخ. بل إننا نستطيع أن نشتقَّ سياسات بأكملها تكون مَبنيَّة أو مُستلهَمَة من طُرُق وأساليب اشتغال هذه الفيروسات، وما ينجم عنها.

***

أشار فوكو في كتابه (الحراسة والعقاب) إلى أن فقهاء القانون، لكي يتمكَّنوا من رَصْد اشتغال الحقوق والقوانين في المسـتوى النَّظَرِيِّ الخالص، تخيَّلوا وجود طَورٍ أو حالةٍ طبيعية تسـبق حالة الاجتماع البشـري، أو تسـبق الحالة المَدَنيَّة، واسـتندوا إليها في تحاليلهم. أمَّا الحكومات، لكي تتمكَّن من التنفيذ المحكَم والكامل لأساليب الضـبط، فكانت تحلم دائماً بحالة الطاعون (انظرْ فوكو ١٩٧٥: ٢٠٠). حالة انتشار وباء الطاعون تسمح للحكومات بالتَّدخُّل في ذلك الجزء الخصوصي من الحياة الذي لا تستطيع في الأوقات العادية أن تتسرَّب إليه، وتطَّلع على خباياه. عندما يتفشَّى الوباء، كما هو الحال مع كورونا اليوم، تأتي الحكومة إليكَ مباشـرة، وتأمركَ بالبقاء في بيتكَ، وتهدِّدكَ بإنزال العقوبة عليكَ، إذا أنتَ خرجتَ منه أو اجتمعتَ بغيركَ، لأنكَ في هذه الأحوال تهدِّد حياتكَ، وتؤذي غيركَ بنقل العدوى إليه. إن الحكومة باختصار تجعل منكَ كائناً خطيراً مُعدِياً. إدارة الوضع الذي يتفشَّى فيه الوباء (الطاعون بالنسبة إلى فوكو)، تمثِّل النموذج المثالي للإدارة التي تتشوَّق إليها الحكومات.

لقد اختار فوكو حالة إدارة الوباء نموذجاً، تتطلَّع إليه الحكومات في ممارسـة مهامِّها، ليبيِّن أن العمل التَّنفيذيَّ الذي تضطلع به الحكومات عموماً، لا يكون محايداً سياسياً، أي لا يكون تنفيذاً لما أجمعت عليه سلطة تشريعية بعد مناقشات ومشاورات سياسية. الحكومات بعبارة أوضح تستثمر آليات الإدارة، كآليات الرعاية الصِّـحِّيَّة التي تُجهِّزها لمكافحة الأوبئة والجوائح وحماية مواطنيها، لتحقيق أغراض، لا تتَّصل في كثير من

جوانبها بالحماية، وتحقيق الأمن، بل بإحكام سيطرتها على المجتمع وكَتْم أنفاسه.

**

في سياق تعميق أطروحة فوكو السـالفة وأطروحات أخرى حول ما سـمَّاه السـياسـات الأحيائية، أو البيوسـياسـة (Biopolitics)، ميَّز الفيلسـوف الإيطالي جورجيوأغامبين (١٩٩٨) بين صـيغَتَيْن أو مستَوَيَيْن اثنَيْن فيما اعتدْنا أن نُسمِّيه بالحياة هكذا بإطلاق اللفظ. وكان أغامبين قد استخلص وجود هذَيْن المستويَيْن من بحث فلسفي فيلولوجي مفصَّل، أجراه بكثير من الدِّقَّة والاحتياط على نصوص فلسفية يونانية قديمة (انظر المقدّمة في أغامبين ١٩٩٨). المسـتوى الأوَّل هو الحياة بالمعنى الذي يكون فيه اللفظ منطبِقاً على الكائنات الحَيَّة كلِّها، من دون تمييز، وهذا المسـتوى هو الذي ميَّزتْهُ اللغة اليونانية

بلفظ خاصٍّ هو (Zoé). أمَّا المســـتوى الثاني، فيختلف عن الأوَّل في كونه لا ينطبق إلَّا على الحياة عندما تُسنَد إلى الإنسان، وإلى الإنسان وقد أصبح مَدَنياً على وجه الخصوص، أي يعيش في مجتمع، تحكمه القوانين، وتُوجِّهه الأعراف، وما به قيام الاجتماع البشـــري المختلفِ عن مجرَّد الحياة العارية (bare life) التي يُعبِّر عنها المستوى الأوَّل. فالإنسان، حسب تحليل أغامبين، حتَّى وإن كان يندرج مع الكائنات الحَيَّة الأخرى تحت الحياة العارية، يملك على عكس تلك الكائنات قدرةً، تســـمح له بالانخراط في صيرورة تحويل مجرى حياته العارية تلك إلى حياة مُميَّزة (مَدَنيَّة سياسية) لا تخصُّ إلَّا الكائنات الإنسانية على وجه التحديد. واللفظ الذي وضعَتْهُ اللغة اليونانية إزاء هذا المستوى الثاني هو (Bios). اســـتلزامات هذا الفرق بين الحياتَيْن العارية الإنســـانية (بالمعنى الذي أشـــرْنا إليه) كثيرة ومتنوِّعة، يمكن العودة إليها مفصَّـــلة في كتاب أغامبين (١٩٩٨). لن نعرج هنا إلَّا على جانب من جوانب هذا الفَرْق يتَّصل بالوَضْع الوبائي الذي نعيشه اليوم.

إذا عدْنا إلى ملاحظة فوكو أعلاه بخصـــوص النموذج المثالي في تنفيذ السـياســات الذي تتشـوَّق إليه الحكومات، والذي لخَّصَهُ أو حَصَرَهُ في الوضع الوبائي الناجم عن الطاعون، ونظرْنا إلى هذه الملاحظة من منظار التمييز الذي أقامه أغامبين بين مستويَي الحياة، سنكتشف مباشرة أن ما ترومه الحكومات هو العودة بالإنســان من مستوى الحياة الثاني إلى مستوى الحياة الأوَّل، أي العودة به من الحياة المَدَنيَّة - السِّياسيَّة إلى الحياة العارية.

**

يبدو وكأننا أمام مؤامرة محبوكة الفصول ..! الحكومات التي تتشكَّل، إذا سلَّمْنا بنَظَرِيَّة العقد، للخروج بالإنســـان من الطَّور الطَّبيعيِّ إلى الطَّور المَدَنيِّ السِّـياســيِّ؛ أو إذا ســلَّمْنا بتصـوُّر أغامبين، للخروج بالإنسان من الحياة العارية إلى الحياة المَدَنيَّة السِّياسيَّة، هي نفسها تتشوَّق إلى العودة به ثانية إلى الطَّور الطَّبيعيِّ أو إلى الحياة العارية. المســـألة، إذنْ، لا تخلو من مؤامرة انقلابية، لا غبار عليها. لكنْ، يجب علينا أن نحتاط هنا من الإقرار بوجود متآمرين موصوفين. ما يميِّز المؤامرة هنا هو أنها مؤامرةُ حقيقةٍ، أي مؤامرة بلا متآمرين على طريقة مكيدة العقل الهيجلية. هذا الضَّـــرْبُ من المؤامرات يحوكُ نفســـه بنفسه، ولا يمضي وهو يحيك نفسه من دون أن يَخلق أو يُولَد مستفيدين من الوضع كما سنُبيِّن في الفقرة الموالية.

مَنْ يستطيع أن يُنكِرَ الأضرار التي تُلحِقُها الأوبئة والجوائح بالكائنات البشرية ومجتمعاتها؟ مَنْ يستطيع ألَّا يعمدَ إلى سَــنِّ ســياســات غير اعتيادية، أو اســتثنائية، لإدارة الكائنات البشــرية في أزمنة الأوبئة والجوائح؟ نحن أمام واقع وبائي قائم، لم تبتكرْهُ إرادة متآمرة محدَّدة، يمكن توجيه اللوم إليها (الرئيس ترامب ووزير خارجيته بومبيو لا يكفَّان عن اتِّهام الصـــين بتصـــنيع فيروس كورونا في المختبر، وإطلاقه، من دون أن يُقدِّما حتَّى الآن أدلَّة على ذلك). وهذا الواقع لا يمكن أن يرتفع إلَّا بالخروج من الحالة العادية إلى حالة اســـتثنائية لإدارة الوضـــع وإعداد العُدد لمكافحة الوباء والتقليل من أضـــراره. الضرورة الطِّبِّيَّة التي تستدعي موضوعياً فَرْضَ حَجْر صِحِّيٍّ على المواطنين، يحدُّ من انتشار الوباء، ويساهم في مكافحته، يمكن أن تُستغلَّ استغلالاً فاحشاً، لكي تتلاءم وتتناغم مع الرغبات الإيديولوجية التَّسلُّطيَّة التي تحدو الحكومات في فرض قيود على المجتمع، من أجل مراقبته وضبطه وإحكام السيطرة عليه. فالواقع الذي لا يرتفع إلَّا بسَنِّ سياسات غير اعتيادية لا يمضي من دون أن يخلق مستفيدين منه إمَّا لجهة التراجع عن المكتسـبات الدِّيمقراطيَّة، كما هو واضـح في تعامل كثير من البلدان مع الوضـــع الوبائي الذي نعيشــه اليوم (استغلَّت الحكومة المغربية حالة الحَجْر لتمرير قانون يحدُّ من حُرِّيَّة التعبير، ويقيِّدها)، وإمَّا لجهة الاغتناء من خلال التَّصرُّف المائل عن جهة

الاستقامة في الأموال المرصودة لمحاربته، وإمَّا لتكريس ما سمَّاه أغامبين بحالة الاستثناء (انظرْ كتابه ٢٠٠٥) التي أصبحت عادية في نَظَره منذُ أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١. بهذا المعنى نكون أمام مؤامرة بلا متآمرين، مؤامرة بمستفيدين.

نحن، إذنْ، في وَضْع، يحكمه التباس عميق. الحكومات، بحُكْم استلهامها أنموذج الوباء في الإدارة، كما رأينا مع فوكو أعلاه، تُشبِعُ مَيْلَها الدفين إلى المراقبة، وفرض حالة الاستثناء في وَضْع قائم،لا يحقُّ لأحد أن يعارضَها فيه أو يسألها عمَّا تفعل. لهذا السبب يتعيَّن علينا أن نميِّز تحليلياً بين الحديث عن مخاطر المرض الذي يُسبِّبه الوباء، والحديث عن العواقب السِّياسيَّة والأخلاقية التي تترتَّب على سياسات إدارة الأزمات الوبائية.

**

إن هذا التمييز بين مخاطر المرض والعواقب السِّياسيَّة والأخلاقية هو الذي دَفَعَ جيورجيو أغامبين إلى التعبير عن موقف نَقْدي حادٍّ إزاء الحكومات، يغلب فيه التركيز على العواقب السِّياسيَّة والأخلاقية، من دون أن يأخذ بعين الاعتبار المخاطر الحقيقية التي يمثِّلها الوباء في حَدِّ ذاته، بوصفه كما قلْنا واقعاً قائماً، يحصد الأرواح. فقد فسَّر أغامبين في مقال جهَّزه في ابتداء انتشار الفيروس بإيطاليا (انظرِ المقال في أغامبين ٢٠٢٠) ردَّاتِ فعل الحكومة الإيطالية، والحكومات عموماً، على الوَضْع الوبائي بعاملَيْن اثنَيْن: الأوَّل، ميل هذه الحكومات المتزايد إلى تبنِّي حالة الاستثناء أنموذجاً اعتيادياً في الحُكْم. وهذا العامل مرتبط كما ألمعنا أعلاه بأطروحة عامَّة، سبق أن دافع عنها أغامبين، وطوَّرها عَقيبَ أحداث الحادي عشر من سبتمبر في كتابه "حالة الاستثناء"، (انظر الفصل الأوَّل من الكتاب ٢٠٠٥: ١-٣٦)؛ والثاني، وهو عامل لا يقلُّ إثارة للقلق في نَظَره من العامل الأوَّل، يعود إلى أن حالة الخوف التي وقع التركيز عليها في الأعوام الأخيرة في أوروبا، وفي بلدان أخرى أيضاً، أصبحت مسيطرة على أذهان الأفراد، بحيث لا يمضي أيُّ حَدَث، حتَّى ولو كان تافهاً، من دون أن يقع إبرازه عن قَصْد وتضخيمه عن تصميم، ليُولِّد ذعراً جماعياً. فالحكومات اليوم لا ترى شيئاً آخر أقوى وأفضل من وباء الكورونا لإثارة الذعر الجماعي، وترسيخه في النفوس. ضمن هذه الدائرة الجهنَّميَّة المغلَقَة يحصل في نَظَر أغامبين القَبولُ بالقيود التي تفرضها الحكومات على الحُرِّيَّة، باسم الرغبة في الأمن. وهذ الرغبة العارمة في الأمن لا تعدو في نَظَره أن تكون رغبة خَلَقَتْها الحكومات نفسُها بسياساتها السابقة، وهي التي تتدخَّل اليوم، عن طريق حالة الاستثناء التي تتوق إلى فرضها، لإشباعها.

**

سلافوي جيجيك، في كتابه الأخير الذي صاغه على عجل تحت الحَجْر بين جدران بيته، يرى في القراءة التي يعرضها أغامبين هنا الصيغة الأكثر تطرُّفاً لموقف يساري واسع الانتشار، يفسِّر الذعر المبالغ فيه الناجم عن انتشار الفيروس، بمزيج من ممارسة السلطة لإحكام السيطرة على المجتمع (وهنا يندرج تفسير أغامبين)، ومن عناصر أخرى ذات صلة بالعنصرية الصريحة التي تتوزَّع بين لوم الطبيعة مرَّة ولوم الصين أخرى (يقصد جيجيك هنا بعض المواقف العنصرية التي عبَّر عنها بعض السِّياسيِّيْن والمسؤولين إزاء بعض الحيوانات كالخفافيش، وإزاء الصين خاصَّة في ابتداء انتشار الفيروس) (انظرْ ما أورده هورفات (٢٠٢٠) بخصوص المواقف العنصرية ضدَّ الصين). اعتراض جيجيك على هذا الموقف العام، ببُعْدَيْه السُّلطويِّ والعنصري، مردُّه أنه موقف لا يُلغي الواقع كما أشرنا أعلاه. هل يفرض علينا هذا الواقع بالفعل تقييد حُرِّيَّتنا؟ ممَّا لا شكَّ فيه أن الحَجْر الصِّحِّيِّ والإجراءات الأخرى المماثلة تحدُّ من حُرِّيَّتنا. لا أحد بإمكانه أن يُنكِرَ ذلك. لكن جيجيك يرى أننا، على عكس ما يذهب إليه أغامبين الذي لا يلتفت إلى أننا أمام واقع وبائي، لا يمكن أن نُنكره، نكون هنا في حاجة ماسَّة

إلى أشخاص كُثُر مثل تشيلسيا مانين، وجوليان أسانج، وإدوارد سنودن، للكشف عن سوء استخدام هذه الإجراءات المحتمَل، وفضحِه. كما يجب في نَظَر جيجيك أيضاً ألَّا ننسى أن الوباء أعطى الأشكالَ الجديدة من التضامن المحلِّيِّ والعالَمي زخماً غير مسبوق، فضلاً عن أنه بَيِّن بما لا يدع مجالاً للشَّكِّ الحاجة إلى السيطرة على السلطة نفسها وتقييدها مستقبلاً. فعندما ينبري الناس إلى تحميل سلطةِ الدولةِ المسؤوليةَ، فإن لهم كامل الحقِّ في ذلك. الناس اليوم يصرخون في وجه الدولة قائلين: السلطة بين يَدَيْكِ، أيَّتها الدولة .. ! هيَّا، أَظْهِري لنا الآن ما تستطيعين فعلهُ! (انظر جيجيك ٢٠٢٠: ٧٥).

من حُسن الحظِّ أن للوباء آثاراً جانبية إيجابية أيضاً. فقد استطاع وباء كورونا المستجدُّ هذا، كما بين جيجيك (٢٠٢٠: ٣٩) أيضاً، أن يفتحَ المجال في مقابل هذا كلِّه لتفشِّي فيروس إيديولوجي آخر حميد، وأكثر

فائدة، هو فيروس التفكير في مجتمع آخر بديل، مجتمعٍ يتخطَّى حسابات الحكومات العاجزة عن التَّصدِّي لمشاكلها، مجتمعٍ يميِّزه التعاون الوثيق والتضامن الكثيف مع باقي المجتمعات الأخرى، لمواجهة أوبئة وجوائح وأخطار أخرى بيئية وغير بيئية تلوح في الأفق، ولا تعترف أصلاً بحدود الدول الوطنية. الانعزال أو إغلاق الحدود أو الحَجْر الصِّحِّيِّ إجراءات لن تُسعفَنا إلى ما لا نهاية في صَدِّ المخاطر التي أصبحت تُحدِق بنا نحن سكَّانَ الأرض. هناك حاجة مُلحَّة إلى تضامن كامل غير مشروط واستجابة منسَّقة عالَمياً لمواجهة الأخطار مستقبلاً. إذا لم نُوجِّه جهودَنا في هذا الاتِّجاه، فإننا كما يقول، سلافوي جيجيك (٢٠٢٠: ٥٦)، سنجعل من ووهان وهي تحت الحَجْر نموذجاً لما ستصبح عليه مُدنُنا في المستقبل. سنبقى طول الوقت في منازلنا، لن نمارس عملنا إلَّا عن بُعْد من على أجهزة الكمبيوتر الخاصَّة، لن نعقدَ اجتماعات إلَّا عن بُعْد أيضاً بواسطة كاميرات الفيديو، لن نمارسَ الرياضة إلَّا على آلة في زاوية من زوايا مكتبنا بالبيت ... إلخ، ولن يتسنَّى لنا يوماً أن نلتقي بالأشخاص الآخرين وجهاً لوجه.

المراجع:

Agamben، Giorgio. Homo sacer: sovereign power and bare life. Stanford University Press (1998)

Agamben، Giorgio. State of Exception. The University of Chicago Press (2005)

Agamben، Giorgio. "The state of exception provoked by an unmotivated emergency" in Position (26 Feb، 2020). (http://positionswebsite.org/giorgio-agamben-the-state-of-exception-provoked-by-an-unmotivated-emergency/)

Dennett، Daniel C. The Intentional Stance. Bradford Books. The MIT Press (1989)

Foucault، Michel. Surveiller et punir. Gallimard (1975)

Horvat، Srećko "Why the coronavirus presents a global political danger " in New Statesman (19 Feb. 2020). (https://www. newstatesman.com/politics/health/2020/02/why-coronavirus-presents-global-political-danger)

Žižek، Slavoj. Pandemic! Covid-19 Shakes the World. published by OR Books (2020).

هل هناك مستقبل للبشرية بعد جائحة كورونا؟

بلال سامبور / ترجمة: عماد الأحمد

تسبَّب وباء كورونا المستجدُّ بالكثير من الألم والذُّعر والدمار والموت في العالَم، ولا تمتلك البشرية التي أُسقِطَ في يدِها شيئاً أمام هذا الفيروس، فقد أصبح بقاؤها يمثِّل الأولوية الأولى والمُلحَّة اليوم. لم يحدث أيُّ تطوُّرٍ يوحي بالأمل بعد، أو بالقدرة على معالجة هذه الجائحة التي تُعدُّ أزمة صحِّيَّة كبرى للبشرية جمعاء. تتطلَّب جائحة فيروس كورونا المستجدّ هذه التفكير في الوضع الحالي للإنسان اليوم، وفي مستقبل البشرية أيضاً.

لا يبذل الرجال والنساء المعاصرون جهوداً كبيرة لمعرفة أنفسهم وفَهْمها، بل يبذلون الغالي والنَّفيس لمعرفة كلِّ شيء، ما عدا أنفسهم. تُظهِر أزمة فيروس كورونا المستجدِّ أن المهمَّة الأساسية للبشرية تكمن في معرفة نفسها، إذ لا بدَّ للإنسان من إعادة استكشاف الحكمة القديمة التي تقوم على مبدأ "اعرفْ نَفْسَكَ". كما أنّه لا يمكن لكلِّ هذه المعارف التي في متناول أيدينا أن تساعدَ البشر في أن يصبحوا كائنات أكثر نضجاً ومسؤولية وأخلاقية وإبداعاً، دون الوصول إلى مستوى عميق من فَهْمِهم لذواتهم.

لا نعرف موعداً محدَّداً لانتهاء جائحة فيروس كورونا، ولكن هذا الوباء لا بدَّ أن ينتهي عاجلاً أم آجلاً، لذلك لا ينبغي على الإنسانية نسيان هذه التجربة على الإطلاق، بل ينبغي على الإنسان أن يبذلَ قصارى جهده، كيلا ينسى هذا الوباء ويتذكَّره، كي يُعدَّ نفسه للأوبئة والكوارث المستقبلية. يُحتَمَل أن ينسى الناس ما حَدَثَ خلال هذه الأزمة إذا ما تمَّ العثور على لَقَاح أو علاج لهذا الوباء، لذلك هناك خطر حقيقي في أن يضطرَّ البشر إلى تناسي وباء كورونا حتَّى يتمكَّنوا من المضي قُدُمَاً نحو المستقبل. إنما يتطلَّبُ التَّذكُّر القدرة على تعلُّم الدرس، إذ لا بدَّ أن تتعلَّم البشرية دروساً مهمَّة من هذه الأوبئة. إذنْ، ينبغي لهذَيْن الجانبَيْن الهامَّيْن، التَّذكُّر والتَّعلُّم، أن يُشكِّلا العقل البشري للمستقبل.

لقد واجهت الإنسانية الكثير من الكوارث حتَّى اليوم، ولا يزال الإنسان يميل إلى نكرانها حتَّى يتمكَّن من مواجهتها. لا يؤمن معظم الناس بخطر جائحة فيروس كورونا، ويفترضون أن هذا التهديد لن يصل إليهم أبداً. لم يقتصر فيروس كورونا على الصين وحسب، بل وصل إلى كلِّ ركن من أركان العالَم، حتَّى غدا كارثة عالَمية حقيقية. لا بدَّ أن ندركَ أن الكوارث البيئية والإنسانية ينبغي النَّظَر إليها بوصفها حقائق ملموسة قبل مواجهتها، ولا بدَّ من أخذ التحذيرات المستقبلية على محمَل الجِدِّ عندما تصدر عن العلماء والمفكِّرين والباحثين، ولسنا بحاجة للانتظار حتَّى نواجهها مباشرة. تدلُّ كارثة فيروس كورونا على أن مستقبلنا سيكون مليئاً بالكوارث والمخاطر والتهديدات، وهذا هو للأسف الواقع القاسي الحقيقي لحاضرنا ومستقبلنا.

هناك مجالان رئيسان هامَّان للغاية، أوَّلهما الصِّحَّة، وثانيهما الأمن السِّيبرانيُّ. يتحتَّم على وجودنا المستقبلي مواجهةُ العديد من المخاطر، مثل فيروس كورونا وغيره الكثير من العوامل المسبِّبة للأمراض. لذلك لا بدَّ أن يطالب الناس بنظام صحِّيٍّ جديد قادر على حمايتهم من التهديدات المشابهة الجديدة. أمَّا بخصوص الأمن السِّيبرانيِّ، فإن الفضاء الإلكتروني قد أصبح يُمثِّل فضاء حياتنا اليوم، فنحن نقضي معظم وقتنا في العالَم الإلكتروني، ونمارس جميع أنشطتنا في هذا الفضاء، ولا بدَّ أن يتعرَّض هذا الفضاء الإلكتروني إلى العديد من الهجمات السِّيبرانيَّة. وهكذا أصبحت الصِّحَّة والأمن السِّيبرانيُّ يمثِّلان الشواغل الأساسية للحياة البشرية، فلكي نعيش حياتنا ينبغي أن نكون أصحَّاء، وأن يكون الفضاء السِّيبرانيُّ آمناً ومفتوحاً وحُرَّاً.

تُعلِّمُنا جائحة فيروس كورونا درساً قاسياً يقول إنه يمكن لفيروس صغير أن يقتل مئات الآلاف، وأن يُدمِّر حياتنا بالكامل. ليست كوارثنا الحالية، مثل جائحة كورونا، بمشاكل مؤقَّتة، بل تهديدات وجودية حقيقية. وسوف نواجه تهديدات متنوِّعة مثل الميكروبات ومُسبِّبات الأمراض والروبوتات القوية، والذكاء الاصطناعي الفائق، وظاهرة الاحتباس الحراري العالَمية، والأسلحة النَّوويَّة والإرهاب، والتي تهدف جميعها إلى تدمير وجودنا وحضارتنا. لا بدَّ من الاعتراف أن هذه التهديدات حقيقية ومُدمِّرة، وينبغي أن تُعامل على أنها تهديدات وجودية وعميقة ودائمة، لأنها يمكن أن تؤدِّي إلى النهاية الكاملة لإنسانيتنا، والقضاء على الجنس البشري على سطح هذا الكوكب.

تستهدف هذه التهديدات الحضارة الإنسانية، لأنها تُجبِرُنا على التَّخلِّي عن قِيَمِنَا الحضارية، مثل الحُرِّيَّة والدِّيمقراطيَّة والعدالة والسلام والتَّعدُّديَّة. وتُجعل هذه التهديدات من الأمن القيمة الوحيدة في حياتنا، فكثير من الناس على استعداد للتضحية بالحُرِّيَّة والدِّيمقراطيَّة والعدالة بعد مواجهة جائحة فيروس كورونا.

تواجه البشرية اليوم عدوَّاً جديداً للحضارة الإنسانية، اسمه استبداد كورونا، فالتَّخلِّي عن القِيَم الحضارية يعني انهيار الحضارة الإنسانية. تكمنُ المهمَّة الأساسية في حماية وجود الإنسانية والحضارة معاً، على أن المجتمعات العالَمية والحكومات والمثقَّفون والأكاديميون والفلاسفة والكُتَّاب والمفكِّرون هؤلاء جميعاً لا يبدو عليهم أنهم يعتقدون بأن هذه التَّحدِّيات تمثِّل تهديدات وجودية، بل يعتقدون أنها ليست سوى مجرَّد خيالٍ أو سيناريوهات متشائمة. يتوجَّب علينا تعلُّم التفكير والتَّأمُّل في هذه التهديدات الوجودية، ولا بدَّ للإنسانية أن

تُثقِّف نفسها حول كل ما يخصُّ هذه الجائحة، فهناك حاجة للتثقيف ونشر الوعي على مستوى العالَم حول ما تمثِّله من تهديد وجودي في مؤسَّساتنا التعليمية.

اخترعت البشرية أجهزة الكمبيوتر والروبوتات والقنابل النَّوويَّة والسفن الفضائية وغيرها، ولكن البشر لا يتعاملون مع بعضهم البعض بطريقة ودِّيَّة وإنسانية وسِلْمِيَّة. تكره الأعراق البشرية بعضها البعض، وتنتشر الخصومات والعداوات في كلِّ جزء من أجزاء هذا العالَم. جاءت جائحة كورونا نتيجة أزمة عميقة في صميم إنسانيتنا، وأعظم درس يمكن أن تُلقِّنه لنا هذه الأوبئة هو أننا لا بدَّ أن نرتقي بطُرُق التعامل مع بعضنا البعض على نحو يليق بإنسانيتنا، فمن دون التعامل ذي البُعْد الإنساني فيما بيننا لا يمكننا حماية الطبيعة وحماية العالَم.

لا يمكن لأيِّ إنسان أن يعيش معزولاً عن بقية البشر، لأن فيروساً ما آتٍ من الصين قادر، كما تبيَّن، على تهديد العالَم بأسره. البشرية والطبيعة متداخلان مع بعضهما البعض، لذلك ينبغي على العالَم إعادة اكتشاف وحدة البشر والوحدة مع الطبيعة. إننا كبشر بحاجة إلى حقوق الإنسان والدِّيمقراطيَّة والحُرِّيَّة والأمن والعدالة والسلام والتَّنوُّع، لكي نعيش كبشر حقيقيِّيْن في هذا العالَم. وينبغي على شعوب العالَم تطوير الشعور الجماعي بوحدة المصير، إذ لا بدَّ للجميع من أن يشعر بأهمِّيَّة اتِّحاد البشر مع بعضهم بعضاً، وبكونهم جزءاً لا يُجتزأ من جنس بشري واحد.

تجعل جائحة كورونا البشر يدركون أن التضامن العالَمي بين الشعوب من أهمِّ متطلَّبات العيش في عالَم اليوم، وعلى الرغم من تزايد الحاجة إلى هذا الإدراك، إلَّا أن النزعات القومية والشَّعبويَّة في ازدياد مضطرد في بلدان مختلفة، مثل المجر وبولندا والولايات المتَّحدة وإنجلترا وفنزويلا. يُعدُّ الرئيس ترامب رائد النزعة القومية الأمريكية، فقد كان شعاره الأساسي "أمريكا أوَّلاً". لقد تحوّلَ أوربان، رئيس وزراء المجر، إلى حاكم مستبدٍّ في قلب الاتِّحاد الأوروبي، ولكن النزعات القومية والشَّعبويَّة لا يمكن أن تحلَّ

مشـــكلة طبِّيَّة عالَمية مثل جائحة كورونا. لا يمكن تمثِّل المصــــالح الوطنية والألعاب السِّـــياســـيَّة للفوز بالانتخابات الأولوية الأساسية للبشرية.

تحتاج الإنسـانية إلى نموذج جديد، يهتمُّ بالطبيعة والصِّحَّة وبالإنسـانية جمعاء، وتُجبرنا جائحة كورونا على ضـرورة اعتماد نموذج جديد قائم على مبدأ الإنسانية أوَّلاً. لا يمكن للنزعات الشَّعبويَّة والسُّلطويَّة أن تسير على هذا النحو في أزمة مثل أزمة كورونا.

كان العالَم في فترة ما قبل فيروس كورونا يغصُّ بالانقســامات السِّـياســيَّة والكراهية والصـــراعات والمخاوف والأعمال العدائية. أظهرت هذه الجائحة أن البشــرية قد تعبتْ حقَّاً من كلِّ هذه الصـــراعات على السلطة والهيمنة، وقد أدركت الإنسانية أن الألعاب السِّياسيَّة والصراعات على السلطة قد أخفقت في إيجاد حلٍّ لهذا الوباء. لا يمكن للبشر محاربة هذا الفيروس سوى بالتضامن والعلم والتعاطف والنَّظَر إلى المسـتقبل، إذا ما أرادت التَّغلُّب على هذه الكارثة. يقوِّي كلٌّ من التَّعصُّـب والجهل والانقسـامات هذا الفيروس، ويُضعف البشرية بأكملها. يمكن القول ببساطة إن سلامة الإنسانية وأمنها باتا اليوم في خطر مُحدِق. لا تعرف الأخطار، مثل جائحة فيروس كورونا، حدوداً أو جنسيات أو أدياناً أو طبقات. فقد بذَّر السِّياسيُّون في جميع البلدان كلَّ طاقاتهم وطاقات بلادهم في التَّسلُّح والحرب والاحتلال والفساد والعنف. ولا تزال دول أفريقيا والشـــرق الأوســـط وأمريكا اللَّاتينيَّة وآســـيا تعاني الأمرّين نتيجة الحروب والصـراعات والفقر والفسـاد والتَّعصُّـب. وهذا يظهر أن الحُكَّام والسِّياسيِّيْن مجرَّد أشخاص معتوهين، لأنهم ما زالوا مشغولين باستغلال الناس لإرواء جشعهم وطموحاتهم السِّياسيَّة. ولا توجد مؤسَّسة أممية، بما فيها الأمم المتَّحدة، قادرة على توفير السـلامة والأمن للعالَم. يمكن للبشـرية إذا اسـتطاعت أن تعمل مع بعضها البعض تحقيق الأمن والحُرِّيَّة الإنسانية.

جميع المشـاكل التي يعاني منها العالَم من صُـنع الإنسـان. وقد أخفقت المؤسَّـسـات العالَمية، مثل الأمم المتَّحدة وحلف شَمَال الأطلسي والاتِّحاد الأوروبي وغيرها من المؤسَّسات في حلِّ المشاكل التي سبَّبها الإنســان. فالإنســان، وليس الرَّبُّ، المصــدرُ الحقيقيُّ للمشــاكل العالَمية. لذلك لا يُعدُّ نهج الإلقاء باللَّائمة على الرَّبِّ نهجاً مُثمِراً، فلا بدَّ للبشــرية أن تواجِهَ إخفاقاتها الأرضــية لحلِّ المشــاكل العالَمية. ينبغي أن تقبل الإنســانيةُ مســؤوليَّتَها في مواجهة المشــاكل العالَمية. فقد أظهرت هذه الجائحة أن البشــرية تتجنَّب مواجهة إخفاقاتها ومشــاكلها. يبحث الناس عادة عن حلول عملية للمشــاكل اليومية، من أجل اســتمرار أسلوب حياتهم الطَّبيعيِّ، ولكنهم ينظرون إلى جائحة كورونا بوصفها مشكلة مؤقَّتة، لا تحتاج سوى إلى لَقَاح أو تطعيم فعَّال. لا بدَّ أن نُدرِك أن هذه الجائحة لا تتعلَّق بالتطعيم وحسب، بل تمثِّل مشكلة حسَّاسة وحقيقية ناتجة عن أسـباب اقتصـادية وسـياسـية ومناخية في العالَم. تتطلَّب المشـاكل الكبرى اليوم، مثل اقتصـــاديات الحرب وتدمير الطبيعة والصـــراعات السِّـــياســـيَّة، حلولاً فعَّالة وتغييرات جِدِّيَّة في حياة الإنسان. فلا ننسى أن كسب المال من خلال بيع الأسلحة وإشعال الحروب يجعل عالَمنا مكاناً يفتقر إلى الأمان. ولا بدَّ أن تتركَّز أولويتنا الاســـتراتيجية في حماية البشـــرية، لأنه لا مفرَّ من أن تكون صـــحَّة الإنسان وسلامته من البنود الأولى في جدول الأعمال

الحالي والمستقبلي للعالَم. ينبغي على الحكومات في العالَم أن تعمل لحماية صحَّة الإنسان وسلامته، لأن العمل الجادَّ في سبيل سعادة القلَّة يُحسِّن حياة البشرية جمعاء.

يحاول الجميع العثور على الإجابة الصـــحيحة لمســـألة جائحة فيروس كورونا، إذ يعتقد الكثيرون أن أزمات الرَّأسماليَّة العالَمية مصدر مشاكل العالَم كلّها، بما فيها فيروس كورونا. يسهل بالطبع إلقاء اللوم على الرَّأســماليَّة، ولكن لوم الرَّأســماليَّة لا يتعدَّى كونه حكماً عقائدياً ومتحيِّزاً مُفتقِراً إلى العقلانية، ولا يمكن أصـــلاً لِلُعبة اللَّوْم هذه أن تحلَّ مشـــاكل البشـــرية. لا بدَّ أن نُغيِّر نمط حياتنا القائم على النزعة

الاستهلاكية. ينبغي أن تسعى الإنسانية إلى البحث عن الحقيقة والمسؤولية والمساءلة بالاعتماد على العقلانية والضمير.

لا تقوم الحياة البشرية على الإحصائيات والنماذج الرِّياضيَّة، ولكننا نتابع يومياً عدد الوفيات والحالات بسبب جائحة فيروس كورونا في جميع أنحاء العالَم. نحتاج جميعنا حقَّاً أن نتمتَّع بالمعرفة الدقيقة والبيانات السليمة قبل وقوع الكوارث المشابهة لهذه الجائحة. ولا يمكننا بعد وباء كورونا الوثوق بمنظَّمة الصِّحَّة العالَمية، لأنها أخفقت في تعريف البشرية بالفيروس في الوقت المناسب. لا يمكن التسامح مع الجهل والتراخي عندما يتعلَّق الأمر بشؤون الصِّحَّة والسلامة والطبيعة. نحتاج جميعاً إلى نَهْج جديد للصِّحَّة والأمن والسياسة، يضع سلامة وصحَّة الإنسان على رأس الأولويات. كما أن الموضوعية العلمية المستقلَّة تمثِّل الشرط الأساسي لإنشاء مؤسَّسات جديدة وابتكار مناهج جديدة لصحَّة الإنسان وغذائه وسلامته. لا بدَّ من إصلاح جميع المؤسَّسات العالَمية، حتَّى الأمم المتَّحدة ومنظَّمة الصِّحَّة العالَمية، لتتمكَّن هذه المؤسَّسات من فَهْم المشاكل الحقيقية للإنسان، ومساعدة وتوجيه الإنسانية دون إخفاءٍ لأيِّ معلومات أو تجاهلٍ لأيِّ مصاب يصيبها.

دفعَتْ جائحة كورونا الإنسانية لاستكشاف نُهُج شاملة لمشاكلها الصِّحِّيَّة والأمنية. لا بدَّ من تحليل العوامل المادِّيَّة والرُّوحيَّة والاجتماعية لإيجاد حلول حقيقية لهذا الوباء. لم نجد حتَّى اليوم علاجاً لفيروس كورونا، فالمسألة لا تتعلَّق بالتطعيم واللَّقَاح والعلاج فحسب، بل تتعلَّق بطبيعة تقارُبنا مع بعضنا البعض، وكيفية العيش متسلِّحين بمُثُل وأخلاق واحترام يصون الطبيعة. إذا أصرَّيْنا على عدم العيش على نحو إنساني وأخلاقي وروحي وعقلاني سنواجه المزيد من الكوارث والأوبئة والأزمات في المستقبل.

الإنسان كائنٌ أخلاقي أوَّلاً وأخيراً، فلا يمكننا تجاهل معاناة وموت إخواننا من البشر، لأننا لسنا كائنات معزولة. لا بدَّ أن نهتمَّ ببعضنا البعض، وليس بالولايات المتَّحدة الأمريكية أو أيِّ قوَّة أخرى تريد أن تعطي الأولوية لنفسها فقط، لتكون "أمريكا أوَّلاً". تتزايد اليوم الحاجة للتضامن الإنساني والتعاون والتعاطف على نحو متجاوز لأعلام الدول وعابر لحدودها. تعتمد حماية حاضر ومستقبل البشرية على تعزيز شعورنا بأننا ننتمي إلى إنسانية واحدة متضامنة.

هناك إشارات إلى أن جائحة كورونا في سبيلها بالفعل إلى تغيير أساليب التفاعل بين البشر، أصبحنا نتعامل مع بعضنا البعض من دون أيِّ لمسة بشرية. نتفاعل اليوم مع بعضنا البعض من خلال أجهزة الكمبيوتر والهواتف. سوف تكون الآلات والأجهزة والأتمتة الوسيلة الرئيسة لعيش العلاقات الإنسانية. يظهر في الأُفق تهديد مُهمٌّ آخر للبشرية، فقريباً لن نكون الفاعل الوحيد في العالَم، بل سنتشارك حياتنا في المستقبل مع الروبوتات. وعندما تزداد الأتمتة واستخدام الروبوتات في حياتنا ستزداد الهُوَّة فيما بيننا. لا بدَّ للبشر من اتِّخاذ قرار واضح بشأن ما إذا كانوا يريدون أن يعيشوا حياة بشرية أو حياة تكنولوجية، لأن الصراع بين البشر والآلات قادم لا محالة.

يُركِّز العالَم اليوم على مسألة كيفية إنهاء جائحة كورونا وكيفية تنشيط التجارة والاقتصاد. لا يذكر أحد ضرورة التعامل مع الاحتباس الحراري العالَمي والأزمة البيئية والفقر والعنف والأُمِّيَّة بوصفها مشاكل مُلحَّة. لا يُفضِّل معظمُنا اليوم التفكير أو حتَّى الحديث عن كيفية تأثير الروبوتات وأجهزة الكمبيوتر والذكاء الاصطناعي على وجودنا وحياتنا، قلَّة من الناس فقط تكترث بالعلاقة بين الآلات والبشر، بوصفها السؤال الأساسي اليوم. لقد تأجَّلت جميع الأسئلة الحسَّاسة والحرجة إلى الغد.

مع ذلك، لدينا اليوم فرصة للتفكير فيما يمكن فعلُهُ لتجنُّب الكوارث في المستقبل. علينا إيجاد طُرُقٍ جديدة للحَدِّ من النتائج المُدمِّرة للأزمة البيئية، والقضاء على الأسلحة النَّوويَّة من أجل حماية أنفسنا من

الدمار الشامل. يُعدُّ زمن فيروس كورونا الذي نحن فيه اليوم لحظة حاسمة في تاريخ الجنس البشري، فمسألة بقاء الإنسانية والحضارة مسألة مُلحَّة علينا اليوم وليس غداً. لا يمكننا تأجيل هذه المشاكل للغد. لا بدَّ أن نتصرَّف اليوم، فيوم غدٍ سيفوت الأوان.

تُجبِرُنا جائحة كورونا على إعادة النَّظَر في رابطتنا الإنسانية، إذ يتوجَّب علينا إعادة تشكيل أنفسنا على نحو يُعزِّز هذه الرابطة، كي نسعى لتحقيق مستقبل أفضل للبشرية. لم يعد كلٌّ من العِرْق والجنس واللون والدِّين والطائفة والأيديولوجيا والطبقة أشياء مهمَّة اليوم، بل علينا أن نتعلَّم الإعلاء من شأن الأخوة الإنسانية، من دون ذلك لا يمكننا تكريس شخصية أخلاقية وعقلانية وعادلة. يمكن للبشر الأخلاقيِّيْن والعقلانيِّيْن

والعادلين استخدام السياسة والاقتصاد والتعليم لخدمة سائر البشر، ولا بدَّ أن تُبذلَ جميع الاستثمارات الجديدة في سبيل خير الإنسان. ولم يعد مفهوم الصالح العام كافياً، بل علينا استخدام مفهوم الخير البشري من أجل إنتاج منظور لائق بنا في السياسة والاقتصاد والتعليم.

جائحة كورونا ليست عقاباً أو إنذاراً إلهياً، بل ينبغي أن تتقبَّل البشرية مسؤوليتها عن هذا الوباء. فهذه الجائحة تمثِّل إخفاقاً ذريعاً للعالَم بأكمله، حيثُ تنتقم الطبيعة من الإنسان، فالبشر يُسيئون معاملة الطبيعة، ويستغلُّونها على نحو عنيف ومُدمِّر. لا بدَّ من القول أيضاً إنّ النظام الاقتصادي الذي وضعتُهُ البشرية نظام عدواني وغير مجدٍ على الإطلاق، فقد ضحَّت البشرية بالطبيعة من أجل تحقيق المزيد من الربح. لا يسمح التدمير المستمرُّ للطبيعة بتحقيق حياة مُستدامَة للبشرية على الأرض. إن جائحة كورونا باختصار ثمرة ما فَعَلَهُ الإنسان المتسلِّط بالطبيعة.

ومن الواضح حتَّى الآن، أن هذه الجائحة في سبيلها على التَّسبُّب في ركود اقتصادي في جميع أنحاء العالَم.

لا نبرحُ اليوم منازلنا، ولكننا نتواصل مع بعضنا البعض من خلال الأدوات التِّكنولوجيَّة والإنترنت والهواتف وغيرها، وعلى الرغم من تشجيعنا للامتثال لقواعد التباعد الاجتماعي، إلَّا أن الإنسانية تفعل كلَّ ما في وسعها، لترتبط وتتواصل مع بعضها البعض. لم يؤدِّ فيروس كورونا إلى حالة من الركود الاجتماعي، لأن التَّنقُّل البشري والتواصل مستمرَّان. ندرك خلال زمن جائحة فيروس كورونا هذا أننا في مساس الحاجة إلى بعضنا البعض أكثر من أيِّ شيء آخر، فقد اكتشفنا أن الآخر ليس الجحيم كما يقال، بل يمكننا أن نكون المَسْكَنَ والراحة والأمان لبعضنا البعض. وإذا حقَّقْنا الوحدة والثقة بين الناس، فإن هذا سيكون إنجازاً عظيماً للبشرية، حيثُ تمثِّل كلٌّ من الوحدة والثقة الإنسانية الطريقة الفعَّالة الوحيدة التي يمكننا استخدامها ضدَّ فيروس كورونا، وفيروسات الشَّعبويَّة والاستبداد والظلم.

لقد أجبرتْنا جائحة كورونا على الاعتراف أننا نحتاج إلى الاعتماد على بعضنا البعض، وأننا في حاجة إلى نموذج اقتصادي وسياسي قائم على العدل والسلام والحُرِّيَّة.

لن نعودَ إلى حياتنا المعتادة بسهولة، لأن أثر أزمة كورونا أكثر تدميراً من الكساد الكبير ومن الحرب العالَمية الثانية. لا بدَّ أن ينتهي النموذج الاقتصادي الذي يسعى إلى النُّمُوِّ وحسب مهما كان الثمن، ومعه هذه المبادئ المُدمِّرة المتمثِّلة في جَعْل دولة ما عظيمة مجدَّداً. لا يزال هذا النموذج الاقتصادي المتمركز حول الربح يُدمِّر كوكبنا وشعوبنا، فالنزعة الاستهلاكية لا تمثِّل طريقة حياة إنسانية، لأننا لا نعيش، بداهة، في هذا العالَم من أجل الاستهلاك وحسب. لا تنفع السياسات والاقتصاديات القائمة على الربح والخسارة على الإطلاق في أزمات مثل الأوبئة. ولا يؤدِّي النظام الاقتصادي والسِّياسيُّ الحالي سوى إلى المزيد من الخسارات للناس والكوكب، والمزيد من الأرباح لصالح الرَّأسماليِّيْن والنُّخب السِّياسيَّة. يمكننا أن نفوز جميعاً في حال استخدمنا العلم والتكنولوجيا على نحو عقلاني وإنساني، نحن في حاجة

مُلحَّة إلى نظامٍ اقتصـاديٍّ مُستـدامٍ قادرٍ على تحقيق السـلام والازدهار لكوكب الأرض وللبشـر على حَدٍّ سواء، من دون تمييز.

لا توجد دولة مكتفية ذاتياً، العالَم حلقات متَّصـــلة، ونحن بحاجة إلى نموذج عولمة مُســـتدام وطبيعي جديد، يمنح الأولوية لحياة البشـــر والكوكب. لا بدَّ أن تُحدِثَ جائحة كورونا تحوُّلاً عالَمياً في الوعي لصالح البشر والكوكب. لا بدَّ أن تمثِّل جائحة كورونا فرصـة هامَّة لإعادة إضفاء الطابع الإنساني على حياتنا، ولا بدَّ في النهاية أن نكرِّس قِيَم التعاون مع بعضنا البعض على نحو إنساني وأخلاقي وروحي.

الأناركية(***) الاصطناعية

رؤية إيطالية

إيمانويل بوتّاتسي غريفوني / ترجمة: يوسف وقاص

يخطف الحيوانُ السوطَ من السَّيِّد، ويجلد نفسَهُ، ليصبح سيِّداً، ولا يعرف
أن هذا مجرَّد خيال، ناجم عن عقدة جديدة في سوط السَّيِّد.

فرانز كافكا

الذئبُ هو كلبٌ لا يتآلف مع البشر. السُّومريُّون، وهم أوائل مَنْ شيَّدوا المُدُن، وتركوا شـهادات مكتوبة عن أنفسهم، وأوائل المسَّاحين، وأوائل مَنْ تصوَّروا العالَم في أبعاده، كانوا في الواقع يطلقون عليه اسم "أور. بـار. را UR-BAR. RA"، أي حرفياً، "كلـب" (أو بـالأحرى، آكل لحوم كبير، أُوُر UR) خارجي (بار)، ويعارضـــه "أور. جير UR. GIR، حيثُ "جير GIR" تعني "أهْليّ، مَحَلّيّ"، أي كلب الحراسة.

الأُوُر (الذئب) الوحيد الذي تمَّ تدجينه في تاريخ البشـرية، يسبق بهذا جميع الكائنات الحَيَّة الأخرى التي دخلت لتشـكِّل جزءاً من حياتنا ونظامنا الإنتاجي بعدَّة آلاف من السنين، من الأغنام إلى الأحصـنة، ومن القمح إلى الأرز. ثمَّ إن الذئب لم يعد يمثِّل تهديداً للبشـــر، فقد أصـــبح "أهلياً أو محلِّيَّاً"، أي الكلب الذي يسـاعد في الصـيد وحماية الحيوانات التي تسـاهم في تغذية الرجال. ومع ذلك، كونه "أُوُر"، يظلُّ عتبة الموروث بين الإنسانية المترابطة والطبيعة المبلبلة.

عتبة الخطر: كـان الـذئـب، في ثقافة بلاد مـا بين النهرَيْن، مرتبطـاً في الواقع بنيرغـال Nergal، إلـه الحرب والأموات والأوبئة. كوكب نيرغال، المريخ، كان يُســـمَّى أيضـــاً "مول. أُوُر. بار. را MUL . UR. BAR. RA"، أي نجم (مول MUL) الذئب (أُوُر. بار. را UR. BAR. RA)

كان المرِّيخ "الغريب"، "الشِّـرِّير" و"النجم الأسـود" و"النجم الذي لا حَدَّ لَهُ"، "يبيد المواشـي"، وكذلك "نذير وباء" للبشر. "إله يلتهم"، هكذا يتمُّ تعريف الوباء في رسائل ماري، أرشيف هائل من المراسلات المَلَكِيَّة يعود إلى الحقبة البرونزية الذي تمَّ العثور عليه فيما كان يُسمَّى مدينة - مملكة ماري، وهو مكان يغصُّ بالثقافة الأكَّاديَّة والآشوريَّة والسُّومريَّة، ويقع في سوريا الحالية، على مقربة من الحدود العراقية، اكتُشف في عام ١٩٣٣، وتمَّ نهبُهُ وتدميرُهُ من قبَل داعش في الآونة الأخيرة.

بعكس الذئب، ارتبط الكلب بالرعاية والصِّحَّة. كانت إلهة العلاج "غولا" مصحوبة تقليدياً بكلب وقريب منها إلى حَدٍّ يمكن تسميتها، بالمحاكاة الصَّوتيَّة، غولا-باو Gula-Bau.

في قصَّتَيْن قصيرَتَيْن باللغة الإيطالية - "حرَّاس كفر نابو" و"الذئب في الحكاية" - ليوسف وقَّاص، وهو كاتب متأصِّل ما بين التجوال والمواطنة، من حلب، يهدم هذه العتبة بين الإنسان والذئب، ويرسل إشـارة إنذار في شـكل حكاية خرافية. تجري أحداث القصَّـــة الأولى في بلاد ما بين الرافدَيْن في بداية التاريخ،

وتتَّصـف بطابع أسـطوري؛ والثانية تحدث في أوربا في المسـتقبل القريب والمروِّع. في كلتا الحكايَتَيْن الخرافيَّتَيْن، لم تعد "الكلاب الأهلية" جزءاً من المجتمع البشـــري للمدينة، بل الذئاب. ولكنْ، الذئاب، "الكلاب الخارجية"، التي أصبحت الآن بمفارقات متناقضة "آكلة لحوم أهلية": دخل الـ "أور UR" إلى المدينة، لكنه بقي ذئباً، ويعيش وجوداً عامَّاً متناقضاً.

إن إظهار استذئابية المجتمع بهذه الطريقة هي محاولة شاعرية لمعارضة التاريخ، أي إظهار تشوُّهات المدينة، جميع المُدُن، وبالتالي الدولة؛ ففي الدولة، وليس في الذئب، يكمن احتمال وقوع الكارثة.

مهما كانت نتيجة الوباء الحالي من وجهة نظر طبِّيَّة، نرى في العديد من الجوانب، إن ما يحدث هو تحذير ويُعبِّر عن الحاجة المُلحَّة لتغيير كلِّ شـــيء، لأن ثمَّة أخطاراً أخرى تلوح في الأُفق، مثل تلك المتعلِّقة بالبيئة وبالأسلحة النَّوويَّة، حيثُ تبعاتها أخطر بكثير من تبعات الفيروس التَّاجيِّ.

من أجل أمننا، وليس من أجل عالَم أفضـل وأكثر عدالة، نحن مضـطرُّون الآن للتفكير في الحاجة إلى التَّخلِّي

عن الدولة مع قلبها النابض، أي الممتلكات. كما أننا مضطرُّون للتفكير في بديل وإنجازه بما ملكت أيدينا. يمكن أن تسـاعدنا التكنولوجيا والأبحاث على تمثيل الضـرر والمخاطر التي يمكننا الاسـتحواذ عليها من خلال الاختيارات التي نتقاسمها مع الآخرين. لكنْ، للقيام بذلك، فمن الضَّروريِّ توجيهها إلى حيثُ تشتدُّ الحاجة إليها، أي إلى المجتمع ككلٍّ. بهذه الطريقة فقط يمكننا ربَّما أن نفهم ما إذا كنَّا نســـتطيع بناء نظام ديناميكي قوي تفاعلي وتمثيلي: الأناركية الاصطناعية.

حرَّاس كفر نابو

نُشرت قصَّة "حرَّاس كفر نابو" باللغة الإيطالية في عام (****)٢٠١٠، وهي قصَّة صراع بين حارس وذئب، تجري أحداثها على وجه التحديد في كفر نابو، قرية صـغيرة تقع في محافظة إدلب الحالية، على بُعد ٣٠ كم غرب حلب، ولكنْ، في الزمن الأسطوري للقصَّـة، هي مدينة مكتظَّة بالسُّكَّان، ومزدهرة في الإمبراطورية الآشورية التي يعمل سُكَّانها في الزراعة والتجارة.

يتواجد الموقع الأثري لكفر نابو في منطقة ما يُسـمَّى "المُدُن الميتة"، وهي مجموعة من المسـتوطنات تقع في هضـبة جيرية في سـوريا، منطقة تنتشـر فيها التلال التي أُسْتُوْطِنَت فعلياً على الأقلِّ منذُ زمن الآشـوريِّيْن. الاسـم المُوحِش لهذه المجموعة من المُدُن مردُّهُ إلى حقيقة أنه تمَّ التَّخلِّي عنها لمدَّة عشـرة قرون على الأقلِّ، بسـبب التَّصـحُّر المرتبط بأنشـطة الإنتاج وموجات الوباء المختلفة التي تَلَتْ طاعون جوستنيان(*****).

لا يخبرنا الكاتب يوسف وقَّاص في أيِّ حقبة تحدث هذه القصَّـة، إلَّا أن السياق الآشوري والمكان الذي تجري فيه أحداثها، تُومِئ إلى أنه يمكن تخيُّلها في الفترة ما بين الألفية الأولى والثانية قبل الميلاد. هذا يعني أنه مرَّت آلاف الســـنين منذُ التَّخلِّي عن حياة الرُّحَّل وولادة ما أطلق عليه العلماء "أولى" تجارب التَّحضُّـر في العصـر الحجري الحديث في غرب آسـيا، مثل أريحا في فلسـطين أو تشـاتال هويوك في وسط الأناضول. وقد مرَّت آلاف السنين منذُ بداية العصر البرونزي مع ولادة ما يمكن تصوُّره بدلاً من ذلك كمُدُن حقيقية، مثل أوروك، حوالي ٣١٠٠ قبل الميلاد.

إنها فترة من التغيير، لا رجعة فيها حتَّى الآن، حيثُ تنصـقل فيها تِقْنِيَّات العصـر الحجري الحديث في الزراعة وتربية المواشـي، وتلتف حول مركز تنظيمي (المعبد/ أو القصـر) حيثُ تُجمَع وتُخزَّن فوائض المحاصـيل. هنا نرى، لأوَّل مرَّة في التاريخ، حكومة وموظَّفين إداريِّيْن متخصِّـصـين، وتسـلسـلاً هرمياً اجتماعياً، يدور حول المحور الأساسي لتحصيل الضرائب، وبالتالي، بشكل أساسي حول الحبوب.

كانت الحبوب في بلاد ما بين النهرَيْن، تعني بالأساس القمح، وقبل كلِّ شيء الشعير، وذلك بسبب المناخ. هذه المحاصيل مثالية للدولة، لأنها تسمح بنظام الضرائب، كما يشير جيمس سكوت في كتابه "أصول الحضارة"(******) (كما ورد في الترجمة الإيطالية الصادرة عن دار نشر إنياودي ٢٠١٨) أي أن الحبوب مَرئيَّة، قابلة للتجزئة، قابلة للتقييم، قابلة للتخزين وللنقل، وعلاوة على ذلك، يتمُّ جَمْعُهَا في موسم محدَّد. هذا يعني أن جابي الضرائب يمكن أن يظهر في تلك الفترة لطَلَب الجزء المفروض، لنقله إلى صوامع الدولة.

على الرغم من مرور عدَّة آلاف من السنين منذُ ولادة الدولة - المدينة في زمن وقائع هذه القصَّة، إلَّا أن البنية الأساسية للدولة التي تجري فيها أحداثها لم تتغيَّر. بالإضافة إلى ذلك، كانت الثقافة السُّومريَّة، في زمن القصَّة، لا تزال على قيد الحياة - وستظلُّ لفترة طويلة - في الأساطير التي تتغلغل في جميع غرب آسيا. الخبز في هذه الثقافة هو العلامة الأساسية للحضارة.

المَلحَمَة السُّومريَّة لملك أوروك جلجاميش - كائن، ثلثاه إله، وثلثه إنسان - هي شهادة واضحة في هذا السياق. لقد تمَّ خَلْق إنكيدو من قبَل الآلهة من أجله، وهو صديق يتمكَّن من مساندته بقوَّته، ويصرفه عن الغطرسة المفرطة التي يمتلكها تجاه رعاياه، "الأنا الأخرى" التي تعارضه: وجهه الآخر. جلجاميش، في الحقيقة، كائن في منتهى الجمال، أنيقٌ ومنمَّقٌ، وكونه ملكاً، يمثِّل قلب المدينة نفسها؛ بينما إنكيدو يكسوهُ الوبرُ، وله شَعْرٌ طويل وفضفاض ("مثل المرأة")، وفوق كلِّ شيء، بعيد عن المدينة تماماً، فهو يأكل العشب مع الغزلان، ويشرب الحليب الذي يرضعُهُ من الحيوانات البرِّيَّة. لا يتغذَّى على اللحوم، بل على العكس، يدافع عن الحيوانات من الصَّيَّادين، الذين يودُّون التَّخلُّص منه، ولكنه أقوى من أن يجابهوه.

يجد أحد الصَّيَّادين خدعة، ليُمَدِّنَهُ (أو، ربَّما، من الأجدر القول ليُدجِّنَهُ)، فيحثُّه على إقامة علاقة جنسية مع عاهرة مقدَّسة في معبد عشتار، إلهة الحُبِّ والحرب، حامية مدينة أوروك: شَمْحات (أي "اللذيذة"). بعد سبعة أيَّام من الحُبِّ مع امرأة متحضِّرة، "ينسى إنكيدو المكان الذي وُلِدَ فيه"، وتنبذُهُ الوحوش، فلا يتبقَّى له سوى العودة إلى شَمْحات التي تطلب منه أن يأتيَ معها إلى أوروك، حيثُ يمكنه أخيراً أن يجدَ "كرجل" مكاناً لنفسه. قبل وصوله إلى المدينة، تقوده إلى مخيَّم، حيثُ يُقدِّم له الرعاةُ الخبزَ والبيرةَ، إلَّا أن هذه الأشياء تبدو لإنكيدو غير مفهومة، لذلك يجب على الرعاة أن يشرحوا له كيفية تناوُلها.

تروي مقدّمة مَلْحَمَة إنانا الشِّعْرِيَّة، جلجاميش والعالَم السُّفليّ "العصور القديمة، عندما ظهر كلُّ شيء إلى النور"، ومن المهمِّ ذِكْر الحَدَث الأساسي المتمثِّل بفَصْل السماء عن الأرض، وحتَّى قبل أن نقول إن "بذرة الإنسانية كانت قد وُضِعَت في الكينونة"، يجب الأخذ بالاعتبار أن "الخبز قد تمَّ تذوُّقُهُ"، و"أُضرِمَت النار في فرن القرية"(*******).

في الواقع، لمئَتَي ألف عام - حيثُ يمكننا تتبُّع أصل الإنسان الحديث Homo Sapiens- عاش البشر بدون خبز، وبدون دولة. كانوا صيَّادين وحاصدين رُحَّلاً، يتنقَّلون في مجموعات صغيرة، وتسود فيما بينهم مساواة معيَّنة. كانوا يتمتَّعون بحياة أفضل بكثير من حياة المزارعين من حيثُ النظام الغذائي والصِّحَّة والترفيه. واستمرَّ هذا ينطبق على معظم البشر الذين عاشوا خارج أبعاد المدينة. وبدلاً من ذلك، اعتمد النظام الغذائي رعايا الولايات الأولى على الحبوب. وإلى يومنا هذا، فإن الذرة والأرز والقمح والشعير يُشكِّلون أهمَّ مصدر للسعرات الحرارية للبشرية.

لم تكن المشاكل الصِّحِّيَّة لمواطني المُدُن القديمة تتعلَّق بالتغذية فقط. الأمراض حيوانية المنشأ، أي الأمراض المُعدية التي تنتقل عن طريق الحيوانات إلى البشر، تصبح، مع التركيز الدِّيمغرافيِّ، أوبئة. بالتالي، الدولة والمرض يرتبطان ارتباطاً وثيقاً، إلَّا أن هذا الارتباط ليس بنيوياً، كما هو الحال في

تحصيل الضرائب أو السيطرة على الأراضي، ولكنه عَرَضِيٌّ. إذنْ، المرض يصبح مُنتَجَاً ثانويَّاً غير مرغوب فيه لدى الدولة.

علاوة على ذلك، من بين المنتجات الثَّانويَّة غير المرغوب فيها - خاصَّـــة من قبَل غالبية السُّــكَّان - يجب، أيضـاً، إضـافة الفقر والمجاعة. كلُّ هذا يخلق ما يعتبره المؤرِّخون نوعاً من المفارقة. كان معدَّل الوفيات في المُدُن مرتفعاً جدَّاً، بحيث لم يكن نموذج المدينة مُســتدَاماً، وفي الواقع تمَّ التَّخلِّي عن العديد من المُدُن القديمة. خلاف ذلك، كانت هناك حاجة إلى معدَّل هجرة مرتفع (ممَّا يعني أحياناً الغزو) للحفاظ على توازن ديمغرافي هشٍّ. يجب أن لا ننســى أن العبودية نشــأت من خلال الحروب، ولم تكن الهجرة، بالطبع، هي الطريقة الوحيدة، لأن اقتصاد العصور القديمة كان يعتمد، في الأساس، على الرِّقِّ.

صــورة الحياة في حالة الطبيعة بأنها "وحيدة، بائسـة، غير ســارَّة، وحشــية وقصــيرة"، كان قد تخيَّلها توماس هوبز في كتابه "ليفياتانو Leviatano" أو في "حرب الجميع ضـــدَّ الجميع"، حيثُ (كما بين أعداء في مُدُن متنافســـة) كلُّ "رجل هو ذئب الرجل" نســـبة إلى مواطنه (De Cive)(********) وبالتالي يجب عكس الأمور تماماً. كانت الحياة في الدولة هشَّــة، حياة ممتدَّة في عالَم شــاســع قائم على الترحال. لا ينبغي أن ننسى أنه في بداية التَّحضُّـر، كان عدد سكَّان العالَم حوالي ١٨ مليون نسمة، من بين هؤلاء، عاش ٠. ١٪ فقط في المدينة. في منطقة غرب آسيا القديمة، كانت هذه النسبة أعلى بالتأكيد، لكنها لم تتجاوز ٠. ٣٪: قطرة في محيط. ٤

***

في هذه القطرة يصـبُّ وقَّاص محيط رؤيته، فيقلب التاريخ في إحداثياته الأسـاسـية، ويظهر لنا المنطق المشوَّه الذي تُولِّده المدينة في نفسه. كفر نابو في الواقع محروسة، كما كان يحدث بالفعل في جميع مُدُن آسـيا القديمة، بواسـطة الحاميات. نفس إنكيدو، شــخصــية من مَلْحَمَة جلجاميش، بعد أن تمَّ "تدجينه"، يصبح حارساً.

ومع ذلك، يحدث انعكاس جذري في حكاية وقَّاص. في الواقع، يتمُّ تعيين حصـــان لكلِّ حارس و- للمفارقة - ذئب أيضاً. الذئب الذي يصبح بالتالي حليفاً في هذه المهمَّة، حيثُ يلعب خلالها دور العدوِّ. لا يصــــبح "أور. جير UR. GIR"، يبقى "أور. بار. را UR. BAR. RA"، حتَّى لو كان يؤدِّي دور "أور. جير UR. GIR". هذا الانعكاس يؤكِّده حقيقة أن الذئب، بموجب قرار مَلَكِيّ، كان يجب أن يكون له "نفس اسـم الحارس": نوع من انفصـام المسـتذئب، حيثُ يصـبحان هنا زوجاً: لم يعد الرجل - الذئب، بل الذئب والرجل.

اســم هذا الكائن المزدوج هو نابوســـتار Napostar، وهكذا هناك "الرجل نابوســـتار" و"الذئب نابوستار". الجزء الأوَّل من هذا الاسم "نابو"، هو إشـارة واضـحة إلى المدينة، كما سنرى، وإلى الإله الذي يحميها. الجزء الثاني من الاسـم - "سـتار" - يطرح بعض المشـاكل في التأويل. الجذر *سـتر str هو بالتأكيد سامي، ويعني في العبرية، على سبيل المثال، "الاختباء". من ناحية أخرى، لا يوجد أيُّ أثر لهذا الجَذْر سـواء في الأَكَّاديَّة، أو في صـيغته المنطوقة في شـمال بلاد ما بين الرافدَيْن، الآشـوريَّة. ومع ذلك، هناك فرضية اتِّصال محتمَل مع الآرامية القديمة شيترو šitru "نسيج"، وهو ارتباطٌ أقلُّ غموضاً، إذا أخذْنا بعين الاعتبار الجذر العربي ستر، أي "اختبأ"، ولكنْ، أيضاً "غطَّى"، وأخيراً "حمى".

لذلك فإن نابوستار هو الحامي، أي حارس كفر نابو. مكان غريب. يشير مصطلح كفر (من الجذر كفر kfr الذي له معاني متعدِّدة في اللغة العربية، والذي يُردِّد صـدى خبَّأ أيضــاً) إلى القرية. يوافق الأَكَّاديَّة في ذلك، بالنَّظَر إلى أن القرية هي كابرو kapru، وهي كلمة تعكس، بدورها، الكلمة السُّـومريَّة أورو.

بار. را URU. BAR، RA، حيثُ أورو URU هي "المدينة"، وبالتالي أورو. بار. را هو "خارج المدينة"، إنما ليس كمكان برِّيٍّ، ولكنْ، كـ "محيط" أو "ريف".

إذنْ، كفر نابو هي قرية (أو محيط) الإله نابو. تلك التي تُوصَـــف في القصَّـــة على أنها مدينة مكتظَّة بالسُّـكَّان، ويبلغ عدد سُـكَّانها مائة وعشــرين ألف نسـمة (أي قابلة للمقارنة مع أور أو نينوى في أوج ازدهارهما)، بينما هي، في الواقع، قرية، منطقة ريفية. بالطبع، يبيِّن الكاتب أن ما كان في يوم من الأيَّام مدينة أصبح اليوم قرية. ولكنْ، يجب ألَّا ننسى الزمن الذي يحدث فيه السَّرْدُ: مدينة الماضي هي، في اسمها، قرية الحاضر. إذنْ، الحارس يحمي مدينة/ قرية مستحيلة بين الماضي والحاضر.

ليس مسـتحيلاً فحسـب، بل رمزياً أيضـاً. كانت كفر نابو بالفعل، تاريخياً، مركزاً يُبجَّل فيه الإلهُ الذي يرأس إحدى الخصائص الأساسية للدولة: الكتابة.

ابن إله الحكمة مردوخ، لطالما اعْتُبِر نابو كاتباً إلهياً، وحَظِيَ مع مرور الوقت أهمِّيَّة متزايدة، كما لو أن ثقافة بلاد ما بين النهرَيْن قد فهمت باطِّراد زخمَ ابتكاره. الملك، الذي غالباً ما يكون غير قادر على القراءة والكتابة، أصبح يعتمد بشكل متزايد على الكاتب، وبالتالي يصبح نابو إله الحكمة السَّماويَّة. في بداية الألفية الأولى قبل المسيح، حلَّ نابو مكان أبيه، حتَّى إنه أصبح "عميد الآلهة"؛ وانتشرت عقيدته في سوريا ومصر والأناضول.

نابو، في بعض إصدارات الأسطورة، زوج نيسابا آلهة التَّعلُّم والكتابة والحصاد. أي نعود إلى العلاقة الأساسية التي تتفرَّع عنها الدولة: الخبز، وبالتالي الضرائب. رابط يتمُّ التأكيد على قوَّته أيضاً من خلال حقيقة أننا يجب أن ننتظر نصـــف ألفية من ابتكار الكتابة - الذي حَدَثَ حوالي ٣٢٠٠ قبل الميلاد في مدينة أوروك - قبل رؤيته يُستخدَم لأغراض لا تتعلَّق مباشرة بإدارة الدولة وممتلكاتها، أي الأدب. تعود النسخ الأولى لمَلْحَمَة جلجاميش إلى حوالي ٢١٠٠ قبل الميلاد.

في هذه المدينة المسـتحيلة والرَّمزيَّة، يبزغ تهديد في قصَّـة وقَّاص: ثمَّة هزَّة أرضـية مُقلِقَة، لا يُعرَف مصـدرها. بالنسـبة إلى الرجل نابوسـتار هو زلزال، وبالنسـبة إلى الذئب نابوسـتار هو غزو "جحافل ضخمة Imponente Orda". يجب التنويه أنه إذا كان وقَّاص، ككاتب يعيش بين الإيطالية والعربية، وكرجل ثنائي اللغة، العربية والتُّركيَّة. "أوردا Orda" كلمة إيطالية مشتقَّة من التُّركيَّة "أوردو Ordu" (حيثُ لا تزال تعني "جيشاً") ترتبط بالرُّحَّل، أي بالتهديد اللَّاعنفيِّ للمدينة المستقرَّة: البرابرة.

كلمة بربري لها صـــدى بنفس المعنى في العديد من لغات العالَم، على ســبيل المثال: Barbarian (باللغة الإنكليزية)، Barbar (باللغة الألمانية)، Bàarbaro (باللغة الإســبانية)، Barbare (باللغة الفرنســية)، Barbariyyat (باللغة الفارســية)، بربرية (باللغة العربية) وBarbara (باللغة السَّنسكريتيَّة). لا تزال هذه الحقيقة تُفسَّـر بشـكل شـائع مع Bàrbaros اليونانية. قد تكون هذه الكلمة عبارة عن المحاكاة الصَّـوتيَّة التي يُقلِّد فيها الصـوت "bar-bar" شـيئاً غير مفهوم، أي اللغة اليونانية التي يتلعثم بها الأجنبي، كما تبدو في أُذن المتحدِّث الأصلي.

إنه مصطلح من أصل يوناني - روماني حيثُ، في عام ١٩١٣، حذَّر عالم اللغة الألماني إرنست فيدنر عدم الثقة به. وبدلاً من ذلك، اقترح فيدنر النَّظَر إلى السُّومريَّة "BAR"، وهومصطلح أصبح الآن أكثر مـألوفـاً للقـارئ(********). هـذه الفرضـــيـة تمَّ تنـاولهـا مؤخَّراً من قِبَـل عـالم اللغـة دومينيكو ســيلفســتري(********) على وجه التحديد على أســاس "UR. BAR. RA" ("ذئب") و"URU . BAR. RA|" ("مدينة")، وقبل كلِّ شــيء، على أســاس "NU. BAR. BAR. RA"، أي الإنســان (NU) المتطرِّف، أي أجنبي تماماً، حيثُ "BAR. BAR"، من خلال تكرار الصـــفة "BAR"، هي درجته الفائقة، أي "غريب جدَّاً".

ضـــمن نطاق هذه الأنثروبولوجيا العميقة، ليس من المســـتغرب أن كلمة "Barbaru" تعني في اللغة الأكادية "الذئب"، وهو ما يقابل "ببر" (النمر) في اللغة العربية. لا يزال في العربية المشـــرقية برّه "Barra" تعني "خارج". وأُغنيَّة رشـــيد طه الشـــهيرة "Barra barra" ("برّه، برّه") - تحوَّلت إلى نشيد ضدَّ احتلال فلسطين، وفي الوقت نفسه، تمَّ استملاكها من السينما الغربية في فيلم ريدلي سكوت "Black Hawk Down" (٢٠٠١) - لتظهر مدى قوَّة هذه الكلمة القديمة.

صراع الإنسان والذئب: منطق الأسواء

في هذه الأثناء، في القصَّـــة، يتحوَّل الخلاف بين الإنســـان والذئب إلى صـــراع حقيقي، حيثُ يحاول الحصـــان أن يكون وســـيط ســـلام بينهما، إنما دون جدوى. لكن الصـــراع لم يدم طويلاً. كان الذئب على حقٍّ: الغزاة قادمون، تصحبهم صرخات و"تحريضات، تقشعرُّ لها الأبدان". عند هذا الحَدِّ، يطلق الذئب نابوستار نداء الإنذار"بعواء، لم يُسمَع له مثيل من قبل"، بينما الرجل نابوستار يرمي نفسه في المَعْمَعَة، ويُقتل خلال المعركة. تصـل التعزيزات، وبعد معركة اسـتمرَّت أربعة أيَّام وخمس ليال، يسـتسـلم قائد الغزاة. لقد أُحبطت الكارثة بفضل الذئب، والمدينة آمنة. بشكل غير متوقَّع، يتمُّ تقديم الذئب للمحكمة.

وهكذا يتمُّ إدخال أحد العناصـــر المكوِّنة للدولة: القانون. هذا العنصـــر بدوره يعتمد بشـــدَّة على الكتابة، ولكنه لا يتطابق معها لسبَبَيْن على الأقلِّ: الأوَّل هو أنه إذا كان صحيحاً أنه يمكننا الحصول على القانون الشَّفويِّ (أمثلة القانون العُرْفي لا تُعدُّ ولا تُحصى)، فمن الصحيح أيضاً أنه من الصعب أن نتخيَّل أن هذا القانون يمكنه التعامل مع المواقف المعقَّدة. أمَّا السـبب الثاني، وربَّما الأقلّ بديهية، فيتعلَّق بضـــرورة أن يكون لدى الدولة نظام لتمثيل المعرفة، والذي لا يتعلَّق بالتأكيد بالقانون فقط، ولكنه ضـــروري لوجوده. لإدارة نظام سياسـي اقتصـادي، لا يكفي تسجيل المبلغ المستحقِّ. هذه الحاجة ليست نَظَرِيَّة، بل عملية، وبالفعل:

تنتمي النصـــوص غير الاقتصـــادية للعصـــر القديم إلى فئة أخرى، ويمكن اعتبارها ســـابقة لقواميســـنا الحديثة. في الواقع، ما يُســـمَّى ببســـاطة "القوائم"، كان يتمُّ دَمْجُ جميع المفاهيم المتعلِّقة بفئات معيَّنة من المعنى. وهكذا نعرف قوائم الحيوانات مرتَّبة حسب الأنواع، والمنسوجات، والأشياء المعدنية وأسماء المُدُن، التي كانت تحاول تشكيل صورة للعالَم المعروف آنذاك(********).

التســـجيل لا يتوقَّف عند الخبز، أي عند القمح، بل يمتدُّ إلى كلِّ شـــيء يحتاجه المجتمع المنظَّم هَرَمِيّاً، الذي يزداد تعقيده وديموغرافيته. للقيام بذلك، هناك حاجة إلى نظام الفئات، لُبِّ تمثيل المعرفة. أي هنا تبزغ مشكلة التمثيل، وهي ليست مجرَّد نَظَرِيَّة معرفية، ولكنها عملية، أي اقتصادية - سياسية.

الدولة، في الواقع، تطلب ما هو مســـتحقٌّ، لكن القوَّة وحدها ليســـت كافية. لا يمكن لأيِّ نظام تســـجيل، حتَّى لو كان مزوَّداً بالفئات، أن يكون في مأمن من المواقف المثيرة للجدل. يمكن التفكير، على ســـبيل المثال، في التعقيد الناتج عن حالات انتقال الميراث أو فســـخ العقود. لذلك يجب أن يكون التمثيل مُدمَجاً بنظام قواعد، يسمح بإدارة هذه الحالات. قواعد تحتاج بدورها إلى تمثيل.

لذلك تحتاج الدولة إلى نظام قانوني، يتطلَّب بدوره الحاجة إلى شخصيات لاتِّخاذ قرارات بشأن القضايا المثيرة للجدل: القضـاة. تجتمع الفئات والقواعد للسماح بإدارة تعقيد العلاقات والحقوق والواجبات ونفس القواعد والقرارات الموجودة في المجال القانوني. لذلك ربَّما ليس فقط عن طريق الصـــدفة التَّاريخيَّة أن جزءاً كبيراً من اللُّقى المسمارية للشرق الأدنى القديم تتألَّف، بشكل مباشر أو غير مباشر، من الخطابات القانونية.

تتكوَّن العملية الفلسفية العميقة التي يقوم بها وقَّاص في هذه المرحلة في تلاحُم ثلاثة عناصر: القانون، التناقضات داخل نفس القانون والكارثة، أي "النجم الذي لا حَدَّ لَهُ"، من خلال ما يمكن أن نُسمِّيه منطق الأسوأ.

الذئب يُحاكَم بأمر من الملك. ملك يبدو، على عكس جلجاميش، ضعيفاً إلى حَدٍّ ما. يرجع قراره في الواقع إلى ضغط محكمته، وهي أيضاً ضعيفة، نظراً لأنها تخشى فقدان موافقة شعب يريد، بشكل غير مفهوم، الانتقام من الذئب ("فلنقطعْ ذيلَهُ!" تُسمَعُ الصرخات في أثناء المحكمة التي يحضرها الشعب).

في البداية، ليس من الواضح حتَّى بماذا يُتَّهم الذئب. بالطبع، نحن نعلم أن نابوستار الرجل قد مات، لكننا نعلم، أيضاً، أن الناس أنفسهم قد علموا من قبل حصان نابوستار الرجل كيف سارت الأمور: هاجم الذئب الرجل، لكي يتمكَّن من إطلاق الإنذار. يبدو أن سبب هذا التَّعطُّش للانتقام، وَفْقَاً للشعب، هو تمرُّد الذئب. أي أن الذئب يجب أن يكون كلباً، أن يدافع عن الإنسان دون أن ينقلب عليه، حتَّى عندما يتعلَّق الأمر بإحباط كارثة.

إنما سبب انعقاد المحكمة للنَّظَر في القضية مختلف. النقطة هي أن الذئب خالف أوامر الملك. ثمَّة قاعدة تنصُّ على أنه يجب أن يكون هناك اتِّفاق بين الحارس والذئب. إذا كانت مهمَّة الذئب والإنسان الدفاع عن المملكة معاً، فمن الضَّروريِّ ألَّا يكون هناك صراع بينهما.

وعندما استجوبتْهُ المحكمة، شرح الذئب انتهاك هذه القاعدة بسبب حالة الطوارئ:

"حسناً، أيُّها المتَّهم!"، تابعَ رئيس المحكمة بحزم: "ماذا كنتَ تقول؟".

"كنتُ أقول إن الخلاف قد نَجَمَ من تقسيم المهامِّ التي حدَّدها جلالة الملك في عام الثلج الكبير".

"أفهم ذلك، لكن الأوامر المَلَكِيَّة لا يمكن أن تكون مثار خلاف".

"صحيح"، أومأ الذئب برأسه: "كان الأمر يتعلَّق بمصير المملكة، ولم أستطع البقاء غير مُبالٍ"(********).

تكمن المشكلة في أن الأمر الذي يفرض الاتِّفاق بين الإنسان والذئب يبدو في الظاهر متَّزناً فقط، لأنه يتعارض مع المعنى نفسه لتقسيم المهامِّ بينهما، أي إمكانية التَّحكُّم بشكل أكبر في الوضع، وبالتالي حماية المدينة بشكل أفضل، وهي مهمَّة عُهدت إلى الرجل والذئب معاً. باختصار، أربعة عيون ترى أفضل من عينَيْن، ويمكن لأيِّ اعتراض محتمَل أن يكون حاسماً لـ "مصير المملكة". لقد تمَّ الكشف عن تضارُب في النظام القانوني للمملكة.

يتدخَّل الحصان دفاعاً عن الذئب، ويذود عن مبدأ، يبدو أن القوانين، في تلك المملكة، لم تتطرَّق إليه: منطق الأسوأ. إذنْ، كان الذئب محقَّاً.

"لأن القرار الذي يُنظِّم العلاقة بين النفوس الصالحة والسَّيِّئة واضح جدَّاً".

"أي؟"

"أي أنه، في حال الخلاف، فإن الروح السَّيِّئة يبرِّرها حساب الأسوأ".

استشار الرئيس باقي أعضاء المحكمة، ثمَّ سأل: "مَنْ كان يؤازر الأسوأ؟".

"الذئب بالطبع"، ردَّ الحصان مبتسماً.

"آه!"، صاح الرئيس، "لماذا؟".

"لأن هذه هي وظيفته"، أجاب الحصان بنبرة واثقة، ولقول الحقيقة، حتَّى لو كان ذلك من قبيل السخرية.

"هذا صحيح ... هذا صحيح"، وافق رئيس المحكمة؛ ثمَّ قال بصوت منخفض لأعضاء المحكمة: "أخشى أننا يجب أن نُبرِّئ الذئب"(********).

الذئب بريء، لأنه فكَّر بالأسوأ. الأسوأ من ذلك أنه في هذا الظرف يتَّخذ نغمة شجية، بالنَّظَر إلى أن الأفضل كان يمكن أن يكون هو الزلزال. ولكنْ، في الواقع، هناك مغزى مهمٌّ بأن الأسوأ هو الغزو. لا يوجد دفاع ضدَّ الزلزال، في حين يمكن التَّصدِّي للغزو.

لكي يحميَ المرء نفسه من الأحداث المتطرِّفة، مهما كانت نادرة، من الضَّروريِّ اعتبار أن سيناريو الأسوأ يجب اعتباره كأفضل الفرضيات. تؤكِّد سخرية الحصان على الوضوح القاطع لهذا المنطق ويبدو أنها تُذكِّر المحكمة بالسبب نفسه التي تمَّ من خلاله إسناد دور حراسة المدينة للذئب. أنثروبولوجياً، لا يمكن إلَّا أن تكون للذئب روحاً سيِّئة فقط، أي أنه لا يستطيع التفكير إلَّا من وجهة نظر "النجم الذي لا حَدَّ لَهُ".

مثل تلك الحكاية عن الحيوانات التي تنتهي بنهاية سعيدة. أسباب الحصان قوية لدرجة أن المحكمة مُجبَرَة على تبرئة الذئب، رغم خشيتها من فقدان الإقرار العامِّ. الملك، أيضاً، يتقاسم خوفها حيثُ - مثل دونالد ترامب الذي يدعم في هذه الأيَّام الجماعات اليمينية المتطرفة المسلَّحة التي تحتجُّ على تلك الدول التي تستمرُّ في فَرْض الحَجْر الصِّحِّيِّ - ينحاز إلى الجمهور بينما المحكمة تنسحب لتداوُل إصدار الحُكْم.

الناس، إثر براءة الذئب، يُغيِّرون رأيهم بشكل مدهش. تنتهي القصَّة في الواقع بإدخال تقليد جديد. ومنذ ذلك اليوم، أخذ أهل كفر نابو يطلقون اسم "نابوستار" على المولود الجديد، لتذكير الأجيال القادمة بمبدأ أساسي لإحباط الكوارث، "على أمل أن يبقوا في السَّيِّئ، ويتجنَّبوا الأسوأ".

أطروحة أغامبين

ضدَّ منطق الأسوأ، أطلق جورجيو أغامبين نفسه مؤخَّراً بقوَّة شديدة، ويبدو أن نجمه، بعد تصريحات "الإنكار" حول جائحة الفيروس التَّاجيِّ الحالية، قد خبا لدى الكثيرين:

الأمر يتعلَّق ليس أقلَّ من خَلْق نوع من "الرعب الصِّحِّيِّ" كأداة لتنظيم ما تمَّ تعريفه على أنه سيناريو لأسوأ قضية. ووَفْقَاً لمنطق الأسوأ هذا، أعلنت منظَّمة الصِّحَّة العالَمية في عام ٢٠٠٥ "أنه ستكون هناك من مليونَيْن إلى ١٥٠ مليون حالة وفاة بسبب إنفلونزا الطيور على الطريق"، ممَّا يوحي إلى استراتيجية سياسية، لم تكن الدول مستعدَّة لقبولها في ذلك الوقت(********).

أعتقد أن ما يصفه أغامبين في منطق الأسوأ هو بدلاً من ذلك مجرَّد خطاب بلاغي للأسوأ. لو كان بالفعل منطق الأسوأ، لَمَا وصلْنا إلى هذا الوضع. بالطبع، من الصعب إجراء تقييمات ساخنة، ولكنْ، من الواضح بشكل متزايد أن بطء الرَّدِّ الصِّينيِّ، الذي جعل العدوى خارج السيطرة، كان بسبب القواعد المتضاربة، وبيروقراطيتها المحلِّيَّة كانت قلقة بشأن الحفاظ على الإقرار العامِّ، ليس تجاه الشعب، كما في هذه الحالة، بل تجاه السلطة المركزية.

منطق الأسوأ لم ينتصر، ظلَّ النظام في البداية خاملاً في هيكله، غير مُدرِكٍ للخطر الوشيك. في اللحظة التي خرج فيها الموقف عن السيطرة، اتَّخذ ردَّ فعل الدولة نفسه نمطاً فعَّالاً.

***

في الواقع، بعد وباء السارس عام ٢٠٠٣، خطَّطت الحكومة المركزية بعناية لاستجابة متماسكة. لذلك في عام ٢٠٢٠، تمكَّنت من استغلال "مزايا" النظام الاستبدادي لإبقاء الفيروس تحت السيطرة، ضمن حدودها. منطق الأسوأ يفرض نفسه بعد فوات الأوان، وفي هذه المرحلة تصبح حالة الاستثناء حَتْمِيَّة، مع عواقب وخيمة على الحُرِّيَّات الفردية، كما يشير أغامبين عن وجه حقٍّ.

كان هذا الإهمال في ردِّ الصــين، كما رأينا مراراً للأسـف، نموذجياً. في مواجهة التَّحدِّي، ورفضـت العديد من الدول، حتَّى ما يُســمَّى بالدول الدِّيمقراطيَّة، الاعتراف بها لفترة طويلة، فقط لإجبارها على منطق الأسوأ في
مواجهة العدوى والمستشفيات المزدحمة.
أغامبين لديه موقف غريب تجاه البحث العلمي، فمن نـاحية، كان ردُّ فعله من خلال إنكار خطورة الفيروس(********)، معتمداً، في غالب الأحيان، على البيانات الإشــكالية، بالنَّظَر إلى الزيادة العالَمية في الوفيات مقارنة بالسـنوات السـابقة للوباء(********). ومن ناحية أخرى، بطريقة متناقضـة تماماً، يجادل بأن الاعتماد على البحث العلمي يشبه الاعتماد على الدِّيْن(********).
يبدو أن التكافؤ بين الدِّيْن والطِّبِّ هو نفس الخطأ - حتَّى لو كان بدلالة معاكســة - حيثُ حاول علماء الأنثروبولوجيا المركزية الأوربية في أوائل القرن العشـرين تفسير الدِّيْن أو السِّحْر بطريقة علمية، كما لو كانت هذه الأنشطة عبارة عن بحث ساذج عن التَّدخُّل الفعَّال في العالَم الطَّبيعيِّ.
تسـويغٌ قادَهُم إلى التعامل مع الدِّيْن والسِّـحْر، كما لو كانت تِقْنِيَّاتٍ، وليسـت ممارسـات اجتماعية، أي ببســاطة، كلُّ نشــاط نقوم به داخل المجتمع، كما يُلاحِظ لودفيج فيتجنشــتاين في كتابه "ملاحظات حول الفرع الذَّهبيِّ" لفرازر. يُلخِّص فيتجنشتاين هذا النوع من الأخطاء من خلال هذا المثال:
تقبيل صـــورة الحبيب. هذا، بالطبع، لا يعتمد على الإيمان بتأثير معيَّن على الشـــخص الذي تُمثِّله الصورة. فهو يميل إلى الرضا، وهذا الرضا يصل إلينا أيضاً. أو بالأحرى: لا يميل إلى شيء؛ بل نحن نتصرَّف على هذا النحو، لأننا نشعر بالرضا(********).
الخطأ هنا، في الواقع، معكوس: نحن نعتبر تِقْنِيَّة، كما الطِّبّ، ونشـــرحها من خلال الدِّيْن. وبهذه الطريقة، نبقى وحدَنا مع الاقتراحات التي يمكن أن تكون فيما يتعلَّق بما يفعله الدواء دون تقييمه، حيثُ يكون من الضَّروريِّ القيام بذلك، أي فيما يتعلَّق بفعاليته على صحَّتنا.
ومن ناحية أخرى، فإن منطق الأسـوأ لا يُجبرنا على ألَّا نكون مناصـرين للعلم، ولا مناهضـين للعلاقة المرتبطة بتقدُّم الطِّبِّ. إن البحث العلمي الذي لا يمكن الاعتماد عليه غالباً، إذا تمَّ تحليله بمعايير صارمة علمياً، لسـوء الحظِّ، مسـألة يجب أن نفكِّر فيها، كما أشــار مؤخَّراً يعقوب سـتيغينغا في العَدَمِيَّة الطِّبِّيَّة ("Medical Nihilism")(********)، حيثُ يؤكِّد أيضـــاً على النجاحات التي لا يمكن إنكارها مثل اختراع المضادَّات الحيوية أو الاستئصال الكامل للجُدَرِيِّ من على وجه الأرض.
يتغلغل هذا الغموض، بطبيعة الحال، في الجدل العلمي والمعرفي الحالي حول الفيروس التَّاجيِّ. في مداخلة على الموقع الإلكتروني للجَمْعِيَّة البريطانية لفلسـفة العلوم(********)، سـتيغينغا يرى أننا دخلْنا عصر "العلم السريع". لقد جعلت حالة الطوارئ المستمرَّة من سرعة البحث متشنِّجة بشكل متزايد، ممَّا أجبر العلماء على نشـر نتائج أبحاثهم دون إخضــاعها أوَّلاً لعملية التقييم من قبَل باحثين آخرين. والأمل أنه من خلال مشــاركة أكبر قدر ممكن من المعلومات مع مراكز الأبحاث الأخرى، يمكن تحقيق العلاج الفعَّال واللَّقَاح في أقرب وقت ممكن.
في ظلِّ مناخ عدم اليقين هذا، فإن القرارات السِّـــياســـيَّة التي يتمُّ اتِّخاذها في هذه الفترة تألو إلى مبدأ احترازي، والتي، بتأخيرها في الاستجابة للأزمة، لا يمكن أن يكون الآن سوى التوازن المستحيل بين الضـــرر الذي يمكن للفيروس أن يُلحِقَهُ بالمجتمع، والضـــرر الذي يلحق بالمجتمع بالبقاء في الحَجْر الصِّحِّيِّ.
***

يُقلِّل أغامبين من الخطر في محسوسيته، فإذا نظرْنا بالفعل إلى بحثه، يمكن العثور على أسباب ارتباكه، وربَّما يمكن فَهْمها. والواقع أن غالبية حالات الاستثناء التي تعامل معها ليست مُبرَّرة. خُذْ على سبيل المثال تفكيره الكامل حول ألمانيا النَّازيَّة: من المؤكَّد أن اليهود لم يكونوا أبداً تهديداً حقيقياً للدولة. أو النَّظَر في الظواهر الأكثر حداثة، مثل القيود على الحُرِّيَّات المَدَنيَّة من خلال حالات الطوارئ، والتي، في أحسن الأحوال، تتضخَّم إلى حَدِّ الكذب، كما هو الحال في الولايات المتَّحدة بعد ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١.

ومع ذلك، لسوء الحظِّ، هناك حالات مثل الحالة قيد التَّقدُّم - والتي نأمل أن تكون أقلَّ خطورة بكثير من النَّازيَّة - والتي يصعب التَّعرُّف عليها، وبالتالي، التَّصدِّي لها بشكل فعَّال. الأوضاع التي تفرض فيها حالة الاستثناء، بمجرَّد وجود الدولة، تفرض نفسها في جميع ضروراتها. الوباء هو بالتأكيد واحد منها. هذا، على عكس ما يعتقده أغامبين الآن، يُعزِّز الأطروحة التي تتخلَّل جميع تحليلاته الضخمة في Homo Sacer، وهي أن حالة الاستثناء هي وسيلة انغمست الدِّيمقراطيَّات من خلالها في مواقف شمولية. لأن المشكلة ليست في منطق الأسوأ، المشكلة هي في الدولة.

اعتاد الكثيرون مع أغامبين على التناقض بين حالة الطوارئ الحقيقية وحالة الطوارئ التي سادت في سياسات القرن الماضي، ممَّا أدَّى إلى الاعتقاد بأن تعسُّف الدولة هو نوع من الزيف. لكن التَّعسُّف مرتبط بالدولة، وهي حاجة منطقية، وليست عَرَضِيَّة، كما هو الحال مع المرض. من ناحية أخرى، فإن حقيقة تزامن الأزمة وحالة الطوارئ ليس بالأمر الجديد. لقد مرَّت، في الواقع، آلاف السنين، لكي نعيَ أن الحَجْر الصِّحِّيَّ هو وسيلة للوقاية، مدى حِدَّة العدوى(********). كان هذا واضحاً منذُ حضارات ما بين النهرَيْن. في نصٍّ قادم من قصر ماري، نقرأ عن مجموعة من الجنود المرضى يُقادون مخفورين إلى مدينة إيكالاتوم لعَزْلهم في معبد تحت تصرُّف الملك. بالإضافة إلى ذلك، سيتمُّ حَرْق دروعهم، وهو علاج وقائي محتمَل ضدَّ انتشار الوباء(********).

يُعلِمُنا الذئبُ أن معارضةَ منطق الأسوأ ليس مجرَّد محاربة طواحين الهواء، بل هو عمل انتحاري. في الواقع، أغامبين، الذي يزداد خلطاً، يلجأ إلى فرضية متطرِّفة، وهي أن الموت أفضلُ من قضاء حياة غير لائقة، محبوسين في المنزل، ومعزولين، من دون إمكانية التلاقي، وبالتالي، بدون أن يكونوا قادرين على ممارسة الوظائف الأساسية للمجتمع الحُرِّ(********). من ناحية أخرى، تَرْكُ الوباء لنفسه يُولِّد حالة طوارئ أكثر واقعية، وانهيار القانون، حيثُ الإنسان فيه "ذئب الإنسان"، وبالتالي التَّفسُّخ الاجتماعي anomia، وهي كلمة يونانية تعني حَرْفِيّاً "غياب القانون".

عالَم ديستوبي

يشير كارلو جينزبرغ في مقدّمة كتابه "إعادة قراءة هوبز اليوم"(********)، كيف أنه منذُ ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، تكرَّر اسم هوبز مراراً في التعليقات على الهجمات الإرهابية. ويمكن قول الشيء نفسه عن هذه الأزمة. يكتب دافيد رونسيمان، في الواقع، أن الوضع الحالي للحَبْس المنزلي يُبرِز جوهر السياسة نفسها: ممارسة السلطة، من قبَل الدولة، هي ممارسة سلطة الحياة والموت على مواطنيها(********). من وجهة نَظَر الدولة، بهذه الطريقة فقط يمكن تجنُّب البديل الكئيب لحرب الجميع ضدَّ الجميع.

يأخذ جينزبرغ الإرهاب بعين الاعتبار لإظهار أهمِّيَّة فكر هوبز، لكنه يكتب، قبل الوباء بوقت طويل، أن النموذج الذي كان هوبز يفكِّر فيه لتوضيح بؤس حالة الطبيعة، كان بالضبط حالة الطاعون، تلك اللحظة التي يخشى فيها من أن العدوى والموت يُهيمنان على الخوف، حيثُ إن الدولة، بسلطتها في الحياة والموت، تستطيع أن تمارسَهُ على مواطنيها.

يشير هوبز، وَفْقَاً لجينزبرغ، إلى وباء الطاعون الرهيب الذي ضرب أثينا عام ٤٢٩ قبل الميلاد بينما كانت في حرب مع إسبارطة، في الوصف المشهود الذي نقله المؤرِّخ اليوناني ثوسيديدس، في حرب البيلوبونيز.

لقد بدا وكأن العنف الوحشي للمرض قد أتلف المكابح الأخلاقية للرجال، الذين أمسوا فريسة لمصير مجهول، فتوقَّفوا عن الالتزام بالقوانين الإلهية وقواعد الرأفة الإنسانية. العادات التَّقَيَّة التي كانت حتَّى ذلك الوقت تُنظِّم الطقوس الجنائزية، انهارت أمام الإحباط العام. كان كلُّ واحد يقوم بالدَّفْن بقدر استطاعته، وتمَّ اختزال العديد من طقوس الجنازات بشكل مُخزٍ، بسبب ندرة التجهيزات الضَّرورِيَّة الناجمة عن العدد الكبير للوفيات التي ألمَّت بالأُسَر: كانوا يضعون جثَّة أحبَّائهم على المحارق المُعدَّة للآخرين، ويشعلون النار فيها قبل أن يعود المَلَّاك الحقيقي، بينما آخرون كانوا يرمون موتاهم على النار المشتعلة لشخص آخر، ويبتعدون بعد ذلك مباشرة(********).

لسوء الحظِّ، أكَّد علماء الآثار الوضع الفظيع الذي وَجَدَ فيه المواطنون الأثينيون أنفسهم، حيثُ تمَّ العثور بجوار مقبرة كيراميكوس في أثينا، على مقبرة جماعية، يعود تاريخها إلى أفظع فترة من الطاعون. ليس هذا فحسب، بل استخلصوا من أوضاع الجثث حالة من الذعر الشامل. إذا كانت الجثث الأولى قد تمَّ وَضْعُها بترتيب معيَّن، لكنْ، مع تفاقم الطاعون، كان ترتيبها يبدو فوضوياً تماماً، من دون وَضْع أيِّ طبقة من التراب بين الجثَّة والأخرى. ومن الطَّبيعيِّ أن يشتبه في أن جثث الناس الأشدّ فقراً، الذين لا يستطيعون دَفْن موتاهم بشكل لائق، قد تمَّ التَّخلِّي عنها في هذه المواقع بطريقة عشوائية(********).

كلُّ هذا يتوازى بشكل كئيب مع أمريكا هذه الأيَّام، حيثُ قَتَلَ فيه الفيروس من الأمريكيِّين، في الأشهر الثلاثة الأولى فقط من الوباء، أكثرَ من حرب فيتنام(********). أشير هنا إلى أفلام الفيديو التي تُصوِّر الدَّفْن في المقبرة الجماعية في جزيرة هارت في مدينة نيويورك. مشاهدة هذه الصور، شكَّل صدمة كبيرة بالنسبة إلى الكثيرين، ولم يتخيَّلوا أبداً أن يشاهدوا مقابر جماعية في أقوى دولة في العالَم، حيثُ يتولَّى السجناء دَفْن الموتى الذين ارتفعت نسبتهم في شهر نيسان/أبريل من معدَّل ٢٤ شخصاً في الأسبوع، إلى ٢٤ شخصاً في اليوم.

إذا ما أضفْنا إلى هذه الصور تلك الاحتجاجات المسلَّحة ضدَّ الحَجْر الصِّحِّيِّ، فمن السهل أن ندرك أن التَّفسُّخ الاجتماعي لم يعد جزءاً من كُتُب التاريخ، بل هو احتمال حقيقي نحن مُجبَرون على مواجهته.

***

في قصَّة "الذئاب في الحكاية"(********)، وهي قصَّة تعود لعام ١٩٩٦، وبالتالي تسبق "حرَّاس كفر نابو" بأربعة عشر عاماً، نحن في عالَمٍ محتمَلٍ ومستقبلٍ دِيْستُوبيٍّ قريبٍ. وقَّاص يجلب إلى أقصى حَدٍّ التَّفسُّخ الاجتماعي الذي يُجسِّدُهُ الذئب، وفي نفس الوقت، هنا أيضاً، يقلب الأمور رأساً على عقب. العنوان نفسه "الذئاب في الحكاية" يعلن صلة القرابة مع الصدفة والخوف والخرافة والتَّعدُّديَّة.

في المفرد، أي في شكل Lupus in fabula، هذا التعبير هو مَثَلٌ لاتينيٌّ شائعٌ الذي لا يزال يُستخدَم في اللغة الإيطالية، ويعني حَرْفِيَّاً "الذئب (Lupus) في (in) الحكاية الخرافية (fabula)". يتمُّ استخدامه عندما ينقطع الخطاب في اللحظة التي يصل فيها شخص نتحدَّث عنه، بمعنى مماثل، على سبيل المثال، في الإنجليزية "تحدَّث عن الشيطان". يبدو أنها مُستَمَدَّة من أن المرء عندما يفكِّر بلقاء الذئب، ينتابه الخوف، فيتوقَّف عن الكلام. وهناك مَنْ فهمه على أنه "إذا كنتَ تتكلَّم عن الذئب، فإنه سيحضر" (اذكر الذيب وأحضر القضيب)، وَفْقَاً لموقف خرافي، حيثُ إن استحضار شيء خطير في الخطاب يجعله يحدث(********). Fabula في اللغة اللَّاتينيَّة، تعني أيضاً حكاية خرافية، وعلاوة

على ذلك، "favola" و"fabula" يتشـابهان بالإيطالية. لذلك كلُّ هذا ربَّما يسـمح أيضـاً بما قد يكون تفسـيراً خاطئاً، وإن كان شـائعاً جدَّاً، أي ظهور الذئب، ومجازياً الخطر، في العديد من الحكايات الخرافية.

لكنْ، في هذه الحكاية الخيالية، هناك العديد من الذئاب. يبدأ السَّرْد مع رجل "عملاق"، الذي يقطع سيراً على الأقدام، وهو يدندن أُغنيَّة، طريق غير موجود، الطريق الإقليمي ١٣٦. لعلَّ من المفيد أن نذكر، دلالياً، أن الطريق الإقليمي الإيطالي الوحيد على الإطلاق الذي يحمل الرَّقْم ١٣٦، كان يقع في مقاطعة تسـارا Zara - جزء من كرواتيا الحالية - خلال الحقبة الفاشـية. والأُغنيَّة التي يدندنها العملاق، تنتمي إلى شِعْر نهاية العالَم:

"في بحر زحل البلسميّ، أوبْلاه! .. . أوبْلاه!

سَقَطَ النَّيزكُ المتوهِّج، أوبْلاه! النجومُ آمنةٌ، أوبْلاه! الأرضُ آمنةٌ، أوبْلاه! .. . "(*******)

هذه الرؤيا الغنائية تتوافق، في حقيقة الخيال، مع حالة الطوارئ. نحن في فصـل الخريف. لقد دُمِّر الجسر، ولا تزال الفيضانات مستمرَّة. يوجد على جانب الطريق أشجار سقطت مؤخَّراً. فقط حقول الذرة المجزوزة، على الرغم من صورة الخراب التي تجلبها معها، تقود الدمار إلى علامة حضارية متوقَّعة، أي النشاط الزِّراعيّ.

يتوقَّف العملاق أمام حانة، ويخلع قفَّازَيْه. يداه مَكسـوَّتان بقشـرة صـلدة من الدم. البقعة على راحة يده تضـايقه. هذا التَّهيُّج ليس بسـبب وجود الدم بحَدِّ ذاته، بل لأن البقعة هي الحَدُّ الفاصـل لقدرة الإنسـان المضطربة على التَّخيُّل:

اللطخة المدموغة على راحة يده، كان لها شـكل زرافة برأس مربَّع، وهو لم يعد يتحمَّلها، لأنه لا يستطيع تخيُّلها كشجرة أو بحيرة أو طائرة ورقية(*******).

تدخل الذئاب إلى الحكاية من خلال الإهانات التي تتبع إدراك هذا الحَدِّ، فيصـرخ العملاق "يا للذئاب القذرة!". مسار السَّرْد غير متناسق عمداً، وفي هذا نلمس صدى التَّضادِّ الذي يتخلَّل سِفْر الرؤيا ليوحنَّا الرسول في العهد الجديد. لم يعد التَّفسُّخ الاجتماعي ينحصر في الحياة العامَّة، ولكنه يتغلغل في مجرى الأحداث نفسها.

نحن نفهم أن تكون النبرة كارثية من مسار السَّرْد. كما هو الحال في سِفْر الرؤيا ليوحنَّا الرسول، فإن التناقض يتغلغل في السَّرْد نفسـه. (يمكننا الحديث عن كُتُب نهاية العالَم الأخرى بهذا المعنى، وليس في سِفْر الرؤيا ليوحنَّا الرسول فحسب). التَّفسُّخ هنا لا يكمن في القانون فقط، ولكنْ، في المنطق نفسه.

عندما يدخل العملاق إلى البار، يسـأله النادل إن كان جديداً على المكان، فيجيب العملاق بنعم، ويطلب، بطريقة عبثية تماماً، "شـرابه المعتاد"، وزيادة في العبث، يُلبِّي النادل بالطبع طَلَبَهُ. بينما يشـرب كان يراقب "بسـخط قطيعاً من الذئاب" يعبر الشـارع، فيسـأل برعب ما إذا كانت الذئاب في تلك المنطقة خطرة. يحاول النادل طمأنتَهُ، لكنْ، بعد فوات الأوان. لقد أتى ثلاثة أشخاص للقبض عليه. إنهم ثلاثة من رجال الشـرطة الذين يقودونه إلى مركز الشـرطة: نحن هنا مرَّة أخرى أمام شـبح القانون والعقوبة، وكذلك حُكْم الكتابة. لكنْ، هذه المرة، فَقَدَ كلُّ شيء معناه:

عند وصـوله إلى مركز الشـرطة تمَّ حَبْسـه في الغرفة البُنِّيَّة. كانت الجدران مطعَّمة بكلمات وجُمل بارزة. يشير المفتّش غاتِّي إلى إحداها عشوائياً: كيف تقضون الوقت في أثناء النهار؟

"بالقراءة"، يجيب الرجل العملاق(*******).

في هذه القصَّة أيضـاً، يستوعب الحيوان بشكل أفضل سلوك للإنسان. وبينما كان المفتِّش يسأل أسئلة عديمة الفائدة، فقد أدرك بالفعل أن الشـخص الذي أمامه هو القاتل المتسلسـل الذي كان يبحث عنه منذُ

سنوات. وهكذا، لحظة الضحك والفَهْم تتزامنان: المفتِّش، بينما يُصغي إلى كلام العملاق، يضحك. ومع ذلك، فإن خصائص العملاق غير متناسقة تماماً، حيثُ يبلغ طوله ١٦٥ سم. لكن فجأة تتَّضح الصورة، يفقد المفوَّض السيطرة على نفسه، وفي نوبة من الغضب، يُظهِرُ أنيابه: إنه ذئب. نفهم أن جميع الشَّخصيَّات الأخرى التي التقيْنا بها حتَّى الآن هي ذئاب. ليسوا مُسْتَذْئِبِيْن، ولكنْ، ذئاب حقيقية، والعملاق اعتُبر عملاقاً قياساً إلى ارتفاع الذئاب فحسب.

إن المنظور المهلوس للقصَّة هو في الواقع منظور "العملاق الصغير"، الرجل الوحيد على الأرض، الذي يتبادل اللحظات القصيرة من الصفاء مع لحظات التَّفكُّك التَّامِّ. بالطبع يُدان الرجل:

لا يُنسَى ذلك اليوم الذي تمَّ فيه تنفيذ عقوبة الإعدام التي فرضتْها محكمة الذئاب المتَّحدة عَلَنَاً بحقِّ الرجل العملاق، إذ لا يزال يُشار إليه حتَّى اليوم على أنه التاريخ الرَّسميُّ لاختفائهم [أي الرجال] نهائياً من على وجه الأرض!

إن الملاحظة التي يضيفها وقَّاص في نهاية القصَّة هي علامة مدموغة بالنار التي تُعبِّر عن المعنى العميق لرفض الدولة ومنطقها: "سجن سان فيتّوري، ١٩٩٦": القصَّة هي رسالة سجين.

في نهاية هذه الحكاية fabula، أسكتت الذئابُ آخرَ رجل على وجه الأرض: أحمق سواء في الاستخدام الإيطالي، حيثُ هو مرادف "غبي"، وسواء في ذاك، الأصلي، للدِّيمقراطيَّة الأثينية، حيثُ كان الأحمق idiṓtēs مساوياً لـ "مواطن خاصّ، أي لا يشارك في الحياة السِّياسيَّة ". من ناحية أخرى، لا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك: لا يمكن أن تكون هناك حياة سياسية في عزلة مطلقة.

تُظهِر لنا قصَّة "الذئاب في الحكاية" أنه من المحتمل أن التَّفسُّخ والهمجية ليست تلك اللحظة التي تُمحى فيها علامات الدولة. الأمر لا يتعلَّق بالضرورة نهاية أقسام الشرطة، أو قاعات المحكمة، كما هو الحال في بعض الأفلام الكارثية التي أنتجتْها هوليوود، والتي يُعتقد أنها تقدُّميَّة، ولكنها، في الواقع، رجعية، فيلم تعيش فيه دون الحاجة إلى العمل، وإذا جاز التعبير، بدون أن تُنجِزَ واجباتكَ في المنزل، كما لو أن الحياة ستصبح إجازة صيفية طويلة للطفولة، تتخلَّلها فقط نوبات من البؤس والعنف والرعب. بالنسبة إلى وقَّاص نهاية العالَم ليست تلك اللحظة التي يتحوَّل فيها كلُّ الرجال إلى ذئاب، ولكنْ، اللحظة التي لم يعد فيها الإنسان ذئباً للرجل، لأن الذئاب قد حلَّت محلَّ الرجال. في هذا المستقبل المروِّع، لم تعد الذئاب تلعب دور الكلاب، لكنها تقوم بدور الرجال، وبالتالي تُنجِز لَفْتَتَهَا النِّهائيَّة تجاه البشر من خلال قيامها بدور الرجل مع الرجال.

***

تكمن المشكلة في أن وَضْع مسألة كرامة الحياة في سياق كارثي محتمل يخلق، بعيداً عن بعض الأوهام الفاشية، مهما كانت المعضلات غير القابلة للذوبان، بطريقة متناقضة ظاهرياً، شكلاً من الوثنية الخطيرة تجاه الحياة نفسها. وَفْقَاً لإيفان إيليتش(********)، تصبح الحياة طاغوتاً في اللحظة التي تتحوَّل فيها إلى شيء مُرَكَّب (كما في حالة اليهود الذين ينتظرون موسى في سِفْر الخروج) الذين نعزو إليهم قوَّة، تتجاوز قدراتنا. إنها آلية شبيهة بتأليه السلعة؛ وبالفعل يقول إيليتش إن الحياة أصبحت الآن مورداً، أي متاع اقتصادي بامتياز. يؤكِّد إيليتش على انتشار هذه الوثنية التي تمرُّ عبر الثقافة الشَّعبيَّة، والخطابات البلاغية في العلوم الطِّبِّيَّة، وحتَّى في بعض الأحيان، اللَّاهوت الحديث نفسه.

منطق الأسوأ لا يمكن أن يكون أبعد من كلِّ هذا. لا يمكن أن تكون الحياة هي تلك البنية التي تتجاوز قوَّتنا، لأن الحياة، بالنسبة إلى منطق الأسوأ، ليست سوى القوَّة الوحيدة المتاحة لدينا. لا يمكن أن تتجاوزَنا، لأنها ليست سوى أنفسنا في طارئها. إنكار هذا البُعد سيكون كما إلقاء اللوم على الضحية لما

يفعلـه الجلَّاد، وإلقـاء اللوم على اليهود لإبـادتهم من قبَل النـازيِّيْن، لأنهم كـانوا يُؤلِّهون الحيـاة كنقيض "للحُرِّيَّة الخطيرة".

إزاء ذلك، لا نريد أن نُنكر أن تأليه الحياة هذا غير موجود، ولكنْ، ما نريد أن نقوله ببســاطة أن منطق الأســـوأ هو ليس تـأليهاً للحياة، بل على العكس من ذلك، فإنه يتناقض معه بطريقة طبيعية، إذا جاز التعبير.

لتوضيح مدى خطورة ومعارضـة هذا التأليه لمنطق الأسوأ، من المفيد أن نرى الضـرر الذي يمكن أن يُحدِثَهُ هذا في الفكر الفلســـفي، على ســـبيل المثال، لدى أحد أكثر الفلاســـفة الأخلاقيِّيْن نفوذاً في العالَم النـاطق بـاللغـة الإنجليزيـة، ديريـك بـارفيـت Derek Parfit. في أحـد أهمِّ كُتُبـه، "الأســـبـاب والأشـخاص(********)"، توصَّـل إلى "الاستنتاج البغيض" (repugnant conclusion) الشـهير، تسـمية، أسـبغها بنفسـه، لأنه، في الواقع، وَجَدَهُ غير مقبول أخلاقياً. اسـتنتاج يرى أنه من الأفضـل عالَم يعيش فيه الملايين والملايين من الناس حياة بائســـة، بدلاً من عالَم تعيش فيه أقلِّيَّة ســـعيدة. إن منطق بارفيت صارم، ولكنه ينبع من افتراض أن هناك حياة تستحقُّ العيش.

افتراض غير مقبول حســـب منطق الأســـوأ. إن الحديث عن حياة تســـتحقُّ العيش يعني تقييم الحياة من خلال مبدأ اقتصـادي، والنَّظَر إليها بطريقة مجرَّدة، متسائلاً عمَّا إذا كان من الأفضل هذه الحياة أو تلك. إذا اســـتعرضْـــنا هذه الاعتبارات في معســـكر صـــارم للاعتقال، نرى كيف أن هذا يخلط بين منظور الشخص المضطَهَد ومنظور جلَّاديه. إن الحيوات التي تستحقُّ العيش موجودة في منظور الجلَّاد فقط.

في الواقع، يمكننا أن نقول، على ســبيل المثال، إذا تاب الجلَّاد، فإنه ســيعتقد أن حياة هذا الســجين، أو أولئك المعتقلين، أو جميع الســـجناء يســـتحقُّون العيش، وبالتالي يجب الحَدُّ من عملية الإبادة، أو إذا لم يتبْ، أن حياة ذلك الســـجين، أو هؤلاء المعتقلين، أو جميع المعتقلين لا تســـتحقُّ العيش، وبالتالي يجب علينا المضـي قُدُماً في عمليات الإبادة. وجهة نَظَر الشـخص المضـطهد مختلفة تماماً، إذ لا يمكنه إلَّا أن يأمل ويحاول البقاء على قيد الحياة حتَّى لو كانت الحياة في معســـكر الاعتقال مهينة، مهينة لأن الجلَّاد يحتقر مَسعى المضطهد للمثابرة في وجوده، وليس وَفْقَاً لوجهة نَظَر شخص، يُقيِّمه من الخارج.

تصنيم السلعة

كَتَـبَ مـاركس في واحـد من أكثر أجزاء "الرأســـمـال" عمقـاً فلســـفيـاً، "الطـابع الصَّـــنميَّ (الفيتيشي(********))
للسلعة وسرّه":

دعونا نتصـــوَّر أخيراً، على ســـبيل التغيير، اتِّحاد جماعة من الأحرار يزاولون العمل بوســـائل إنتاج مشـــتركة، وينفقون، بوعي مُســـبَّق، قوى عملهم الفرديـة العديدة، بوصـــفهـا قوَّة عمل اجتمـاعيـة واحدة(********).

في مثل هذا المجتمع، يســـقط "الحجاب الصُّـــوفيُّ" الذي يُخفي العملية الحقيقية للإنتاج البشـــري الاجتماعي، ويُنتج الرجال تحت ســـيطرتهم الواعية ووَفْقَاً للخطَّة. ومع ذلك، لكي يتحقَّق، يلزم وجود أســـاس مادِّيٍّ للمجتمع، أي ســـلســـلة من الظروف المادِّيَّة للوجود، والتي بدورها هي المنتج الطَّبيعيُّ والأصلي لتاريخ طويل ومُبَرِّح(********).

ومع ذلك، لسـوء الحظِّ، اسـتُنفد الوقت المؤلم المتاح لنا. إذا كان من الصـعب للغاية، كما رأيْنا، وَضْـع توقُّعات موثوقة حول تطوُّر هذا الوباء، وما يجب القيام به للقضـــاء عليه، فلدينا تحت تصـــرُّفنا توقُّعات أكثر موثوقية، بشأن المخاطر الأكثر فداحة التي سنتعرَّض لها.

بينما نُركِّز على الفيروس التَّاجيِّ، تمضـــي الأرض نحو الكارثة. المعدّل الحالي لنُمُوِّ انبعاثات ثاني أكسيد الكربون أسرع ممَّا تسبَّب في انقراض جماعَتَيْن سابقَتَيْن، بما في ذلك الحَدَث الذي قضى على الديناصـــورات. نحن في بداية انقراض جديد ربَّما لا رجوع فيه بالفعل(********). علاوة على ذلك، بالنسبة إلى أعضاء مجلس العلوم والأمن في نشرة العلماء الذَّرِّيِّيْن بجامعة شيكاغو في عام ٢٠٢٠، لم نكن قريبين جدَّاً من حرب ذرِّيَّة، كما الآن، منذُ عام ١٩٥٣، أي منذُ أن اختبرت الولايات المتَّحدة والاتِّحاد السُّوفييتيّ القنابل الهيدروجينية الأولى.

لم يعد بوسعنا تحمُّل رفاهية الحياة المحزنة بين التَّفسُّخ والاستبداد، حيثُ يكون الإنسان ذئباً للإنسان أو الدولة ذئباً للجميع. لم يعد بوسعنا تحمُّل رَفاهيَة الحفاظ على ١٪ من السُّكَّان على حساب المليارات من الناس. ولكنْ، كيف يمكن تحقيق هذا التخطيط الذي سيصبح الواقع الوحيد الذي سيتعيَّن على البشر الأحرار أن يتفاوضوا معه لتجنُّب انقراضهم الفجِّ؟

في مقال موثَّق ومفصَّل كَتَبَ جاسبر بيرنز Jasper Bernes(********) كيف يرى الكثيرون أن الذكاء الاصطناعي هو إمكانية تنفيذ المخطَّط الماركسي.

من ناحية أخرى، ليس هذا هو الهدف الذي يعرف عنه عامَّة الناس الذكاء الاصـــطناعي. الغرض من هذا النظام بشكل عامٍّ هو محاولة إنتاج أنظمة ذكية، تجتاز اختبار تورينغ الشهير Test of Turing، أي أن يتصرَّفوا بطريقة لا يمكن تمييزهم عن البشر. دليل آخر إلى الفخِّ الذي نصبتْهُ البشرية لنفسها: بدلاً من بناء أنظمة مصطنعة، تحلُّ المشاكل الاجتماعية والسِّياسيَّة التي نواجهها، يأمل الكثيرون في بناء نسخ اصطناعية لما هو موجود بالفعل: أي الكائن البشري.

يمكن للتخطيط المصطَنع أن يحلَّ المشـــاكل المعرفية والعملية التي تؤثِّر علينا عالَمياً: فهو سيتيح لنا معرفة ذلك، وفي الوقت نفسـه القيام به. يمكن أن يحدث هذا فقط بين البشــر الأحرار، وليس من خلال الأفراد الذين تُجبرهم الممتلكات على العمل لصالح ربِّ العمل. لذلك، سيكون من الضَّروريِّ استخدام نظام اصـطناعي يقوم بذلك، وقد أحدث بالفعل الثورة. لا فائدة من النطق بصـــعوبة أو إمكانية حدوث ذلك، لأنه يمكن أن يكون الطريقة الوحيدة المتبقِّية لتجنُّب الانهيار.

يركِّز جزء كبير من نقاش التخطيط على ما يُسمَّى بـــ "مشكلة الحساب الاقتصادي الاشتراكي". لم تكن الأنظمة الاشـتراكية السـابقة وَفْقَاً لمؤيِّدي التخطيط الاصـطناعي متمرِّســة بما يكفي للتعامل مع جميع الاعتمادات المتبادلة الموجودة في الإنتاج.

بالنسبة إلى فريدريك هايك Friedrich Hayek، أحد المنظِّرين الرَّئيسين لِلِّيبراليَّة الجديدة، فإن المال في النظام الرَّأسماليِّ يفعل ذلك بالضبط، فهو يُنسِّقُ النشاط البشري بطريقة، لا يمكن أن يأمل أن تكون متساوية مع هيئة تخطيط مركزية. السِّعر هو مؤشِّرٌ يدلُّ على التَّغيُّرات الكامنة في الإنتاجية والعرض والطَّلَب.

قد تعكس الزيادة في سِعْر سلعة معيَّنة - يضرب هايك مثال القصدير - حقيقة أن الطلب قد ازداد بسبب اكتشاف طريقة جديدة لاستخدامه على المستوى الصِّناعيِّ أو أن المناجم في طريقها إلى النفاد. بالنسبة إلى أولئك الذين يحتاجون إلى القصـــدير، لا يهمُّ معرفة أيٍّ من هذَيْن الحَدَثَيْن، يكفي أن يعرفوا أن القصدير يحتاج إلى التقنين. يسمح السِّعْر للجميع بمعرفة ما هو ضروري لمعرفته دون افتراض أن شخصاً ما يعرف كلَّ شيء:

كما لا توجد ضرورة لمعظمهم لمعرفة أين نشأت هذه الحاجة الأكثر إلحاحاً أو من أجل الاستفادة من الاحتياجات الأخرى التي يجب تقنين إمداداتها [..] الحقيقة البسيطة هي أنه لا يوجد سوى سِعْر واحد لكلِّ سلعة - أو بالأحرى أن الأسعار المحلِّيَّة مرتبطة بطريقة تحدِّدها تكلفة النَّقْل، وما إلى ذلك - يُولِّد

الحلَّ الذي كان يمكن أن يصـــل إليه عقل واحد (لكنه ممكن من الناحية المفاهيمية فقط) في حيازة جميع المعلومات المتناثرة في الواقع بين العديد من الأشخاص المشاركين في العملية(********).

عقل يمكن تخيُّله، في ذلك الوقت، كما هو ممكن من الناحية المفاهيمية. وَفْقَاً لأولئك الذين يدافعون عن التخطيط الاصـــطناعي، يتابع بارنز، فنحن نقترب أخيراً من النقطة التي ســتكون فيها هذه التكنولوجيا ممكنة. معظم المدافعين عن هذا الاحتمال يناشدون قوَّة الحوسبة المتاحة الآن. تتعلَّق اعتراضـات بارنز ومقترحاته، التي سنعود إليها، بالاحتمال العملي لحدوث ذلك من وجهة نظر سياسية - اقتصـادية، لكنها تُركِّز بشكل أقلّ على جانب علوم الكمبيوتر.

من نـاحيـة أخرى، أعتقد أنـه لا يزال هنـاك طريق طويل لنقطعه. كما كَتَبَ غـاري مـاركوس Gary Marcus، أسـتاذ العلوم المعرفية في جامعة نيويورك، كان الذكاء الاصـطناعي، منذُ خطواته الأولى، جيِّداً في الوعد، ولكنْ، ليس في الالتزام. اشـــتهرت عبارة مارفن مينســكي Marvin Minsky، أحد مؤسِّسي الذكاء الاصطناعي، الذي كَتَبَ في عام ١٩٦٧ أنه "في غضون جيل، سيتمُّ حَلُّ مشكلة الذكاء الاصطناعي بالكامل".

إن قائمة هذه الوعود المزعومة التي قدَّمها ماركوس مثيرة للإعجاب. ربَّما يكون أكثر ما يثير القلق هو ما زعمتْهُ شــركة IBM، التي أعلنت للعالَم في عام ٢٠١٦ أنها ســتُحدِث ثورة في الطِّبِّ، في مجالات مثل علم الصـيدلة والأشـعَّة وتشـخيص وعلاج السـرطان، من خلال نظام واتسـون، حيثُ وصـل إلى الصدارة في وسائل الإعلام للفوز في جيوباردي!(********) وهي مسابقة تلفزيونية أمريكية شهيرة.

لربَّما واتسـون قد "قرأ" جميع المؤلَّفات الطِّبِّيَّة ذات الصـلة، وبالتالي يوفِّر حلولاً أفضـل من الأطبَّاء أنفســهم. بالتعاون مع المركز المرموق للأمراض غير المشـخَّصـة والنادرة (ZusE، في ماربورغ، ألمانيا)، ومع ذلك، أعطى النظام إجابات غير مقبولة، ليس فقط للخبراء، ولكنْ، أيضـاً للحسِّ السليم. من غير المقبول البتَّة أن تنتهيَ بعض هذه الإجابات أيضاً في صحيفة ألمانية، شبيغل. في مواجهة أعراض مثل آلام الصدر، واتسون لم يُدرج حتَّى بين الأسباب الثَّانويَّة احتمال حدوث نوبة قلبية، ولكنْ، يمكن أن تكون قـاتلـة. بينمـا واتســون يعتقـد أنـه يمكن أن يكون هنـاك مرض مُعـدٍ نـادر وراء هـذه الأعراض(********).

تتعلَّق هذه الأنواع من الأخطاء بالطريقة التي يمثِّل بها نظام الكمبيوتر منطقة معيَّنة من المعرفة. هناك تِقْنِيَّات مختلفة لتمثيل المعرفة، أحدها هو "علم الوجود التَّطبيقيِّ". الغرض من علم الوجود التَّطبيقيِّ هو جَعْل المعرفة والافتراضـات الضِّـمنيَّة المتعلِّقة بطبيعة وهيكل منطقة معيَّنة من الواقع التي يشـير إليها تطبيق معيَّن لتكنولوجيا المعلومات بشـكل واضـح، ولا لبس فيه. إذا كان علم الوجود كنظام فلسـفي، يدرس الوجود والهيكل العامَّ للكيانات، فإن علم الوجود التَّطبيقيِّ يحاول نَمْذَجَةَ المعرفة المتأصِّـلة في الوثائق الموجودة في أنظمة الكمبيوتر، من خلال اللغات الرَّسـميَّة والقابلة للحسـاب. بمعنى آخر، إنها طريقة لتصنيف المعلومات وتنظيمها ومشاركتها لاستغلال القوَّة الحاسوبية لأجهزة الكمبيوتر والتفكير تلقائياً في كمِّيَّة هائلة من البيانات.

مجالات التطبيق تتجاوز بكثير مجال الطِّبِّ. من أشـهر التطبيقات محرِّكات البحث مثل غوغل. آخرون يسـتثمرون في المجالات الاقتصـادية أو الصِّـناعيَّة أو الإدارية. بالعودة إلى الطِّبِّ، يعود تبنِّي منظَّمة الصِّحَّة العالَمية لعلم الوجود لإنتاج تصنيف قياسي للأمراض إلى حوالي عشر سنوات فقط. حتَّى ذلك الحين، كانت تستند إلى تصنيفات، تعود أصولها إلى القرن التاسع عشر.

المشـاكل التي لديها هذا النوع من التِّقْنِيَّات كثيرة. يُعدُّ تطوير علم الوجود مهمَّة صـعبة للغاية، ويتطلَّب مهارات محدَّدة، وتتعلَّق بمجال التصـميم الذي يهتمُّون به، أي الاقتصـادي والصِّـناعيّ، وما إلى ذلك.

وهناك أيضاً العديد من الفخاخ المفاهيمية التي يخاطر بالسقوط فيها أولئك الذين يُصمِّمون هذه الأنظمة. أحد الأمثلة الشهيرة هو Cyc، أحد الأنظمة الأولى من هذا النوع، الذي لم يتمكَّن من فَهْم قصَّة شخص يُدعى فْرِيدْ كان يَحْلِقُ في الصباح. في الواقع، اكتشف عدم تناسق في القصَّة: كان يعلم أن الناس ليس لديهم أجزاء كهربائية، ولكنْ، منذُ أن كان فريد لديه ماكينة حلاقة كهربائية في يده، اعتقد أن الكيان " فْرِيدْ - بينما -يَحْلِقُ" ("FredWhileShaving") يحتوي على أجزاء كهربائية. لذلك سأل عمَّا إذا كان فْرِيدْ لا يزال شخصاً في أثناء الحلاقة(********).

كان من المأمول إيجاد بديل في طُرُق التَّعلُّم الآلي (machine learning) من خلال الشبكات العصبية الاصطناعية. في هذا النهج، الذي يختلف بشكل واضح عن النهج السابق، لم يعد الرجل هو مَنْ يقدِّم المخطَّط الذي تُخزِّن فيه الآلةُ المعرفةَ، ولكنَّ الآلة نفسها هي التي تتعلَّم من خلال الأمثلة. التَّعلُّم العميق (deep learning) مناسب في تلك المواقف، حيثُ يجب استخراج الأنماط من البيانات المشوَّشة. بفضل التَّعلُّم العميق، على سبيل المثال، يقدِّم لنا أمازون كتاباً يتوافق مع أذواقنا أو أن هاتفَنا يتعرَّف على وجه في صورة.

ومع ذلك، فإن التكنولوجيا الأخيرة لها حدودها أيضاً. على سبيل المثال، هناك حاجة إلى العديد من الأمثلة لتدريب هذه الأنظمة حتَّى لا ترتكبَ أخطاء كبيرة، مثل الخلط بين بندقية وطائرة هليكوبتر أو بين إنسان وغوريلا. علاوة على ذلك، ولأنها تستند إلى الأمثلة، فإن هذه الأنظمة تجاهد لإدارة التغييرات المفاجِئة. أثبتت هذه الخوارزميات في الآونة الأخيرة أنها غير كافية فيما يتعلَّق بالتغيير المفاجِئ في الطلب على السِّلَع والمنتجات بعد الوباء، حيثُ لم يعد بإمكانها إدارة الخدمات اللُّوجستيَّة في السوق عبر الإنترنت(********).

علاوة على ذلك، يتعلَّم مثل هذا النظام فقط من الأمثلة: لا توجد آلية، يمكن من خلالها القيام بذلك من خلال التعريفات العامَّة كما يفعل الناس في كثير من الأحيان. أخيراً، ولعلَّ هذه هي المشكلة الأكثر خطورة، فهذه الأنظمة غير شفَّافة تماماً. بمجرَّد تدريبهم على حلِّ مهمَّة معيَّنة، لا يمكن معرفة ذلك، حتَّى بالنسبة إلى المصمِّمين أنفسهم، وَفْقَاً للمنطق الذي تصرَّفوا فيه. هناك مشاريع بحثية مختلطة، تحاول الجمع بين التِّقْنِيَّتَيْن، وهما التَّعلُّم العميق مع التِّقْنِيَّات الأكثر كلاسيكية مثل علم الوجود التَّطبيقيِّ، ولكن النتائج لا تزال صعبة التقييم(********).

مع هذه القيود القوية فيما يتعلَّق بإمكانية البناء السريع لما يُسمِّيه هايك "العقل الواحد" الذي يمكن أن يُمثِّل الواقع الاجتماعي، نعود إلى خطاب بارنز حول التخطيط الاصطناعي. واحدة من أهمِّ نقاط بارنز، هي أنه سواء مَنْ يأمل بأن التَّقدُّم التِّكنولوجيَّ سوف يحلُّ في يوم ما "مشكلة الحساب الاقتصادي الاشتراكي"، وسواء مَنْ يشارك تحليل هايك، أي أن المال نفسه هو الأكثر فعالية لتمثيل الواقع الاجتماعي، يفتقرون إلى الاعتبارات المتعلِّقة بالسيطرة التي يمتلكها الفاعلون الاجتماعيون حول الواقع الاجتماعي الذي يعيشون فيه.

المال، على سبيل المثال، ليس مجرَّد معلومات. إنَّ لافتقاره آثاراً واضحة جدَّاً على البشر: ابتزاز العمل. تُطبِّق الرَّأسماليَّةُ بوحشية كلَّ تلك السياسات التي تسمح ببقائها. البساطة التي يتمُّ بها هذا الابتزاز هو أمر مَقضيٌّ وأعزل. إذا كنتَ لا تعمل لا تأكل. إن فعاليَّتها لا تكمن في قدرة معيَّنة للإدارة على تحفيز قوَّتها العاملة، بل إن النظام نفسه، إذا جاز التعبير، يجعل واقعه فعَّالاً بشكل تلقائي. بدلاً من اليد غير المَرئيَّة، يمكن للمرء أن يتحدَّث في هذه الحالة عن سَوطٍ غير مَرئيٍّ، سَوطٍ غير مَرئيٍّ يعمل وفق منطق الأسوأ: الابتزاز القديم للخبز.

في واقع اقتصـاد اتِّحاد الجمهوريات الاشـتراكية السُّـوفياتيَّة، لم يكن المخطِّطون، وَفْقَاً لبارنز، يملكون أيَّ سَـوط. إن الاسـتبداد والترهيب، بعيداً عن الاسـتخفاف الأخلاقي الذي يمكن أن يثيرهما بحقٍّ، كان لهما تأثير معتدل وقصـير العمر في الاتِّحاد السُّـوفييتيّ. أي أن المخطِّطين لم يكن لديهم أداة بنَفْس فعالية السَّـوط الخفيِّ للرَّأسـماليَّة. لم يكن لديهم طريقة موثوقة للعمل وَفْقَاً لمعلوماتهم، ولا توجد طريقة لتوزيع الموارد، وإعادة تخصيصها بناءً على احتياجات وحدات الإنتاج وعملائها.

بالتأكيد كانت هناك أيضـاً مشـاكل تتعلَّق بتمثيل الواقع الاجتماعي والاقتصـادي: كانت الأنظمة المتاحة لحسـاب الأسـعار وتحديد احتياجات الإنتاج والاعتماد المتبادل بدائية إلى حَدٍّ ما، ولكنْ، كانت المشـكلة الرَّئيسة

هي إنتاج القوى العاملة بكفاءة.

يُسلِّط بارنز الضـوء أيضـاً على مشـكلة مماثلة في مختلف المقترحات التي تمَّ تقديمها من الاشـتراكية الاصـطناعية. يمكننا أن نتخيَّل نظاماً متطوِّراً حسـب الرغبة، ولكنْ، في هذا النظام يجب أن نعتبر أن هناك بشراً من لحم ودم، عليهم العمل والتصنيع بناءً على ما يحسبه هذا النظام.

وبدلاً من ذلك، يُركِّز "الاشتراكيون الاصطناعيون (أو الشُّيوعيُّون) فقط على مشكلة الشفافية وحساب الأسـعار، متجاهلين تماماً جانب التَّحكُّم في القوى العاملة، أي كيفية تنفيذ النظام فعلياً. لا يمكننا الاعتماد فقط على الوعي السِّياسـيِّ للطبقة العاملة. إلى هذا يمكننا أن نضـيف، يختتم بارنز، أنه بِغَضِّ النَّظَر عن مشكلة السَّوط، لا يمكننا الاعتماد فقط على الضمير السِّياسيِّ للطبقة العاملة.

هذا لأنه، إذا كان صحيحاً أن الوعي هو مُحرِّك الثورة، فمن الصحيح أيضاً أن هذا الوعي يمكن كَسْرُهُ للأسـف من خلال عنف وترهيب البيروقراطية عندما تسـتولي الطبقة العاملة على السـلطة، كما لاحظْنا للأسف خلال ثورات القرن العشرين.

علاوةً على ذلك، وَفْقَاً لبارنز، فإن نظام التخطيط هذا سـوف يتعارض مع ما لا يمكن التَّنبُّؤ به للبشـر. المخطِّطون - سـواء أكانوا اشـتراكيِّيْن أو رأسـماليِّيْن (حتَّى الرَّأسـماليُّون يخطِّطون، وإن كان ذلك في سياق فوضى الإنتاج) - يرغبون في جعل العلاقات التي يضطرُّ العمَّال إلى الاحتفاظ بها ضمن الإنتاج قابلة للتَّنبُّؤ قَدْرَ الإمكان. تتعلَّق الأسباب بتحسين الإنتاج، بالإضافة إلى تعظيم العائد في حالة الرَّأسماليَّة.

لكن هذا مستحيل بالنسبة إلى بارنز، بسبب عدم القدرة على التَّنبُّؤ بالطبيعة البشرية. الفكرة صـحيحة، ولكنْ، أعتقد، لأسـباب خاطئة. إن عدم القدرة على التَّنبُّؤ الاجتماعي لا يرجع إلى "الطبيعة البشـرية" المجرَّدة، بل إلى الواقع الملموس للتفاعل الاجتماعي، أي إلى تعقيد وسـياق الخيارات التي يجد البشـر أنفسـهم يتَّخذونها، وبالتالي إلى التاريخ الذي وقعوا فيه، أيضـاً فيما يتعلَّق ببيئة، حيثُ الطوارئ هي تجربة أوَّليَّة.

ووَفْقَاً لبارنز، فإن الحلَّ يكمن في بناء شـركة قائمة على التخطيط الأناركي planarchy، أي على نظام هجين: تخطيط (planning) وأناركي (anarchy). نظام يقبل الطابع العفوي والموجَّه ذاتياً للعمل الإنسـاني. بدلاً من بناء عقل واحد ضـخم، يحتوي على جميع المعلومات (وهو أمر صـعب تِقْنِيَّاً كما رأينا)، علينا اسـتخدام التكنولوجيا المتاحة لبناء شـبكات اجتماعية موزَّعة، تعمل على لامركزية الإنتاج، وفي الوقت نفسه، تسمح بالتنسيق من خلال التواصل وتمثيل الواقع الاجتماعي الذي ينغمسان فيه، عالَم ينقطع فيه رابط الضرورة بين الإنتاج والاستهلاك (إذا كنتَ لا تعمل، لا تأكل) بشكل نهائي، حيثُ تقوم هذه الأنظمة الموزَّعة بتوريد السِّـلَع بحُرِّيَّة وعند الطلب عندما تكون وفيرة، وتقوم بتقنينها عندما تكون نادرة.

أعتقد أن النهج صـــحيح، المشـــكلة هي أنه يعتمد، كما رأينا، على افتراض، أي على اعتبار يتعلَّق بالطبيعة البشرية. هذا يعني أن السيطرة ستكون، في النهاية، في أيدي المجتمع، ولكنْ، ليس من الواضح كيف يمكن لهذا المجتمع أن يُقْنِعَ نفسـه بالعمل والتعاون، أي في المجتمع الذي يتخيَّله بارنز، سَوط غير مَرئيٍّ؛ أيْ شيء خيالي بطريقة قوية، بِغَضِّ النَّظَر عن الضمير السِّياسيِّ وحُسن نيَّة الأفراد.

رهان المستقبل

أعتقد أن هذا السَّوط غير المَرئيِّ لا يمكن أن يتمَّ إلَّا من خلال التفكير في ملكية وفلسفة الأسوأ. التفكير في أنه، مثل البحث التّكنولوجيّ لبناء النُّظُم الموزَّعة، كلُّ شـــيء مرتبط بالمســـتقبل، ولا يمكن، بالضرورة، أن يأتيَ من شخص واحد، ولكنْ، من التفكير الجماعي.

يجب أن يكون إلغاء الملكية جذرياً. إذا تمَّ إلغاء الملكية الخاصَّـــة على كلِّ مســـتوى، فإن المعلومات ستكون كذلك. المجتمع المناسب لتمثيل المعرفة. سنعرف جميعاً كلَّ شيء عن الجميع، من خلال أنظمة، تجعل هذه المعلومات المجَّانيَّة تتلاقى مع كلِّ فرد.

لتبســيط الأمور، تخيَّل أنه في الأزمة الحالية، كل منَّا يعرف تماماً ليس فقط عدد المصـــابين بفيروس كورونا (المرضـــى، المعافون، الأموات ..)، ولكنْ، مَنْ هم المصـــابون بالفيروس أيضـــاً (المريض، المعافى، الميت ..). بناء على منطق الأسوأ، فإن سَوطَ الأناركية الاصطناعية سيُسمَع لَسْعُهُ. الجزء غير المصاب سيحمي نفسه، ومن خلال هذا التمثيل المشترك، يمكنه تقييم نتيجة أفعاله ديناميكياً. يمكن استئناف الأنشطة والاتِّصالات، ليس بقدر ما يسمح به مرسوم أو خوف غير محدَّد، ولكنْ، بالوجود الفعلي للعدوى. يمكن إبقاء الفيروس بعيداً (إذا لم يتمّ هزيمته) حتَّى بدون لَقَاح أو علاج.

هذا واضـــح لمعظم الناس الآن، رغم أن الكثيرين قلقون بشـــأنه. لكن هذا القلق يبرِّره بالضـــبط وجود الدولة والممتلكات الخاصَّـــة. هذه المعلومات المتعلِّقة بالمرض وحركة الأفراد يمكن في الواقع أن تستغلَّها الدول والشركات الكبرى على حساب السُّكَّان للسيطرة عليهم. في واقع تمَّ فيه استبدال الدولة والشـركات بجَمْعِيَّة حُرَّة من البشـر الأحرار الذين يعملون مع وسـائل الإنتاج التي تملك بحوزتها جميع هذه المعلومات، لا يمكن استغلالها ضدَّ السُّكَّان فحسب، بل ستكون المفتاح، وَفْقَاً لـــــ فلسفة الأسوأ لحمايتهم.

لذلك يجب أن نُوسّـــع ما قيل عن الوباء، ليشـــمل جميع جوانب الواقع الاجتماعي ومحاولة فَهْم كيفية الوصـول إلى نظام، لا توجد فيه سـلطة مركزية، حيثُ لا يمكننا إلَّا أن نناشـد الآخرين. في هذا النظام، سنضطرُّ جميعاً لأن نصبح مراقبين للعواقب الكارثية المحتمَلَة لأعمالنا.

خلاف ذلك، بينما ننتظر عاجزين الكارثة القادمة، سيكون البديل مزيجاً من الشُّمُوليَّة والتَّفسُّخ. في عالَم قائم على التكافل العالَمي، من الخطورة بمكان أن بعض أعضـــائه فقط، المُديرين ومبادئهم، لديهم نظرة أوضح قليلاً لهذه الروابط من الاعتماد المتبادل، أكثر ممَّا يملكه أيّ منَّا.

في الواقع، يتمُّ تقسيم المعلومات حسب الملكية، والمنافسة بين الدول، وضعف تطوير القدرة التَّمثيليَّة حتَّى للطبقات الحاكمة الحالية. وفي الاعتماد المتبادل، من غير الممكن، دائماً وَفْقَاً لمنطق الأســـوأ، أن نتخيَّل أنه حتَّى هؤلاء المُديرين لا يســـيطرون على هذه الاتِّصـــالات. وبالتالي فإن الحفاظ على الملكية والدولة يؤدِّي إلى الحاجة، حســـب منطق الأســـوأ، إلى مجتمع شُـــمُوليّ، ولكنه آمن، مجتمع مثير للاشمئزاز، تُقدَّر قيمته على أساس أنه يستحقُّ أو لا يستحقُّ العيش.

أو يمكننا الرهان على شـــيء مختلف، أن نحاول بعناية إلغاء فعالية الفخّ. أن نجعل النظام أكثر أماناً، وأن نُحيل العالَمية محلِّيَّة والمحلِّيَّة عالَمية لكلِّ فرد. أن نُنشِئ سياسة جديدة على أن تكون فنَّاً في التمثيل: شفافية نظام الترابط الموجود بين البشـر. نهاية المجتمع الاسـتعراضـي، سـقوط الحجاب الذي يجب أن

يكون فيه كلُّ فرد قادر على التَّحكُّم بالعالَم، بقَدْر استطاعته. ربَّما إذا بذلْنا جهداً جماعياً، فقد تُساعدنا الآلات الخاضعة لسيطرتنا في تحقيق ذلك. هذا يعني، أصرَّ، البدء في برنامج بحثي جديد، يرى في التخطيط الاصطناعي المُوزَّع والشفافية مركزه، وأن يُدمَج فيه، أيْ في البرنامج البحثي، السياسةُ والاقتصادُ والذكاءُ الاصطناعيُّ وعلومُ البيئة.

هذا لا يعني أننا لن ننجحَ أبداً في إدارة التعقيد الذي انتهى بنا الأمر فيه منذُ ظهور الدول الأولى، وهذا لا يعني بالتالي أننا سنكون قادرين على النجاة من التهديدات التي ولَّدها أسلافنا دون علم مُسبَّق، ولكنْ، وَفْقاً لمنطق الأسوأ، هذه هي الورقة الوحيدة المتبقِّية لنلعبَها. لن نُوقِف انبعاث ثاني أكسيد الكربون، ولن ننزع فتيل جميع القنابل النَّوويَّة الحرارية إلَّا من خلال هذه الخيارات، حتَّى لو كان النجاح في ذلك ربَّما يتجاوز الوقت المسموح به. ربَّما سيكون نهاية العالَم، ولكنْ، إذا حاولْنا على الأقلِّ، فلن نهلكَ كبطل "الذئاب في الحكاية"، أي مثل العمالقة الصغار الحمقى.

إعادة تكوين العالَم

إبدال نظام التحريم الكُلِّيِّ بالحُرِّيَّة

عبد الرحمن بسيسو

يبدو جلياً الآن، وبلا أدنى مواربة أو غموض، أننا إزاء عملية بلورة نهائية لنظام تابوي كُلِّيٍّ معولم (Globalized Taboo System)؛ نظام لا يتوخَّى شيئاً سوى إعادة تكوين العالَم وَفْقَ مشيئة الرَّأسماليَّة العالَمية المتوحِّشة، وبإرادتها المطلقة الموظِّفة كلَّ قوَّتها وكلَّ ما بحوزة أتباعها المتكاثرين من موارد وإمكانيات وقوَّة، ليكون هذا النظام، الذي نلحظ الآن، عياناً وبجلاء ساطع، علامات تبلوره وملامح تشكُّل بعض ملامحه، نظاماً يتأسَّس على الاستئثار الرَّأسماليِّ، والاستغلال، والاستعمار، والظلم، والإرهاب والقَهْر، والعنصرية العمياء، والتَّطرُّف، والاستحواذ التَّملُّكيّ، والسَّلْب والنَّهْب، والاستلاب، والاقتلاع والطَّرْد، والتهجير القَسْرِيّ، وفَرْض الخنوع، والتَّبعيَّة، والإذعان.

ولهذا التأسيس أن يستوجبَ إبدال كلِّ ما يدور في فلك "اللِّيبراليَّة الجديدة" (Neoliberalism) الأسود من مصطلحات ومفاهيم تنفلت من كلِّ قيمة إنسانية أو عقال اجتماعي إنساني جَمْعِيٍّ، وتقول، بتركيز لافت وجلاء ساطع، دلالة استفحال التَّوحُّش البشري المنتهك كلّ مبدأ عدالة وسلام اجتماعي، وكلّ حقٍّ إنساني، وكلّ قيمة، وكلّ حُرِّيَّة إنسانية، بنقائضها المنشودة، والمبذول من أجل إدراكها كلّ جهد مثابر، من قبَل كلّ إنسان ينشد لنفسه، ولبلاده، ولآخريه من الناس، ولبلادهم، حياة حُرَّة كريمة مُفعَمَة بالحياة، ووجوداً حقيقياً، فاعلاً وخلَّاقاً، في عالَم يتهدَّده جشعُ الرَّأسماليَّة الساعية، بضراوة فاتكة وتسارُع محموم، لجَعْل هذا الإبدال التَّوحُّشيّ الفادح أمراً كونياً، يُرسِّخ هيمنتها، ويؤبِّد وجودها بنَفْيه وجود أيِّ كيانٍ جُزْئِيٍّ أو كُلِّيٍّ، فَرْدِيٍّ أو جَمْعِيٍّ، قابلٍ للوجود الفاعل في الوجود، وقد يمثِّل، من منظورها، تهديداً، وإن كان ضئيلاً، لاستمرارية وجود كيانها الكُلِّيِّ الكوني المُعَوْلَم، والمغطَّى بنظام تحريم كُلِّيٍّ، ينفي الكرامة الإنسانية، ويحيل الحُرِّيَّة إلى نقيضها، ويُحوِّل العالَم إلى محض سوق، ويسلب الكائن البشري فرصة أن يكونَ إنساناً، ويجتثُّ من الحياة حيويَّتها ومعناها، ويفقد الوجود رسالته الحقَّة، ومغزاه.

اجتثاث هياكل وتفريغ كيانات

إلى جانب الإبقاء على القديم الملائم توجُّهاتها والمشبع حاجاتها المُلحَّة لتأبيد حُكْمها، وفي مجرى سَعْيها المحموم للأخذ بمقتضيات تكريسه وتقويته، عملت النُّخب السِّياسيَّة، القبائلية والطَّائفيَّة، وغيرها من نُخب حزبية عصبوية حاكمة، وذات ماهية عسكرية، أو أمنية، قاهرة ومستبدَّة، بأقصى ما تستطيعه من

جهد، وسرعة، ودأب عنيد، وبكلِّ ما في حوزتها من وسائل قَمْع وأدوات إرهاب، مادِّيٍّ ومعنويٍّ، جَليٍّ وغامضٍ؛ على مسارَيْن استهدفا تحقيق أمرَيْن:

يتركَّز أوَّل هذَيْن الأمرَيْن في احتواء أيٍّ من الأشكال أو الأُطُر، أو الهياكل أو الكيانات النَّخبويَّة، التي بزغت حاجة مجتمعية مُلحَّة، أو غاية إنسانية واجبة، إلى إيجاده، فأوجد، أو سمح بإيجاده تحت ضغط هذا الإلحاح أو ذاك، وذلك عبر حِرْصِها على ملء تلك الأشكال والأُطُر بمحتوى، يلائِمُ غاياتها وحاجاتها هي، ولا يلائم، بأيِّ حال، الغاية الأصلية التي وُلِدَت في عقول مُوجِدِيْه من المثقَّفين الحقيقيِّيْن الأوفياء التَّصوُّر الغائي المقرون بالحاجة الماسَّة إلى إيجادها في الواقع الفعلي القائم، وعلى نحو يكفل إشباع هذه الحاجة، وتحقيق غاية إشباعها على نحو أمثل.

أمَّا ثاني هذَيْن الأمرَيْن، فيتمثَّل في احتجاز إمكانية نشوء، أو بدء تشكُّل، أيِّ كيان نخبوي، يُتوقَّع له، إن نشأ، أن يتأبَّى على الاحتواء، وهو احتجاز، تَلازَمَ، طيلة الوقت، مع استئصال كلِّ من، وكلِّ ما، من شأنه أن يُجدِّد، في وعي الناس، انبثاق الحاجة إلى إيجاد هذا الكيان أو هذا الشكل أو ذاك من الكيانات والأشكال، أو ما مَاثَلَهَا من الأُطُر المجتمعية: السِّياسيَّة، والثَّقافيَّة، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها من الأُطُر النّخبويَّة الجامعة، والمَعنِيَّة بالإصغاء الصادق إلى صوت الحياة، وأشواق الناس، وبالعمل، فور تشكُّلها وبأقصى فاعلية ممكنة، على تلبية حاجاتهما، ومتطلَّبات وجودهما الحقّ، وفَتْح أبواب ارتقائهما الدائم صوب أعلى مراقي الوجود الإنساني الحُرِّ، الكريم، والمفتوح، دائماً وأبداً، على مستقبل مفتوح!

ولإنجاز كلا الأمرَيْن، عمدت السلطات الحاكمة المستبدَّة، وغيرها من القوى المهيمنة، إلى تشديد قبضات

الكَبْح والقَمْع والطغيان، متعدِّدة المنابع والأنماط والأوجه، على بنى المجتمع وحيوات الناس، وحرصتْ، أوَّل ما حرصتْ، على فرض سطوة الأجهزة الأمنية المتكاثرة، ومتعدِّدة المجالات والاختصاصات، على أيِّ كيان أو شكل من الكيانات والأشكال والبنى المجتمعية والمهنية النَّخبويَّة التي تمكَّنت، لسبب أو لآخر، من إدراك وجود لنفسها في الوجود، وتأبَّت، في الوقت نفسه، على التفريغ والاحتواء، أو التي لم يستكمل قَمْعها أو احتواؤها، بعد، أو تلك التي لم يُحكم إغلاق منافذ ولادتها الممكنة، إن بزغت في الأُفق، مجدَّداً، وفي غفلة من قبضات الأجهزة الأمنية، حاجة مجتمعية مُلحَّة، تترافق مع بصيص نور، يُنبِئُ بقُرب ميلاد كيان جديد، سيكون له النهوض بتلبية هذه الحاجة، وتولِّي تأمين وجود شيء من حاجات الحياة، ومتطلَّبات عيش الناس!

وبطبيعة الحال، لم يكن لفرض تلك السطوة الأمنية المُسبَّقة، والمتشعِّبة، أن يتوخَّى شيئاً سوى اجتثاث إمكانية أن يصبح هذا الكيان الجديد، في مقبل الأيَّام، نواة لمعارضة حقيقية، سياسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو ثقافية، أو أن يكون قابلاً للتَّحوُّل إلى إطار جَمْعِيٍّ عريض، يتوافر بناته، والمنتمون بإرادتهم الحُرَّة إليه، على رؤية مستقبلية متكاملة ومتماسكة، ومؤصَّلة من كلِّ جانب ومنظور ووجه.

وإلى ذلك، لم يكن لسلطة مستبدَّة أن تتوانى عن اجتثاث إمكانية أن تدهمَ بكابوس إمكانية تحوُّل أيِّ كيان أو هيكل نخبوي، يتوافر بناته على رؤية مستقبلية شاملة ومتكاملة وممكنة التَّحقُّق، إلى حاضنة لاستنبات بذور المشروع النَّهضويِّ العروبي الشامل والمتكامل، هذا الذي تتطلَّبُهُ الحياة الإنسانية الحضارية الحقَّة، وتتوق إليه مجتمعات "بلاد العرب" على تعدُّدها، والذي أمعن في انتظاره الناس من أهل "بلاد العرب" وضمنهم ناطقو اللغة العربية، على اختلاف مشاربهم، وتنوُّع أعراقهم وديلناتهم وألوانهم، وتغاير منابت جذورهم الثَّقافيَّة التي غرسوها بأنفسهم في تربة الثقافة العربية الجامعة، الساكنة بيوت

هذه الثقافات، والمسكونة بها، والمسكنة إيَّاها رحاب بيتها الواسع، والمفتوحة، دائماً وأبداً، على التَّنوُّع الإنساني الثَّريِّ، والتَّجدُّد الحضاري الخلَّاق.

تحريم الاشتغال في السياسة

يبدو جلياً أن إصرار أنظمة الاستبداد والطغيان على احتجاز، إن لم يكن اجتثاث، إمكانية أن تتشكَّل، على نحو تطوُّريٍّ طبيعيٍّ، وفي أيٍّ من المجتمعات العربية، منظومة إطارية متكاملة، ومتفاعلة، للنُّخب متعدِّدة المجالات والاختصاصات، قد تجسَّد، بفجاجة وقحة ورعونة حمقاء، في دأبها المحموم على متابعة تعزيز هذا الاحتجاز عبر حِرْصها الصارم على جعل اشتغال أحرار الناس من عامَّة الناس في السياسة، أو حتَّى مجرَّد اقترابهم من أسوار حُرَمها المغلَقة البوابات بمصاريع مضاعفة، وذات أقفال مقفولة بأقفال شتَّى، أمراً محظوراً؛ أي "أمراً محرَّماً" باسم القداسة، والجلال، والهيبة، أو باسم أيِّ نعت، أو اسم، أو غرض، أو غاية.

وليس لفرض التحريم السِّياسيِّ المطلَق أن يُسوَّغ، أو يُبرَّر، إلَّا عبر مقولات أيديولوجية اختُرعت وصِيغت لمصلحة سلطة الاستبداد، فأكسبتْ صفةَ المقدَّس المتعالي، والمنزل، لتُرسِّخ في مخيال عامَّة الناس، وفي ثنايا وعيِهم الزائف، اعتقاداً مؤدَّاه أن الاشتغال في السياسة، أو حتَّى مجرَّد الاقتراب البعيد من أسوارها، ناهيكَ عن السعي لولوج حرمها، إنما هو أمر جليل ومتعال ومتطلّب، وذو شأن عظيم الشأن والقيمة، وهو، لذلك، أمر لا يخصُّ أحداً، ولا يستطيعُهُ أحد، ولا يقدر على حمل ثقل متطلَّباته الهائلة أحد، سوى الزعيم الأوحد، الذي هو الحاكم المطلق ذو العصمة الإلهية، والقدرة، والسُّمُوّ، والفخامة، والبسالة، والنبالة، والجلال، وسوى بعض من أفراد سلالته وأسرته، أو ثُلَل من أركان بطانته، أو ممَّنْ يَصطَفِيْهم بنفسه، أو يُصْطَفُون له، من أفراد قبيلته، أو عصبته، أو عصابته، أو منظومته العشائرية، أو حزبه، أو غير ذلك من أسماء ترتدُّ إلى ماهية استبدادية واحدة، تجسِّدها، وتجلِّي حضورها، نُخب أوليغارشية (Oligarchy) متعدِّدة الأسماء، والتَّجلِّيات، والهيئات، والتَّخصُّصات، والصور.

وبجَعْل الاشتغال في السياسة، أو الاقتراب من أسوار قلاعها المسيَّجة وحُرْمها المغطَّاة بهالات الهيبة والقداسة، نظاماً تابوياً، يضفر شتَّى الأنظمة التَّابويَّة التي تُشكِّل، متضافرة، "نظام التابو العربي الكُلِّيّ"، متعدِّد الأذرع والقبضات والفكوك والأنياب، تكون الأنظمة الحاكمة، والقوى المهيمنة المتحالفة معها، والدائرة في فلكها مدعومة بها وداعمة لها، قد توافرت على كلِّ ما تحتاجه من مرجعيات مغطَّاة باللَّاهوت والقداسة، وبوصايا الآلهة والأنبياء والأئمَّة والأولياء، وبالعصمة والجلال، وبصلابة الإرادة، بل وبإذعان القدر نفسه لمشيئتها، لتقبض، بكلِّ ما تحتكرُهُ من قوَّة سلطة قاهرة، ومن غشامة غايات، ودناسة وسائل، ودناءة أدوات، ورخص أساليب، على فرص مفتوحة، وعلى مفاتيح مستودعات فَتْك غاشم، تحتوي "بضائع وأدوات" متنوِّعة،

تتعدَّد مكوِّناتها، ولا تخضع لإحصاء، أو نفاد، أو انتهاء صلاحية، وجاهزة للتوظيف العاجل، وللاستعمال الفوري والدائم، اللَّذْيْن يمكِّنانها من اقتناص كلِّ الفرص للإمعان في ممارساتها القامعة المتوخِّية تكريس وجود "نظامها القِيَمِيِّ السُّلطويِّ الاستبداديِّ الخاصِّ"؛ المغلَقِ والمفتوحِ، في آنٍ معاً؛ فكيف لنظام سياسيٍّ أن ينطوي على هذه الثُّنائيَّة المتضادَّة على نحو يبدو راسخاً وحاسماً وغيرَ قابل لاحتضان أيِّ شكل من أشكال المجاورة أو التضايف؟!

نظام تحريمي مغلَق ومفتوح

ليس التَّضادُّ القائم في صلب "النظام القِيَمِيِّ السُّلطويِّ الاستبداديِّ الخاصِّ"، إلَّا تضادَّاً، يتجاوب فيه الانغلاق مع الانفتاح من منظور الغاية، وما ذلك إلَّا لكونه نظاماً مغلقاً على غاية وحيدة، هي حماية

السلطة الاستبدادية الحاكمة، وتغطية هشاشتها، وترسيخ هيبتها وهيمنتها، وتأبيد وجودها. وليس لهذه الغلية المتراكبة، والتي تستوجب متابعة مكانية وزمانية حثيثة، أن تُدرَك إلَّا بوجود نظام تحريمي مفتوح، في كلِّ حال وطيلة الوقت، على استيعاب تعديلات وإضافات وإبدالات، تصبُّ إفرازاتها، بسخاء وتواتر، في مجرى تحقيق الأهداف التَّمكينيَّة التي يُسهم تحقيقها في إدراك غاية تأبيد وجود هذا النظام السِّياسيِّ الاستبداديِّ الحاكم، أو ذاك. وما هذه الإفرازات إلَّا عناصر تابوية تكوينية، تُعزِّز نظام التحريم السِّياسيِّ، ولا تفارق دلالة حرص الأنظمة الاستبدادية الموشوم بإصرار عنيد وشراسة مقرونَيْن بالحماقة المتغطرسة والتفاهة الموغِلَة في ادِّعاء الحكمة.

وما لوصف أن يتمكَّن من وصف العناد الاستبداديِّ المقرون بالشراسة المتغطرسة، أو أن يحيط بالتفاهة المقنَّعة بالذكاء والحكمة وبُعْد النَّظَر، حتَّى لو استعان بكلِّ ما قد هَجَرَهُ الناس، أو ما قد أبقوه قيد التداول، من متخيَّل الصور العجائبية السوداء، وسوقي الألفاظ وموبوئها، اللَّذَيْن لا يمكنهما ملء أوسع محيط وأعمقه، وأعرض جحيم وأغوره قَعْراً، فحسب، بل وأن يفيضا عنهما أيضاً!

وليس لهذا الانفتاح على التعديل والإبدال والتوسيع والإضافة من غاية سوى امتلاك المزيد من مقوِّمات الاستبداد الأقصى الذي يفتح أوسع السُّبُل أمام السلطة الاستبدادية الحاكمة لتوسيع مصالحها وتعميقها ضدا بمصلحة الوطن، وعلى حساب مصالح عامَّة الناس ممَّنْ يُفترَض أنهم من أبناء الشعب المنوط بحكومتِهِ مراعاة مصالحِهِ، ورعايتِهِ، وحمايةِ كرامتِهِ ووطنِهِ!

وبامتلاكها مقوِّمات الاستبداد الأقصى، سيكون بمقدور السلطة المستبدَّة أن تُدرك أقصى غايات الاستحواذ الاستئثاري الكُلِّيِّ على منابع الحياة الحقَّة، وعلى شتَّى الأحياز والمساحات، والموارد والمقدَّرات، والمصائر والأقدار، والخيرات والنِّعَم، وذلك بمعزل تامٍّ عن الالتفات إلى تطلُّعات عامَّة الناس، وبإنكار كُلِّيٍّ لحاجات عيشهم، وبتركيز قَمْعِيٍّ محموم على اجتثاث أيِّ مقتضى من مقتضيات تحفيز تطلُّعهم اللَّاهب لإدراك وجود حياتي، إنساني حقيقي، فردي وجَمْعي، في أيِّ مدار من مدارات الحياة، وفي أيِّ فضاء من فضاءات الوجود.

وإذ انغلقت غايات "الأنظمة التَّابويَّة" المتنوِّعة على توفير الأُسُس والمقتضيات الجوهرية التي يُسهم إنفاذها، والعمل الدؤوب بمقتضاها، في تحقيق غاية حماية الأنظمة السِّياسيَّة الاستبدادية الحاكمة، وتأمين بقائها، وترسيخ هيبتها، وتغطية هشاشتها، وتأبيد وجودها، فقد كان لها، وهي الأنظمة المؤسَّسة، أصلاً، على استثمار الجهل، والإمعان في إلغاء العقل، والتَّحكُّم في قنوات الصلة الممكنة بين الأرض والسماء، والتَّجلُّل بالمُقدَّس والمُحرَّم المتغايرَيْن، والمُتحوِّلَيْن أبداً، وغير المُستثنَيَيْن من تقديس الدناسة وتحليل الحرام، أن تمكّن الأنظمة الحاكمة المستبدَّة، والقوى المهيمنة المتحالفة معها، من تفعيل "التابو السِّياسيِّ" الضافر شتَّى التابوات، ولا سيَّما منها، أوغلها في الرسوخ الزَّمانيِّ، وأعتاها.

وهكذا كان للسلطة المستبدَّة المسلَّحة بالتابو السِّياسيِّ المعزَّز بالتابوات الدِّينيَّة والاجتماعية والثَّقافيَّة، وبغيرها ممَّا يضفره في إطاره الجامع من مكوِّنات تحريمية، أن تُوغِل في تهديد الناس بالإفقار الأرضي، وبالبؤس الدُّنيويِّ، وبجحيم اللَّعْنِ السَّماويِّ الآخري الأبدي، وغير القابل، تحت أيِّ شرط متغيِّر، أو بموجب اعتذار واضح، أو توبة نصوح، للرَّفْع المفضي إلى وهب الشخص، أو الكيان المعني، تسامحاً مستقبلياً ممكناً، أو عفواً لاحقاً، أو غفراناً مقروناً بصَفْح ونسيان، إن هم جرؤوا على اقتراف خطيئة الاقتراب، حتَّى عن بُعد، من أسوار السياسة، ناهيكَ عن اجترائهم على اقتراف إثم انتهاك أيٍّ من المُحرَّمات التَّابويَّة، أو إقدامهم على

التهاون في الالتزام بأيٍّ من أحكامها، مهما صغُر شأنه، أو ضؤُلت قيمته، أو تدنَّى تأثير خرقه أو تخطِّيه، أو رغب في ما يُحرِّمه، بقَدْر ما رغب في الاعتذار عن تجاوُزه بزعم وجود غفلة عن وجوده من قبَل كائن غافل عن نفسه، وعن الحياة، بقدر غفلة الحياة، بدورها، عنه، وإغفالها وجوده.

وإلى ذلك، ظلَّت الأنظمة التَّابويَّة المغلقة على غاية حماية الأنظمة المستبدَّة والقوى المهيمنة، منفتحة على التقاط كلّ ما يُكرِّس بقاء عامَّة الناس في الدياميس والكهوف والأقبية، وعلى إعادة تكييف ما تلتقطه من مكوّنات تابوية، لتشرعَ في صَهْره في أتون إعادة إنتاج استبدادها، كي تدمجَهُ، بإحكام، في بناها الأيديولوجية متكلِّسة الخلايا، والتي لا تجدِّد نفسها، مع مرور الأزمنة وتبدُّل الميول والأحوال، إلَّا بما يستجيب لطبيعتها الانغلاقية التَّكلُّسيَّة، ولغاياتها التَّحريميَّة الاستئثارية الاحتجازية التي تحتكر الحياة والوجود، فتقتصرُ الحقَّ فيهما على الأنظمة الاستبدادية التي تتوافر على أقنعة أيديولوجية متغايرة، وقابلة للنَّزْع والإبدال، والتعديل والتحوير، والتفريغ والملء، والتي تقبض على السلطة والنفوذ، والقوَّة القاهرة، والتي هي، وهي وحدها، كسلطة شُمُوليَّة مطلقة، المؤهَّلة والقادرة، دائماً وأبداً، على انتهاك أنظمة التابو التي وضعتْها بنفسها، وفرضتْها على الناس، لتغطِّيَ بها نفسها وهشاشتها، بل وعلى تعديل مكوِّنات هاته الأنظمة، وتغيير توجُّهاتها، وضبط مراميها، استجابة لمصالحها، وإشباعا لحاجتها الدائمة إلى حماية نفسها، وتأمين بقائها، كمفتتح ضروري لمتابعة سعيها إلى تأبيده.

نظام التحريم الاقتصادي الإنتاجي

سيبدو جلياً، أمام بصر أيِّ مراقب غير مأخوذ عقله بتغافل مقصود أو بغفلة بصيرة مؤقَّتة، أن أنظمة الكَبْح والمَنْع والتحريم التي اصطُلح على تسميتها بـ "أنظمة التابو" (The Taboo Systems)، لم تعد مقتصرةً على ثالوث الدِّيْن والجنس والسياسة، وإنما هي قد تمكَّنت وجوداً وتأثيراً مع تعاقب أنظمة الاستبداد على تعدُّد أقنعتها الأيديولوجية وتنوُّعها، ومع تمدُّدها الاستشرائي في الأزمنة والأمكنة واللغات والثقافات، ومع تعزُّز رسوخ مكوِّناتها في النفوس البشرية الجاهلة المنهَكَة بالفقر والعَوَز وانتظار الفرج، ثمَّ شرعت في التَّشعُّب والتَّوسُّع والشُّمُول إلى حَدٍّ كاد يغطِّي كلَّ مورد وشيء وفعل وسلوك، أرادت قوى الاستغلال الرَّأسماليِّ والاستبداد السِّياسيِّ إيثارَ نفسها به، وتملُّكه، ومَنْع الآخرين منه وعنه، أو الحيلولة دونهم وممارسته.

ولعلَّ ما سنقترح تسميته بـ "التابو الاقتصادي - الإنتاجي"، الذي واكب إنتاجه صعود الرَّأسماليَّة العالَمية واتِّساع نطاقات تحكُّمها طوعاً، أو قسراً وابتزازاً، في اقتصادات العالَم، وفي سياسات عدد متزايد من حكومات دوله، وتجمُّعاتها الإقليمية، وفي توجُّهات، وغايات إيجاد، ومهمَّات، الأعمِّ الأغلب من الهيئات والمؤسَّسات والمنظَّمات والهياكل الدّوليّة، إنما يأتي في رأس قائمة التابوات المستحْدَثة لغاية تعميق هذا التَّحكُّم، وتعديد أبعاده وتنويعها.

وليس لما شَهِدَهُ العالَم، ولمَّا لم يزل يشهدُهُ، منذُ ما بعد الحربَيْن العالَميَّتَيْن، الأولى والثانية، من ظواهر وممارسات ومواقف وإجراءات وتصرُّفات ومسوّدات اتِّفاقيات، واتِّفاقيات ومعاهدات، وصكوك، وخطط، وصفقات، ومدوّنات سلوك، ومشاريع قرارات، تتبنَّاها الرَّأسماليَّة العالَمية الاستبدادية المتوحِّشة بقيادة الولايات المتَّحدة الأميركية التي تُصرُّ، بتعنُّت ابتزازي شرس، على إقرارها، والالتزام الفوري والشامل بها، والشروع في العمل بمقتضاها على جميع المستويات المحلِّيَّة والإقليمية والدّوليّة، إلَّا أن يعكس جانباً مهمَّاً من جوانب التَّحوُّلات الجذرية التي يشهدها العالَم المتصدِّع موشومة بتوقيع الأوليغارشية الرَّأسماليَّة العالَمية.

وما هذا التوسيع الاقتصادي الإنتاجي التَّابويِّ المتسارع، والمتمادي في الكَبْح والمَنْع المقنَّعَيْن، الآن، بغايات إنسانية، ومبادئ سياسية، وقِيَم مشتركة، هي دائما زائفة التَّبنِّي، وهائلة التَّعرُّض للاستغلال

والترويج الإعلامي المبرمج، إلَّا لكون نظـام التـابو الـدّوليّ المُقونَن عبر قوانين واتِّفـاقيـات، أقرَّتْهـا مؤسَّسات دولية، أو عالَمية، تُهيمن الأوليغارشية الرَّأسماليَّة عليها، قد شرع يتأسَّس، من زمن بعيد، وفي مجرى تجاوب إيجابي طَوْعي أو قَسْـري إذعاني، على الاسـتجابة الإيجابية الفورية للحاجات المتنامية، والمتغيِّرة، التي تتطلَّبها غاية حماية التجربة الرَّأســماليَّة العالَمية، وتأمين مقتضـــيات تكريس هيمنتها، وتعزيز استمرارها، بل وتأبيد وجودها المهيمِن على مصائر الناس ومقدَّرات العالَم.

وإذ يتوافر قارئو هذه التجربة المديدة، والمتبصِّرون فيها، والمُكتوُون بنارها، كما يتوافر محلِّلوها، ودارســـوها، ومتفحِّصـــو أطوارها وتحوُّلاتها، والمُتنبِّئون بمآلاتها الممكنة، من العلماء والباحثين ذوي الاختصـاص والصِّـدْقِيَّة والموضـوعية والحيدة، على ما يبرهن على أن الرَّأسـماليَّة العالَمية قد وصـلت أعلى ذرى التَّوحُّش والجَشَع، أو أنها قد أوغَلَت في أعمق أغوار قيعانهما الجحيمية المُنذِرة بهلاكها! فإني لأحسـب أن العولمة الرَّأسـماليَّة المنفلتة التي يشـهدها العالَم الآن لا تعدو أن تكون إلَّا تجربة، أو محاولة، ذروية إضـافية، يتصـوَّر مقترحوها، والمنخرطون فيها، أن نتائجها سـتفضـي إلى جَعْل الرَّأسـماليَّة، في تجلِّيهـا المتوحِّش الأخير، القـابـل لتعديـل ظـاهري، لا يطـال جوهر مـاهيَّتهـا، تجربـة مفتوحـة الأمـداء والمســاحات، على نحو يمكِّنها من الاســتمرار في حَمْل نفســها المشــرفة الآن على تفكُّك، يعقبه هلاك وتحلُّل، صوبَ مستقبل مفتوح على مستقبل، لا ينتهي ولا يتناهى.

وما ذاك إلَّا لأنهم يتصــوَّرون آملين، أو معتنقين صــوابية ما يتصــوَّرون، أن هذا المســتقبل، كما هذه الرَّأسـماليَّة الناشـدة الآن مسـتقبلاً أبدياً لنفسـها، إنما هو مسـتقبل قائم فوق المجتمعات، وفوق القوانين، وفوق الأزمنة، وفوق التاريخ، أو كأنما هذه الرَّأسـماليَّة المتوحِّشـة هي منبع الصـيرورة الخالدة، وتجلِّيها الأســـمى، وهي مفجِّرها الأزلي الأبدي الأوحد الذي أدرك غايته بكمال كمالها، فأبدل بالاســـتكانة الصـيرورة، وبالاستقرار التَّدفُّق، وبالتَّكلُّس الحيوية، وبالكمال النِّهائيِّ الزائفِ المزعومِ السَّعيَ الإنسانيَّ الجادَّ إلى كمالٍ حقيقيٍّ، يكشـفُ زيفَهُ، أو يُكملُ نقصَـهُ، ويُفضِّـلُهُ، ثمَّ أودع في كفِّ الرَّأسـماليَّة شـتَّى المفاتيح، وأغلق كتاب التاريخ البشري الحيوي، واستراح!

توسيع الكَبْح وتفريغ الضغوط

لعلَّ في هذا الفَهْم ما يُفسِّـــر، على نحو أو آخر، حِرْصَ الأوليغارشـــية الرَّأســـماليَّة العالَمية المهيمنة، والمرتدية قناع الولايات المتَّحدة الأميركية، على مواكبة خطوات بلورة "نظام التابو الكوني الكُلِّيِّ"، مواكبة متفاعلة ومتداخلة، مع بدء بروز إرهاصــات العولمة الرَّأسـماليَّة، وتوالي ظهور تجلِّياتها العديدة والمتنوّعة والمتشـعِّبة؛ والمتباينة أحياناً؛ فقد بدا واضــحاً للعيان، عبر ما تتركه، أو ما تتخلَّى عنه، كما عبر ما تُعارضـــهُ فتنقضُـــهُ، وما تتبنَّاه، وتُقدِم عليه، أو عبر ما تُحبِّذه أو تتَّخذه، الولايات المتَّحدة الأميركية، آمرةً أو طالبةً أو مرغِمَةً، الدائرين في فلكها، أو المصـــنِّعين في أقبيتها، من دول وكيانات ومؤسَّـــســـات ومنظَّمات وأحلاف على الانقياد المطلق إليه، والالتزام التَّامِّ به، من مواقف وإجراءات وتصـرُّفات وأفكار وتصـوُّرات ورؤى ومشـاريع قرارات واتِّفاقيات، وغير ذلك من أمور، سـواء تعلَّق أمرُها بالمســتويَيْن الدّوليّ والإقليمي المتعدِّدَيْن، أو بالمســتوى الإفرادي المندرج في ســياق العلاقات الثُّنائيَّة مع أطراف أخرى. إنّ ما يجري إنما يصـبُّ في مجرى اسـتهداف البنى التَّحتيَّة القائمة في شـتَّى المجتمعات البشرية والكيانات الجَمْعِيَّة بتغييرات متشعِّبة، ومتنوِّعة، لا تستهدف شيئاً سوى تحويل العالَم بأسره إلى سوق استهلاكيٍّ كونيٍّ مفتوح.

ولا ريب في حقيقة أن تحويلاً إرغامياً كهذا لن يكون ممكناً إلَّا بجَعْل المجتمعات البشــرية الرخوة، والكيانات السِّـياسـيَّة الهشَّـة، والدول الفاشـلة، وربَّما الدول غير الفاشـلة، والدول المارقة وغير المارقة، بحسب التصـنيف المعياري الأميركي القابل دوماً للتغيير حسـب ما تقتضـيه مصـالح الرَّأسـماليَّة العالَمية

ومطامعها وأحوالها، بمثابة مزارع كائنات بشرية حيوانية مستهلكة، لا تحيا في واقع الحياة القائمة، ولا تعيش فوق أيِّ أرض إلَّا لتأكل، وإلَّا لتتسوَّق ما ستأكل وما ستستهلك؛ لتتسوَّق من جديد تسوُّقاً أرضياً، أو فضائياً، أو كلَيْهما معاً، وباستمرار لا ينقطع ولا يتوقَّف أبداً.

وإلى ذلك، ستبقى هذه الكائنات الاستهلاكية مُستهدَفَة، طوال وقت انشغالها بالتَّسوُّق والاستهلاك، بالكَبْح، ناعماً وخشناً، وذلك للحيلولة دونها، والسعي لإدراك الحياة الإنسانية التي ينشدُها كائنٌ بشريٌّ، يتوق، بطبعه، وبتحفيز وعيه الفِطْري، لأن يكون إنساناً، أي إنساناً حسَّاساً، مفكِّراً، إنساناً ذا قلب مفتوح وعقل وقَّاد ووجدان يَقِظ، وضمير حَيٍّ؛ إنساناً فاعلاً مُنتِجاً، مُبدِعاً خلَّاقاً، وصانعَ حضارة وتاريخ وحياة، ومُدرِكاً معنى لوجوده الحُرِّ في الوجود.

وبغية تفريغ الضغوط الهائلة التي ستُثقل كواهلَ ناس من الإنسانيِّيْن الحقيقيِّيْن ونفوسهم، الأوفياء لإنسانيَّتهم، من الناس، جرَّاء الكَبْح التَّابويِّ الكُلِّيِّ المحتجز حاضرهم وممكنات مستقبلهم، سيكون متاحاً لهؤلاء، بل سيكون مطلوباً منهم جميعاً، ومُحفَّزين ومُشجَّعين بوسائل ومغريات، تُغيِّبهم عن وعي الواقع، وتُنسيهم، أو تجتثُّ من عقولهم فكرةَ السعي إلى تغييره في الواقع، أن يذهبوا صوب ما أُعدَّ لهم، ومن أجل

راحتهم، من فضاءات زرقاء، يدخلونها وهم على مقاعدهم، فتُريحهم من وَعْثاء الحياة، والرحيل الدائم، ومن مشقَّة السعي والعمل.

سيكون لوسائل التحفيز الإغرائي أن تُولِّد في نفوس المستهدفين بها، أو الواقعين بمحض صدفة عليها، رغائب تبدو ذاتية وحقيقية، فيما هي، في حقيقتها، رغائب مصطنعة وزائفة، لكونها مُسكَّنة بتحفيز إرغامي مضمَر، يتوخَّى دَفْعهم، فُرادى وجماعات، وعلى نحو يُشعِرُهم بحُرِّيَّة الاختيار وذاتيَّته، إلى إدمان العيش في عالَم طوباوي مهيض، يجافي الواقع البائس، وتُوفِّره مخيِّلة، تجنح في فضاء بلا هوية، أو في عالَم فضائي وَهْمي، أو افتراضي اعتباري، توفِّره التقانة الحديثة، وشبكاتها العنكبوتية المرهونة، بدورها، لقطاع، أو لأكثر من قطاع، من قطاعات الرَّأسماليَّة الصِّناعيَّة والتِّقَانِيَّة والإعلامية، المفعَمَة مواقعها المتكاثرة، وبسخاء منقطع النظير، بكلِّ ما يتخيَّل المرء للأسواق الأرضية والفضائية أن تحتويه لتعرُّضه للبيع من سِلَع استهلاكية، وأجهزة تسلية، وبرامج تغذية للخيال المفارق الواقع على نحو مطلق، وتطبيقات إلهاء، وقَتْل وقت، وتفريغ، ولهو.

لقد مكَّنت التِّقَانَةُ الحديثة، والثورة الرَّقْمِيَّة المصاحبة لها، الشبكة العنكبوتية الدّوليّة الإنترنت (Internet) من أن تتوافر، مدارات ومواقع وأحيازاً متشابكة، على فضاءات هائلة، تبدو حُرَّة، ومفتوحة، طيلة الوقت، لتُمكِّن الناسَ من تفريغ الضغوط الهائلة التي يُفرزُها التطبيق القَسْرِيُّ المُحكَم لأحكام أنظمة التحريم والكَبْح والمَنْع، ولامتلاك شعور مصاحب، مراوغ أو زائف تماماً، بممارسة الحُرِّيَّة. وقد كان لميلاد هذه المفارقة الآسرة والمذهلة، أن يحملَ أناساً مُتكاثرين ومُتزايدين على الشروع في ممارسة السَّعي البشري - الإنساني اللَّاهب لإدراك إنسانية أعلى، وأنبل، وأجمل، في مدارات حياة جديرة بالعيش! وذلك لأنّ الفضاء التِّقَانِيِّ المعتبَر واقعاً افتراضياً، قد مكَّنهم من ممارسة هذا السَّعي التَّعويضيِّ الذي يُفرِغ نفوسهم من وطآت الشعور ببؤس واقعهم الواقعي ومأساويته، ولا إنسانيته.

فلتنفصمُوا إذنْ، ولتُمعِنُوا في الانفصال عن الواقع القائم في مجتمعاتِكم، وفي وعيكم الشَّقيِّ، وفي نفوسِكُم الرخوة، ولتُمارِسُوا الحُرِّيَّة المطلقة المرفوعة، على ألف جناح تِقَانِيٍّ وجناح، إلى أعلى سماء وأوسع فضاء. ولتُوغِلُوا في دروب سعيِكُم اللَّاهب لإدراك إنسانيَّتِكُم المسروقة أو المضيَّعة؛ ولكنْ، ليس في العالَم الأرضي الواقعي الحقيقي الملموس، والمُدرَك من قِبَلِكُم من قبلُ، بل في العالَم الاعتباري

الفضـــائي المكبوح، بدوره وإلى أبد هو الأبد، عن أن يكون واقعاً ممكناً في واقع أرضـــي ذي تعيُّن جغرافي واجتماعي واقتصـادي وثقافي وسـياسـي، ويمكن لَمْسُـهُ، وإدراكُهُ، والتَّأكُّد من وجوده، من قبَل كائن بشـــري يحيا، أو قد كان من قبلُ يحيا، في رحاب كوكب معلوم، هو كوكب الأرض الذي صـــار بأسره، ملكَنا، وفي حوزتنا، ولا مستقرَّ فيه لأحد سوانا إلَّا بأمرنا، وبإرادة مشيئتنا.

هذا هو، بالضبط، بعضٌ جوهريٌّ ممَّا سيقوله الرَّأسماليُّ المتوحِّش، المسكون بالشراهة والجشع، للأعمِّ الأغلب من الناس الذين تتابع الرَّأسماليَّة العالَمية تجميعَهُم، لِزَجِّهم في مزارع كائنات حيوانية استهلاكية ومرائب كينونات بشرية محوسلة، أعدَّتْها، بعناية فائقة، لتكون زرائب عيش لأجسادهم، ومرائب حشر لوجودهم المؤجَّل، وحظائر احتجاز لحيواتهم الممكنة، ومقابر دَفْن لاجثاث هويَّتهم الإنســـانية الجامعة التي أَماتَها وعيُهم الزائف المغطَّى بجَهْلهم، وبعنصـــريَّتهم، وبانتظارهم المهيض لمُنقذ غيبيٍّ لن يأتي أبداً، وبانقيادهم الأعمى لأيِّ شيء سوى إنسانيَّتهم، وذلك قبل أن يعمد أحد إلى اجتثاث بذورها من تربة فِطْرتهم ككائنات بشرية مؤهَّلة بكلِّ ما يمكنها، إن هي شـاءت وَسَعَتْ، من الشروع في الخطو صـوب إدراك إنســـانيَّتها الممكنة، والمفتوحة، دائماً وأبداً، على إدراك كمال ممكن ينقصـــه كلّ ما يدرك من درجات كمال.

أنظمة التحريم بنى تحتية

في تســاوق مع إبدال عالَم فضـــائي افتراضـــي عالَمَاً أرضــياً واقعياً ملموســاً، وتأسـيســاً على دوافع ومعطيات، تضمَّنَتْها الفقرات السابقة، إفصاحاً أو تضميناً أو إلماحاً، تنبثق فرضية إمكان تحويل "أنظمة التابو" الكابحة المكبّلة، والمتضـمّنة القديم، والمكيّف عن قديم، والمســتحدَث القائم الآن، وربَّما المتوقَّع بروز حاجة رأســمالية إليه في زمن قادم، من كونها جزءاً من بنى فوقية، تتأسَّــس، في الأصـــل الذي تُدركُهُ مناهج العلوم الاجتماعية التَّاريخيَّة والاقتصادية المكرَّسة، على ما يتأسَّس عليه، وعلى ما يُفرِزُهُ، واقعٌ اقتصاديٌّ قائمٌ ومُتعيَّن، وذو ارتباطات خارجية متغايرة، تفرضها حركة إدماج اقتصادات العالَم في اقتصـــاد رأســـمالي وحيد ومُعَوْلَم، من حقائق ووقائع ومعطيات، إلى أعمدة بنى تحتية، ترتفع فوقها صروح "العالَم الجديد" ذات الأبراج الزُّجاجيَّة

مُشـــرعة الأســطح على الرغبة الشَّـــرِهَة في إدراك عُلُوٍّ ذي رأس ماليٍّ متعدِّد الرؤوس، والمهارات، والمطامح، والمطامع، والغايات، ولا تنتهي فداحة جَشَـــعِهِ الوحشـــي، ولا تتناهى رغبتُهُ العارمة في الاستحواذ الكُلِّيِّ، والمطلَق، على كلِّ شيء.

يُفرِز الواقع الاقتصـــادي الرَّأســـماليُّ التَّوحُّشـــيُّ المهيمن الآن على العالَم وقائعَ، تنتمي إلى مبدأ التَّملُّك الفردي الأناني، ويضخُّ عناصرَ ومكوِّناتٍ، تتَّصل بالاستحواذ الاستئثاري الجشع على الأموال والطاقات والموارد، كما أنه يُفرِز، أو يضـــخُّ في الواقع القائم، أو عبر قنواته الإعلامية والتَّرويجيَّة الهائلة التَّعدُّد والاتِّســـاع، ما يُصـــعِّب حصـــره من الوقائع والعناصـــر والمكوِّنات والممارســـات العملية والإجراءات والخصـــائص التي تجلّي ماهية هذا الاقتصـــاد القائم، والراســـخ، والمهيمن، والتي تتحوَّل، بدورها، إلى شبكات علاقات إنتاجية، ومالية، واجتماعية، وسياسية، وموازين قوى مجتمعية، محلِّيَّة وإقليمية ودولية، وإلى مراتب تملُّك وحُكْم وهيمنة، ومستويات تبعية، بل وتصنيفات وجودية، وقِيَم دينية وثقافية مؤدلجة، وشرائع وقوانين وسياسات.

وتعمل النُّخب الأوليغارشية الرَّأسـماليَّة، بدأب ومثابرة، على استثمار كلِّ هذا، كما تعمل على اسـتثمار غيره ممَّا يندرج في سـياقه أو يُماثِلُهُ، أو يُعزِّزه، ليكون هذا الاسـتثمار اسـتثماراً جوهرياً، دائماً وأبدياً، فلا تتوقَّف عائداته، ولا يزول، ولا ينفد عطاؤه أبداً.

ويبدو أن النُّخب الأوليغارشية الرَّأسماليَّة قد توافرت، من زمن بعيد، على إدراكٍ يقول إنه ما من وسيلة عملية لإغلاق أبواب التنافس الإنتاجي والتَّسويقيِّ، ولسَدِّ منافذ تقاسم أيِّ شيء قد ينقص إطلاقية هيمنتها على العالَم - السوق، أو يعرقل بلوغَ تحقُّق غاياتها الاستثمارية الاستغلالية الاستئثارية أعلى الذرى، بقادرة على أن تفضل، أو أن تكون أنجع من، عملية تحويل أنظمة التحريم التَّابويِّ المتضمّنة كلّ تلك المكوِّنات التَّحريميَّة الكابحة إلى أعمدة بنى تحتية قوية وراسخة، ومصبوبة بإحكام حديدي صلب.

وبغية تحويل هذا الإدراك إلى خطَّة عمل قابلة للتطبيق الواقعي الفعلي، يبدو أن النُّخب الأوليغارشية الرَّأسماليَّة قد شرعت، مذ لحظة تملُّكها هذا الإدراك، في إخضاع كلِّ ما قد أسفرت عنه مسارات المغامرة البشرية الحضارية التَّاريخيَّة، بل والوجودية، المتشعِّبة، من حقائق، ومعطيات، ومكوِّنات تأسيسية، وخلاصات تجارب، إخضاعاً صارماً وكُلِّيَّاً إلى قواعد استبعاد وضمّ واستبقاء واجتثاث، وإلى إجراءات انتقاء واختيار، وآليات تقطير وتصفية، وتطوير وتفعيل، وخطط استثمار، وبرامج توظيف، تؤسّس، متضافرة ومتفاعلة ومتداخلة في تكامل حَذِقٍ، للإبقاء على كلِّ ما من شأنه الإسهام، بفاعلية قصوى، ومن دون أدنى أثر جانبي غير مرغوب في وجوده، لـــ "إعادة تكوين العالَم" تكويناً، يُرسِّخ وجود قِيَم الاستحواذ الاستئثاري الأناني، والتَّملُّك الرَّأسماليِّ الفردي، القائمين على مَأْسَسَة الاستغلال، وتكريس الاستعمار، بل وتأبيدهما عبر تبديل أقنعتهما وأسمائهما، وعبر تسويغ مصاحباتهما كالسرقة، والتسخير، والاستلاب، وسلب الموارد، وإفقار صُنَّاع الحياة من عامَّة الناس وتجويعهم، وتبئيس عيشهم، والحيلولة دونهم والتَّمتُّع بثمار حيوات حقيقية، هم، في حقيقة الأمر، وفي الأصل، صُنَّاعها الحقيقيون.

فهل سيكون لمساعي تكريس قِيَم الاستحواذ الاستئثاري الأناني، والتَّملُّك الفردي الرَّأسماليِّ، المعزَّزة بتنظيرات "اللِّيبراليَّة الجديدة" المنفلتة، وغير المَعنِيَّة بالعدالة الاجتماعية، وفائقة التَّجلِّي في "السوق الكوني المفتوح"، وعلى أرض الواقع العالَمي الاستغلالي الاستبدادي القائم الآن؛ وهي التنظيرات المروَّج لها، بتركيز وكثافة وبأساليب ومناهج تسويق عديدة ومبتَكَرة، في الواقع الواقعي، وفي فضاءات العالَم الافتراضي، وفي أسواقه المفتوحة ليلاً ونهاراً؛ هل سيكون لها أن تُعزِّز استمرار إقدام النُّخب الأوليغارشية الرَّأسماليَّة، على متابعة سعيها المندفع، ومتسارع الخطو، لتعميق مصالحها المُدمَجَة، أو المُنزَلَة، في مصالح الرَّأسماليَّة العالَمية المتوحِّشة، ولتوسيع امتدادات هذه المصالح، وإكثار نطاقاتها، وتوسيع أحيازها، لتشملَ الكون بأسره؟

إننا لنتساءل بحذرٍ تأمُّليٍّ، وبقلقٍ على الفكرة الإنسانية مؤلم وعارم: هل سيكون لمساعي هذا التكريس الفادح ذي العقابيل الجسيمة، والناهض على استثمار مقولات اللِّيبراليَّة الجديدة، وخلاصات تفكيرها الخالي من أيِّ قيمة إنسانية، أن تنجحَ، وأن تمكِّن الرَّأسماليَّة المتوحِّشة من "إعادة تكوين العالَم" وَفْق تصوُّر، وبحسب مشيئة، نُخبتها الأوليغارشية العليا، حاكمة العالَم بالعلم والمال والتِّقَانَة المُسخَّرة منجزاتها لإعمال ذكاء بشري شرِّير، وذكاء اصطناعي مسخَّر لصناعة الشَّرِّ، لا يُسفِرُ إعمالهما عن شيء سوى إنتاج الاستغلال والاستبداد والبطش، والدمار والهلاك، وتعميم الشَّرِّ السافر، أو المُقنَّع بقِيَم إنسانية خيِّرة، نبيلة وسامية.

وهل سيكون لهذه النُّخبة الحاكمة العالَم، والمحكومة بفكْر ظلامي عنصري، قديم ومستحدَث، والمسلَّحة بالنَّظريَّة الفاشية المجرَّدة من أيِّ ذرَّة من ذرَّات الفكر الإنساني الجديد بالانتساب إلى الكرامة الإنسانية والحُرِّيَّة، المسمَّاة بـــ "اللِّيبراليَّة الجديدة"، هل سيكون لها أن تتمكَّن من الاستمرار في إنتاج التَّوحُّش البشري، وفي إعادة إنتاجه، ومتابعة تدويره في أزمنة العالَم؟

أَ ترانا ندرك المدى الذي بلغتْهُ النُّخبة الأوليغارشية الرَّأسماليَّة، صاحبة، وسيِّدة، ووَلِيَّة أمر الكيانات والأنظمة الرَّأسماليَّة الكبرى، والمتوسِّطة، والصُّغرى، وتلك التي لم تُولَد بعد، والتي هي نُخبة قليلة العدد، كثيرة الأتباع، والذيول، وذيول الذيول، والكيانات التابعة، والمصطنعة، التي لا تأذن بانهيار أيٍّ منها، أو قَطْعه أو بَتْره، أو إسقاطه، إلَّا بأمرها ومشيئتها، في تجهيز جميع خشبات مسارح العالَم، أرضاً وفضاء، لاحتضان لحظة الإعلان المتزامن عن نتائج مسارات سعيها المندفع، والمتواصل، ومتسارع الخطو منذُ ما قبل الحربَيْن العالَمِيَّتَيْن الأولى والثانية، لتعميق مصالحها المُدمَجَة، أو المُنزَلَة، في مصالح الرَّأسماليَّة العالَمية المتوحِّشة، ولتوسيع امتدادات هذه المصالح، وإكثار نطاقاتها وأحيازها، لتشملَ الكون بأسره، وذلك على نحو يؤكِّد انتصار هذه الرَّأسماليَّة المتوحِّشة على ما عداها، إذ يُعَوْلِمُها متوخِّياً تأبيد وجودها كذروة قصوى لصعود التاريخ صوب نهاياته، وكبداية جديدة، وغير مسبوقة، لأزمنة، لا يسود فيها، بل لا يوجد، ولا يسمح بأن يوجد في رحابها، من قوَّة تهيمن، بإطلاق حياتي ووجودي، على مقدَّرات الكون بأسره، وعلى مصائر قاطنيه من الأشياء، والأحياء، والكائنات، والناس، سواها.

لحظة فارقة، وغموض مآلات

إنها إذنْ، لحظة حضارية - تاريخية فارقة وحاسمة؛ لحظة جرى التأسيس لقدومها بمثابرة دائبة، وإتقان ممنهج، وعلى مدى زمني واسع، شَهِدَ انتفاضات، ونهضات، وثورات، وصراعات دامية، وتحوُّلات كبرى، لتُؤسِّس، بدورها، لما بعدها، ولتُنتجَ مصطلحات، ومفاهيم، ومقولات، من قبيل "نهاية التاريخ" و"صعود الرَّأسماليَّة إلى أعلى ذراها وأفول سواها" و"صراع الحضارات"، و"اللِّيبراليَّة الجديدة" بمعناها المنفلت، و"العولمة" بمعناها الرَّأسماليِّ المنفلت أيضاً، و"ما بعد الإمبريالية" بمعناها الذي يكرِّس الاستعمار، إذ يبدِّل أقنعَتَهُ ويُغيِّر أسماءه، و"الحداثة"، و"ما بعد الحداثة" وما بعدهما، وما بعد بعد غيرهما، وغير ذلك من مفاهيم وخلاصات، ومصطلحات متحوِّلة، كثيرة ومتوالدة، تمَّ ترويجها، باتِّساع وكثافة، في شتَّى أرجاء العالَم، فَسَلَّعَتْ، وعَوْلَمَتْ، فاستدعَتْ، وإن على نحو عميق وصريح ومقنِع وفعَّال، أو على نحو موارِب ضئيلِ القيمة العملية وباهتِ الحضور والإقناع والتأثير، إنتاجَ ما يُغايرها، أو ما يُناقِضها، من تبصُّرات، ومقولات، ومفاهيم ومصطلحات متحوِّلة، وإبدالات اصطلاحية، كتلك التي اقترحَها، ولم يزل يقترحها في أماكن شتَّى من العالَم، فلاسفة، ومفكِّرون، وعلماء متخصِّصون في العلوم الاجتماعية، والاقتصادية، والسِّياسيَّة، وفي غيرها من العلوم الإنسانية ذات الصلة بالحياة البشرية، والتاريخ، والحضارة الإنسانية، وتطوُّراتها المنظورة، ومآلاتها الممكنة.

غير أن الاستجابات المتغايرة على تحدِّي العولمة الرَّأسماليَّة المتوحِّشة المنفلتة من كلِّ عقال، لم تعثر، في كثير من بلاد العالَم المحكومة أنظمتها الحاكمة بالتَّبعيَّة المطلقة للرَّأسماليَّة العالَمية، وضمنها، بالطبع، بلاد من "بلاد العرب"، على قوى مجتمعية، تتبنَّاها، وتُطوِّرها، وتُرسِّخ وجودها عبر الفعل الإنساني الجَمْعِيِّ الخَلَّاق، بل لعلَّها ظلَّت، لهذا السبب أو ذاك، معلَّقة ورجراجة، في انتظار أن تُؤصَّل تأصيلاً معرفياً، عقلياً ومنطقياً وعملياً، بما يكفي لإخراجها من حيِّز الاستجابات الفورية التي تتَّسم، في أعمِّها، بخصائص ردَّات الفعل الوقتية متعدِّدة الدوافع، ومتنوِّعة الاتِّجاهات والتَّوجُّهات، وذات المحفِّزات والرؤى المثقَلَة بالرفض الارتكاسي النُّكوصيِّ، أو بالتَّصوُّر الطُّوباويِّ التَّهويميِّ، المَهِيضَيْنِ في كلِّ حال، والعاجزين عن تجاوُز محفِّزاتهما المتناقضة ظاهرياً على الأرجح، والبعيدين كلّ البُعْد عن الواقع الفعلي المنشود تغييره، والمراد إبداله واقعاً واقعياً يفضله، أو يناقض بؤسه مناقضة تامَّة، لكونه واقعاً، لا يأتي إلَّا من المستقبل المنشود، المنظور، والممكن.

وتأسيساً على ما تقدَّم، وفي ضوء ما نشهده من استجابات مهيضة، أو من استجابات لم تتبلور بعد، أو لم تخرج من توار أو كمون، على تحدِّي "العولمة الرَّأسماليَّة المنفلتة"، فإنه ليبدو أن تأصيل فرضية إمكان تحويل أنظمة التابو، القديم منها، والمكيّف عن قديم، والمستحدث القائم الآن، والمتوقَّع بروز حاجة رأسمالية إليه في زمن قادم، من كونها تشغل جزءاً راسخاً من بنية فوقية رخوة أو مُتكلِّسة، إلى بنية تحتية صلبة وراسخة، وقابلة للتوسيع، بما لا يفارق ماهيَّتها، لن يكون مُلغِزاً، أمراً صعب المنال.

وإنني لأدرك أن انبثاق هذه الفرضية من ثنايا التَّبصُّرات التي أوردتُ خلاصاتها في مقالات عديدة سابقة الكتابة والنشر (سلسلة المقالات المدرجة تحت عنوان: قبو وقبَّة، ولا سيَّما منها المقال المتفرّع المعنون بـ "هياكل فارغة")، قد فاجأني، وذلك بقَدْر ما تيقَّنتُ من حقيقية أن أيَّ فرضية جديدة تهزُّ فكرة تأسيسية راسخة، أو مبدأ منهجياً مكرَّساً ومعتَمَداً، ستبدو غريبة، وغير مرحَّب بها، ولا سيَّما من منظور مناهج التفكير القديم، أو التفكير المقيَّد، أو المبرمَج سلفاً وَفْق معايير صارمة وكابحة للتفكير، أو الخالي من التَّأمُّل المتجاوز قديمه، ونفسه.

وليس لفحوى الفقرة السابقة أن تُفهَم، بأيِّ حال، كدعوة ظاهرة أو ضمنية، للتَّخلِّي عن المناهج البحثية الرصينة والمعتَمَدَة، أو إغفال أيٍّ من إجراءاتها وآلياتها، فليس للتَّبصُّر المتأنِّي، عمقاً وامتداداً، في مسألة مصيرية حاسمة، جمعت في إهاب واحد شتَّى المسائل الحياتية والوجودية، العملية والنَّظريَّة والمعرفية، المتعلِّقة بالواقع العالَمي القائم الآن، وبمآلات الكائن البشري، والإنسان، والعالَم، إلَّا أن يستوجب إعمال هذه المناهج والإفادة منها، كمناهج مجرَّبة، وذلك بقَدْر ما يُملي الحاجة إلى تطويرها، أو حتَّى إلى تجاوُزها، وصولاً إلى ما هو أرصن، وأعلى قدرة على مقاربة فرضيات، قد تبدو، للوهلة الأولى، غريبة، وذلك لتمكيننا من تعميق إحاطتنا العملية والمعرفية بمجريات تحوُّل تاريخيٍّ كونيٍّ متسارعِ الخطو، وغير مسبوق.

وإذ لم تنبثق هذه الفرضية من فراغ، بل تأصَّلت عبر المقاربات التَّبصُّريَّة المشار إليها، والتي أسفرت، ضمن ما قد أسفرت عنه، عن خلاصة، تؤكِّد أننا نعيش لحظة الصعود الذّروي الأقصى لحِرْص قوى الاستغلال والاستبداد والطغيان والجشع الرَّأسماليِّ المتوحِّش، على تكريس هيمنتها، وتأبيد وجودها، عبر طرائق وأساليب وإجراءات عديدة، ليس ترسيخ وجود، وتعزيز فاعلية، أنظمة تابوية تُغطِّي شتَّى الأنشطة البشرية، وتتداخل، أو تتمازج، في مجرى تكوين "النظام التَّابويِّ الكوني الكُلِّيِّ"، بأقلِّها، فإن للانطلاق من هذا الإدراك أن يُؤهِّلنا لمتابعة التقاط تمظهرات الصعود الرَّأسماليِّ الذّروي في العالَم بأسره، بغية قراءتها، والتَّأمُّل فيها لاستكناه دوافعها الحقيقية، وتبيُّن ترابطاتها، وإدراك مقاصدها، والتَّنبُّؤ، في ضوء ذلك كلِّه بمآلاتها الممكنة.

وإلى ذلك، سيكون للاستكناه والتَّبيُّن والإدراك والتَّنبُّؤ الجزئي أن يؤسِّس لانبثاق إمكانية فعلية للتَّنبُّؤ بمآلات الظاهرة الرَّأسماليَّة المتوحِّشة المقرونة بالعولمة المنفلتة، وبتصدُّع أبنية العالَم، واختلال منظومات قِيَمه، وموازينه، وتوازناته، وهي المآلات المشروطة، دائماً وأبدا، بحقائق ومعطيات وموازين قوى قائمة بالفعل، بقَدْر اشتراطها بما يكتنزه الواقع القائم، هنا أو هناك على مدى مساحات العالَم وأحيازه، من ممكنات، أو بما يمور في قاعه العميق من تفاعلات، قد تُنبئ بوجود إمكانية محتمَلَة لتفجُّر توتُّرات وصراعات، سيتوجَّب التَّأكُّد من وجودها كإمكانية قابلة للتَّحوُّل إلى إمكانية فعلية.

وليس لإدراك مكتنزات الواقع العالَمي القائم، وتعرف ما يمور في قاعه العميق من تفاعلات وتوتُّرات وإرهاصات مُنبِئَة، إلَّا أن يكون هو "المدخل الضَّروريّ"، للشروع في التَّبصُّر في مدى قدرة ممكناته على إحداث تحوُّل، يغاير هذا الذي تحاول النُّخب الرَّأسماليَّة العالَمية المتبوعة بأنظمة التَّخلُّف، والفكر الظَّلاميّ، والاستغلال، والاستبداد، والتَّبعيَّة، والتابوات الكُلِّيَّة المقدَّسة، فرضه على العالَم بأسره، إيثاراً

لنفسها على مَنْ سواها، وحفاظاً على مصالحها المتفاقمة، واستهتاراً بالقِيَم الإنسانية السامية، وبشتَّى منظومات حقوق الإنسان وشرائعها، وشرعتها، تلك المكرَّسة بتوافُق إنساني، يكاد يكون شاملاً، ومُلزِماً، وجامعاً.

مؤلِّفو الكتاب

نوري الجرَّاح، شاعر من سوريا، مواليد ١٩٥٦، له العديد من المجموعات الشِّعْرِيَّة، أشرف على تأسيس عدد من المجلَّات الثَّقافيَّة العربية، ويرأس حالياً تحرير مجلَّة "الجديد" الشَّهريَّة الثَّقافيَّة اللَّندنيَّة، ويشرف على أعمال "المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياد الآفاق" وعلى "جائزة ابن بطُّوطة لأدب الرحلة". مقيم في لندن.

أحمد برقاوي، مفكِّر وأستاذ جامعي فلسطيني سوري، ، مواليد دمشق ١٩٥١، رئيس قسم الفلسفة في جامعة دمشق. له العديد من الأعمال الفكرية والأدبية، منها ""مقدّمة في التنوير"، "العرب وعودة الفلسفة"، "الأنا"، "كوميديا الوجود الإنساني" "أنطولوجيا الذات". انتماؤه إلى الثورة السُّوريَّة جَعَلَهُ في منفى مُزدوَج. عضو هيئة تحرير مجلَّة "الجديد" اللَّندنيَّة. مقيم في لندن.

أبو بكر العيادي، كاتب ومترجم تونسي، مواليد ١٩٤٩ يكتب القصَّة والرواية والمقال والدراسة والترجمة. وضع بالفرنسية قصصاً مستوحاة من التراث العربي القديم والتراث الشَّعبيِّ التُّونسيِّ. من أعماله الرِّوائيَّة: "الرجل العاري"، "مسارب التيه"، "لابس الليل"، "آخر الرعية". ومن أعماله القصصية "الضِّفَّة الأخرى"، "حكاية شعلة"، "حكايات آخر الليل"، "دهاليز الزمن الممتدّ". ومن أعماله النَّقْدِيَّة "رسائل باريسية"، "العتق والرِّقّ". عضو هيئة تحرير "الجديد"، مقيم في باريس.

لطفية الدليمي، كاتبة روائية ومترجمة وناقدة من العراق، وُلدت في ديالى عام ١٩٣٩، ودرست في مدارس بغداد وجامعاتها. ناشطة في الدفاع عن حقوق المرأة. لها عشرات الروايات والمجموعات القصصية والمسرحيات وأدب اليوميات والترجمات. من رواياتها "مَنْ يرث الفردوس"، "ضحكة اليورانيوم"، "سيِّدات زحل". ومن مجموعاتها القصصية "مسرَّات النساء"، "إذا كنتَ تُحبُّ"، "موسيقى صوفية". من كتاباتها المسرحية "الليالي السُّومريَّة"، "الكرة الحمراء". من ترجماتها "بلاد الثلوج " لياسونارى كواباتا، "تطوُّر الرواية الحديثة"، لجيسي ماتز، "الرواية المعاصرة"، لروبرت إيغلستون، "الثقافة" لتيري إيغلتون. تقيم في عمان.

إبراهيم الجبين، شاعر وروائي وإعلامي سوري مواليد ١٩٧١. كتب وقدّم عدداً من البرامج التلفزيونية والأفلام الوثائقية والدرامية. من أعماله الروائية "عين الشرق"، "يوميات يهودي من دمشق". ومن دواوينه الشعرية "تنفّسْ هواءَها عنّي"، "البراري"، "يعبر اليم". ومن أعماله البحثية "الطريق إلى الجمهورية"، "لغة محمد"، ومن الأفلام الوثائقية "الجاسوس٨٨"، "الأمير عبدالقادر الجزائري"، "أبو القعقاع السوري"، ومن برامجه التلفزيونية "علامة فارقة"، "أهل الرأي"، "الطريق إلى دمشق"، "باسم الشعب". مقيم في ألمانيا.

خلدون الشمعة، ناقد سوري، مواليد دمشق ١٩٤١، ناقد مؤسِّس وصاحب أفكار مجدِّدة في النَّقْد الأدبي العربي، له "الشمس والعنقاء - دراسات في المنهج والنَّظريَّة والتطبيق"، "النَّقْد والحُرِّيَّة"، "المنهج والمصطلح"، و"المختلف والمؤتلف - تمثيلات المركز الغربي والهامش العربي وشيطنة الآخر"، وبالإنكليزية "الحداثية وما بعدها: نَظَرِيَّة الحداثة من النَّقْد الأدبي إلى النَّقْد الثقافي". عضو هيئة تحرير مجلَّة " الجديد" اللَّندنيَّة. مقيم في لندن.

فخري صـالح، ناقد ومترجم من فلسـطين، مواليد جنين ١٩٥٧. من مؤلفاته: النقدية "القصـة القصـيرة الفلسطينية في الأراضـي المحتلة"، ١٩٨٢، "في الرواية الفلسطينية"، ١٩٨٥، "أرض الاحتمالات: من النص المغلق إلى النص المفتوح في السـرد العربي المعاصـر" ١٩٨٨، "النقد والمجتمع، المؤسـسـة العربية للدراسـات والنشـر، بيروت، ١٩٩٥ (ترجمة وتحرير)، المؤثرات الأجنبية في الشـعر العربي المعاصـر" ١٩٩٥ (تحرير وتقديم). "الشعر العربي في نهاية القرن" ١٩٩٧ (تحرير وتقديم). "شعرية التفاصيل: أثر ريتسوس في الشعر العربي المعاصر": دراسة ومختارات ١٩٩٨. ومن ترجماته: "النقد والأيديولوجية" لتيري إيجلتون، ١٩٩٢، "المبدأ الحواري: ميخائيل باختين" لتزفيتان تودوروف. مقيم في عمان.

نادية هناوي، ناقدة وأكاديمية من العراق، دكتوراه في فلسفة اللغة العربية وآدابها/ جامعة بغداد. صـدر لها العديد من الكُتُب النَّقْدِيَّة، منها: "القارئ في الخطاب النَّقْدِيِّ المعاصـــر: نجيب محفوظ أنموذجاً"، "مقاربات في تجنيس الشِّـعْر ونَقْد التَّفاعليَّة"، "نحو نَظَرِيَّة عابرة للأجناس في بِيِّنيَّة التجنيس والتمثيل"، "تعدُّد القراءات الشِّـــعْرِيَّة في النَّقْد العربي القديم حتَّى نهاية القرن الســـابع للهجرة"، "أميرة الرهان: دراسات نَقْدِيَّة وجمالية في

قصـــيدة النَّثْر الراهنة في العراق"، "رؤى نَقْدِيَّة: الشِّـــعْر من بنية التحليل إلى بنى التأويل". تقيم في الموصل، وتدرس النَّقْد الأدبي في جامعاتها.

محمَّد آيت ميهوب، كاتب وناقد أدبي ومترجم، وأكاديمي من تونس، مواليد ١٩٦٨، دكتوراه في الآداب والفنون والإنسـانيات، متخصِّـص في الدراسـات السَّـرْدِيَّة والنَّقْد الأدبي، وقضـايا الأجناس الأدبية. من أعماله النَّقْدِيَّة والبحثية "التداخل الأجناسـي في الأدب العربي المعاصـر"، "معجم السَّـرْدِيَّات"، "الرواية السّـيرذاتيَّة في الأدب العربي المعاصـر". ومن أعماله الرِّوائيَّة "طائر مكسـور الجناح يُحلِّق في أعالي السماء"، "حروف الرمل"، "الورد والرماد" (قصص). ومن ترجماته "الإنسان الرُّومنطيقيُّ" (دراسة)، مسرحية "نهاية اللعبة" صاموئيل بيكيت. مقيم في أبو ظبي.

مفيد نجم، ناقد من سـوريا، مواليد القنيطرة ١٩٥٦، له العديد من الأعمال النَّقْدِيَّة في دراســة الشِّـعْر خصـــوصـــاً " الأفق المفتوح"، "طائر بأكثر من جناح"، "القصــيدة المعلَّقة"، "أرض الأبدِّية"، وله في اليوميات "أجنحة في زنزانة، حاز عنها على جائزة ابن بطُّوطة لأدب اليوميات. عضـــو هيئة تحرير "الجديد" اللَّندنيَّة. مقيم في برلين.

نهلة راحيل، باحثة وأكاديمية، من مصـر. أسـتاذة الأدب الحديث والمقارَن، بكُلِّيَّة الألسـن، جامعة عين شمس، لها العديد من الكتابات النَّقْدِيَّة والترجمات الأدبية، صـدر لها: "النكبة والنَّازيَّة: دراسة في رواية الأجيال العربية، والعبرية"، "الذاكرة الجَمْعِيَّة الفلســطينية"، "كتابة الذات في "أثقل من رضـــوى" و"الصرخة": دراسة في سمات النَّصِّ السير- ذاتي". حصلت على جائزة محمَّد غنيمي هلال للدراسات النَّقْدِيَّة والتَّطبيقيَّة، وجائزة نجيب محفوظ في النَّقْد الأدبي عام ٢٠١٨.

يوسـف وقَّاص، كاتب ومترجم سـوري، يكتب بالإيطالية، مواليد إدلب ١٩٥٦. أحدث أعماله "الطريق إلى برلين"، اسـتلهم فيها يوميات مجموعة من السُّـوريِّيْن الفارِّين من أتون الحرب. تُرجِمَتْ مؤخَّراً إلى العربية. وله ترجمات إلى الإيطالية، أحدثها "حيُّ ابن يقظان" لابن طُفيل، فضـــلاً عن ترجمات من الإيطالية إلى العربية، أحدثها رواية "قطار الأطفال" لـ فيولا أردونيه. مقيم في ميلانو.

محمَّد صابر عبيد، شاعر وناقد أدبي وأكاديمي من العراق، مواليد الموصل ١٩٥٧، دكتوراه في الأدب العربي الحديث والنَّقْد. صــدر له عدد كبير من المؤلَّفات النَّقْدِيَّة، منها: "المُتخيَّل الشِّــعْرِيُّ"، "شِــعْرِيَّة

القصـــيدة العربية الحديثة، "، "القصـــيدة العربية الحديثة بين البنية الدلالية والبنية الإيقاعية"، "شِـــعْرِيَّة الحُجُب في خطاب الجسد". من دواوينه: "عشب أرجواني يَصطلي في أحشاء الريح". مقيم في العراق.

ممدوح فرَّاج النابي، ناقد أدبي وأكاديمي من مصـــــر، مواليد ١٩٧٥ الدكتوراه في النَّقْد الأدبي، كُلِّيَّة الآداب - جامعة القاهرة، أسـتاذ مشـارك (الأدب العربي والبلاغة) بكُلِّيَّة الإلهيات - جامعة رجب طيِّب أردوغان (تركيا). صــدر له مؤلَّفات نَقْدِيَّة، منها: «السِّـيرة الذَّاتيَّة: سـؤال الهوية والوجود - قراءة في إبداع المرأة»، «رواية السـيرة الذَّاتيَّة: دراســة في التأصـيل والتشـكيل»، «جماليات النَّصّ الرِّوائيِّ: دراســـات في الرواية»، «نجيب محفوظ: الذاكرة والنسـيان»، «الرواية الحديثة: "قراءة النصــوص، وجماليات التَّلَقِّي»، «القارئ العادي، والتيه النَّقْدِيّ».

هيثم حســـين، روائيّ وناقد ســـوري، مواليد عامودة ١٩٦١، له عدد من الروايات، منها "رهائن الخطيئة"، "إبرة الرعب"، و"عشـــبة ضــــارَّة في الفردوس". ومن أعماله النَّقْدِيَّة "الرواية بين التلغيم والتلغيز"، "الرِّوائيُّ يقرع طبول الحرب"، "الرواية والحياة"، "الشَّـــخصـــيَّة الرِّوائيَّة مســـبار الكشــف والانطلاق". أسَّس ويشرف على موقع "الرواية" الإلكتروني، وعضو هيئة تحرير "الجديد اللَّندنيَّة. مقيم في لندن.

حميد زناز، باحث ومترجم من الجزائر، من مؤلَّفاته في اللغة العربية: "فصل المقال في الرَّدِّ على أهل الظلام"، "أسفار العقل"، "المعنى والغضب". ومن إصداراته في الفرنسية:"لأصولية: كيف حَفَرَ الغرب قبره"، " الأصولية كما فسَّرتُها لابنتي"، "الغزو الإسلامي لأوروبا /حضارة تحتضر". مقيم في باريس.

المتوكِّل طه، شاعر من فلسطين، مواليد قلقيلية عام ١٩٥٨، حَصَلَ على دكتوراه في الآداب، ساهم في تأسيس بيت الشِّعْر" في فلسطين. له العدد من الدواوين الشِّعْرِيَّة والكتابات النَّثْرِيَّة. والدراسات النَّقْدِيَّة. من
دواوينه "مواســم الموت والحياة"، "زمن الصــعود"، "فضــاء الأُغنيَّات"، "رغوة السـؤال"، "ريح النار المقبلة"، "حليب أســـود". وله في النَّقْد "حدائق إبراهيم طوقان"، وله في أدب السَّـــفَر واليوميات "مُدِن الإيقاع". مقيم في رام الله.

فارس الذّهبيّ، كاتب ومخرج مسرحي وسينمائي من سوريا، مواليد دمشق ١٩٧٩، تخرَّج في "المعهد العالي للفنون المســـرحية". أخرج العديد من الأعمال المســـرحية داخل ســـوريا وخارجها. من أعماله القصصية "الريح والملح"، "تفسير الأحلام"، ومن أعماله المسرحية "مولانا"، «ليلى والذئب، "ريح"، "زفرة السوري الأخيرة"، "شيزوفرينيا"، " صهيل الحصان العالي". مقيم في باريس.

مخلص الصغير، شاعر وكاتب من المغرب، مواليد ١٩٧٧، مدير دار الشِّعْر بتطوان. أستاذ في المعهد الوطني للفنون الجميلة، ورئيس جَمْعِيَّة أصدقاء لوركا. شغل منصب رئيس تحرير مجلَّة "مغرب اليوم". تُوِّجَ بالجائزة الوطنية للشــعراء الشــباب في المغرب، وصـــدر له العديد من الدراســـات والمقالات في صحف ومجلَّات عربية، وكتاب "المتعدِّد والمتفرِّد: حكاية فنَّان تشكيلي".

حاتم الصـــكر، ناقد أدبي وأكاديمي من العراق، مواليد بغداد ١٩٤٥، دكتوراة في النَّقْد الأدبي، من أعماله "الثمرة المحرَّمة - مقدّمات نَظَرِيَّة وتطبيقات في قراءة قصيدة النثر"، "أقنعة السيرة وتجلِّياتها"، "نَقْد الحداثة - بواكير الخطاب النَّقْدي وتنويعاته المعاصرة"، "حلم الفراشة: الإيقاع والخصائص النَّصِّيَّة في قصيدة النثر"، "مرايا نرسيس: قصيدة السَّرْد الحديثة في الشِّعْر المعاصر"، "ترويض النَّصِّ: تحليل النَّصِّ الشِّـــعْرِيِّ في النَّقْد العربي المعاصـــر"، "الأصـــابع في موقد الشِّـــعْر: مقدّمات مقترحة لقراءة القصيدة". مقيم في الولايات المتَّحدة.

أزراج عمر، شاعر وناقد جزائري، مواليد ١٩٤٩، له العديد من الأعمال الشِّعْرِيَّة والنَّقْدِيَّة واليوميات، منها في الشِّـعْر "وحرسـتي الظّلّ"، "الجميلة تقتل الوحش"، "العودة إلى تيزي راشـد"، "الطريق إلى أنمليكش وقصـائد أخرى"، وفي الصـحافة والنَّقْد "أحاديث في الفكر والأدب"، "منازل من خزف"، "الحضـور". حائز على جائزة "اللوتس" الأفروآسـيوية للأدب. عضـو هيئة تحرير "الجديد"، مقيم في لندن.

مصـطفى الحدَّاد، جامعي مغربي من مواليد ١٩٦٠، أسـتاذ اللسـانيات العامة وفلسـفة اللغة في كلية الآداب بتطوان. نشـر كتاب "اللغة والفكر وفلسـفة الذهن" ١٩٩٥؛ حقق بمعية أحمد محفوظ "تهافت التهافت" لابن رشـد ضـمن مشـروع عابد الجابري لتحقيق تراث ابن رشـد الفلسـفي ١٩٩٨. وسـاهم في مؤلفات جماعية، أهمها "موسوعة الأبحاث الفلسفية: الفلسفة الغربية المعاصرة" ٢٠١٣.

بلال سـامبور، باحث وأكاديمي من تركيا، مواليد ١٩٧٠، أسـتاذ علم النَّفْس في جامعة يلدريم بيازيد بأنقرة، له العديد من الأبحاث في علم النَّفْس والتَّعدُّديَّة الثَّقافيَّة. والأديان. من مؤلَّفاته: "مسـار التفريد، نَظَرِيَّة يونغ في علم النفس"، "القيمة الفعلية للإسـلام". وله عدد من الترجمات من الإنكليزية إلى التُّركيَّة، منها كتاب ""تحدِّيات التَّعدُّديَّة والكنيسـة والدولة في خمس ديمقراطيات" لمؤلِّفَيْه سـتيفن . إم مونسما، وج. كريستوفر سوبر. مقيم في أنقرة.

إمانويل بوتّاتسـي غريفوني، مواليد ١٩٧٧. شـاعر وأكاديمي إيطالي دكتوراه في الفلسـفة عام ٢٠١٠. قام بتدريس هندسـة المعرفة في جامعة ترينتو. يتعاون مع "معهد العلوم والتِّقْنِيَّات المعرفية" و"معهد الصَّوتيَّات والتِّقْنِيَّات النَّانيَّة" التابع لمجلس البحوث الوطني منذُ ٢٠٠٢ وحتَّى ٢٠١٩ على التوالي. وفي عام ٢٠٠٨ كان باحثاً زائراً في قسـم الفلسـفة بجامعة كولومبيا في نيويورك. كَتَبَ ونَشَـرَ في الفلسـفة الاجتماعية، وعلم الاجتماع، والذكاء الاصـطناعي، ويتعاون حالياً مع دار النشـر العربية، "المتوسِّـط"، ومقرُّها ميلانو. تركَّزت اهتماماتُهُ في السـنوات الأخيرة على الأدب والفلسـفة السِّياسـيَّة للأدب .. يعيش في ميلانو.

عبد الرحمن بسيسو، ناقد وشاعر ودبلوماسي من فلسطين، مواليد غزَّة ١٩٥١، له العديد من المؤلَّفات، منها في نَقْد الرواية "اسـتلهام الينبوع"، وفي نَقْد الشِّـعْر "قصـيدة القناع في الشِّـعْر العربي المعاصـر" الجزء الأوَّل في رباعية نَقْدِيَّة، درسـت جزءاً كبيراً من الشِّـعْرِيَّة العربية الحديثة، وله في الشِّـعْر "شامندة". عضو هيئة تحرير "الجديد" اللَّندنيَّة، مقيم في براتشسلافا.

الهوامش

*) -Žižek S. Pandemic! Covid-19 shakes the world. New York: OR Books; 2020.

**) - Davis M. The Monster Enters، Covid-19، Avian Flu and the Plagues of Capitalism، New York: OR Books; 2020.

***) لا سلطة، من اليونانية ἀναρχία، فوضى، أو "بدون حاكم"، ويقصد الكاتب هنا حالة اجتماعية، حيثُ لا يوجد شخص حاكم أو مجموعة حاكمة، ولكنْ، لكلِّ فرد مطلق الحُرِّيَّة (بدون إثارة اضطرابات).

****) Yousef Wakkas، "I guardiani di Kafar Nabo"، El-Ghibli، 7، 28، 2010 URL http://archivio.el-ghibli.org/index.php%3Fid=1&issue=07_28&section=1&index_pos=4.html Data di accesso: 30 Aprile 2020. Il racconto è stato pubblicato successivamente in Il Segnale، XXXVII، 2018: pp. 56-60.

*****) انتشـر طاعون جوسـتنيان في عام ٥٤١-٥٤٢م، وتكرَّر حتَّى عام ٧٥٠ م، وهو وباء أصـاب الإمبراطورية البيزنطية، وعاصـمتها القسـطنطينية، وكذلك الإمبراطورية السَّـاسـانيَّة والمُدُن السَّـاحليَّة حول البحر الأبيض المتوسِّـط بأكمله، ويعتقد بعض المؤرِّخين أن طاعون جوسـتنيان كان أحد أكثر الأوبئة فَتْكاً في التاريخ، وأنه أدَّى إلى وفاة ما يُقدَّر بنحو ٢٥-٥٠ مليون شخص خلال قرنَيْن.

******) Against the Grain (Yale University Press، 2017

*******) Giovanni Pettinato، Mitologia sumerica، UTET 2013: p. 70

********) De Cive (المواطن، باللَّاتينيَّة) لتوماس هوبز، نشـر عام ١٦٤٢، وهو قسـم من عناصـر فلسـفته، جنباً إلى جنب مع De Corpore (الجسـد) وِDe Homine (الإنسـان). هوبز، أعاد كتابة (المواطن)، وطوَّره، ليخرجَ بتُحفته (ليفياثان) عام ١٦٥١. يتناول هذا العمل التباين الجوهري بين حالة الطبيعة والدولة المَدَنيَّة.

********) Ernst Weidner، "Bárbaros"، Glotta، 4، 3. 1913: pp. 303-304.

********) Domenico Silvestri، "Identità، varietà e alterità linguistiche nel mondo antico" in Atti del Convegno della Società Italiana di Glottologia: Roma 22-24 ottobre 1998، Il Calamo، 2000: pp. 79-111.

********) Giovanni Pettinato، Mitologia sumerica، UTET، 2013: p. 4.

********) Yousef Wakkas، “I guardiani di Kafar Nabo”، in Il Segnale، XXXVII، 2018: p. 58.

********) المصدر السابق نفسه، ص ٥٩.

********) Giorgio Agamben، "Biosicurezza e politica"، in Una voce، rubrica di Giorgio Agamben، Quodlibet، 11 maggio 2020. URL:https://www.quodlibet.it/giorgio-agamben-biosicurezza

********) Giorgio Agamben، “L”’invenzione di un’epidemia، in Una voce، rubrica di Giorgio Agamben، Quodlibet، 26 febbraio 2020. URL:https://www.quodlibet.it/giorgio-agamben-l-invenzione-di-un-epidemia.

********) FT Visual & Data Journalism team، “Coronavirus tracked: the latest figures as countries fight to contain the pandemic” Financial Times، URL:https://www.ft.com/content/a26fbf7e-48f8-11ea-aeb3-955839e06441

********) Giorgio Agamben، “La medicina come religione”، in Una voce، rubrica di Giorgio Agamben، Quodlibet، 2 maggio 2020. URL:https://www.quodlibet.it/giorgio-agamben-la-medicina-come-religione، data di ultimo accesso: 15 maggio 2020. }Giorgio Agamben، "Medicine as Religion"، in An und für sich، May 2nd، 2020.
URL:https://itself.blog/2020/05/02/giorgio-agamben-medicine-as-religion/

********) Ludwig Wittgenstein. “Note sul "Ramo d’oro" di Frazer”. Adelphi، 1975: p. 13 }Wittgenstein، Ludwig، Stephan Palmié، and Col G. Da. The

Mythology in Our Language: Remarks on Frazer's Golden Bough.، Hau Books، 2018: pp.

********) Jacob Stegenga، Medical Nihilism، Oxford University Press، 2018.

********) Jacob Stegenga، “Fast Science And Philosophy Of Science” in Auxiliary hypotheses

********) Gian Franco Gensini et al. “The concept of quarantine in history: from plague to SARS.” The Journal of infection 49، 4، 2004: pp. 257-61.

********) Walter Farber، "How to Marry a Disease: Epidemics، Contagion، and a Magic Ritual against the ‘Hand of the Ghost’” in H. F. J. Horstmanshoff et al. (a cura di)، Magic and Rationality in Ancient Near Eastern and Graeco-Roman Medicine، Brill، 2004: p. 121

********) Giorgio Agamben، "Biosicurezza e politica"، in Una voce، rubrica di Giorgio Agamben، Quodlibet، 11 maggio 2020. URL:https://www.quodlibet.it/giorgio-agamben-biosicurezza

********) in Paura، reverenza terrore، Adelphi، 2015: pp. 55-80.

********) David Runciman، "Coronavirus has not suspended politics - it has revealed the nature of power"، 27 Mar 2020، https://www.theguardian.com/commentisfree/2020/mar/27/coronavirus-politics-lockdown-hobbes

********) Traduzione italiana di Tucidide. “La guerra del Peloponneso”، BUR، 1974: II، 52

********) Mark Welford، Geographies of Plague Pandemics، Routledge 2018: p. 13

********) Niall McCarthy، "COVID-19 Death Toll Surpasses Vietnam War"، Statista، 29 aprile 2020، URL< https://www.statista.com/chart/21545/deaths-from-the-coronavirus-and-vietnam-war/>

********) Yousef Wakkas، "Lupi in fabula"، in Yousef Wakkas، Terra mobile، Cosmo Iannone، 2004

********) Kenneth M. Abbott، Lupus in Fabula، The Classical Journal، 52، 3، 1956: pp. 117-122

********) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

********) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

********) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٦.

********) Ivan Illich، Life as Idol، CBC Radio One Interview، Toronto، 1992

********) Derek Parfit، Reasons and Persons، Clarendon Press، Oxford (1984).

********) الفيتيشية أو التّوثينيَّة أو التقديس الأعمى، ترجع أصولها للكلمة اليونانية facticius، والتي تعني مصطنع.

********) Karl Marx، Il capitale، Editori Riuniti، 1989: p. 110.

********) Karl Marx، Il capitale، Editori Riuniti، 1989: p. 111-112.

********) https://theconversation.com/while-we-fixate-on-coronavirus-earth-is-hurtling-towards-a-catastrophe-worse-than-the-dinosaur-extinction-130869

********) Jasper Bernes، Planning and Anarchy، South Atlantic Quarterly (2020) 119 (1): 53-73

********) Friedrich Von Hayek، "L’uso della conoscenza nella società"، in Competizione e conoscenza، Rubbettino Editore، 2017، traduzione italiana dell'originale inglese Friedrich A. Von Hayek، The Use of Knowledge in Society، "American Economic Rewiew"، 1945، vol. 35، pp. 519-30

********) برنامج الأمريكي العريق "Jeopardy" الذي اخترعَهُ ميرف غريفن لصالح قناة "سي بي أس"، ويُعرَض منذُ عام ١٩٦٤ في الولايات المتَّحدة الأمريكية حتَّى يومنا هذا.

********) M. U. Müller، "Playing Doctor with Watson. Medical Applications Expose Current Limits of AI"، Spiegel International، 03.08.2018، https://www.spiegel.de/international/world/playing-doctor-with-watson-medical-applications-expose-current-limits-of-ai-a-1221543.html

********) N. Linde (1992)، "The Machine That Changed the World. Documentary miniseries، part 3"، cit. in Ian Goodfellow et al، Deep Learning، MIT Press، 2016: p. 2.

********) https://www.technologyreview.com/2020/05/11/1001563/covid-pandemic-broken-ai-machine-learning-amazon-retail-fraud-humans-in-the-loop/

********) The limits and challenges of deep learning By Ben Dickson - February 27، 2018، https://bdtechtalks.com/2018/02/27/limits-challenges-deep-learning-gary-marcus/